ملاحظات
عن الكتابة المسمارية في إبلا

● د. عيد مرعي
قسم التاريخ — كلية الآداب
جامعة دمشق

أدت الحفريات الأثرية الإيطالية في تل مرديخ، الواقع على بعد ٥٥كم جنوب شرقي حلب مابين عامي ١٩٧٤ — ١٩٧٦، إلى الكشف عن آرشيف ملكي ضخم يتألف من أكثر من ستة عشر ألف رقيم وكسرة طينية، تؤرخ بالنصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، حيث قامت في شمال سورية آنذاك مملكة مزدهرة قوية هي مملكة إبلا Ebla، التي تعد أقدم مملكة عامرة عرفتها سورية. وبذلك تغيرت النظرة السابقة إلى سورية القديمة في الألف الثالث قبل الميلاد، القائلة أنها منطقة نزاع دائم بين ملوك بلاد الرافدين وفراعنة مصر القديمة؛ فقد تبين نتيجة دراسة الأرشيف الملكي أن إبلا كانت مملكة قوية، تمتد حدودها من الفرات في الشرق حتى سواحل المتوسط في الغرب، ومن جبال طوروس في الشمال حتى سهول حمص في الجنوب. وقد تمتعت بقوة عسكرية وسياسية واقتصادية كبيرة مكنتها من مد نفوذها إلى بعض المناطق المجاورة ومن إقامة علاقات سياسية واقتصادية متينة مع العديد من مدن بلاد الرافدين وممالكها. يضاف إلى ذلك أن إبلا كانت مركزاً حضارياً متقدماً له إنجازاته الحضارية المتميزة. فقد عرف الإبلويون أول قاموس لغوي في التاريخ، دوّنوا فيه الكلمة السومرية أولاً وتحتها معناها في اللغة الإبلوية. وأحياناً كانت تذكر تهجئة الكلمة السومرية(١). وقد ارتبط هذا المركز الحضاري المتقدم بعلاقات ثقافية وثيقة مع مناطق جنوبي بلاد الرافدين، حيث كانت تقوم هناك في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد حضارتان هما: الحضارة السومرية في بلاد سومر، والحضارة الكيشية(نسبة إلى مدينة كيش،حالياً: تل الأحيمر) في المنطقة الممتدة بين كيش وماري وماجاورهما.

وتجلت تلك العلاقات مابين إبلا وكيش في قيام اتصالات ثقافية قوية، نجد أبرز مثال عنها زيارة أستاذ الرياضيات من كيش إلى إبلا(٢). أما العلاقات مابين إبلا وبلاد سومر فتظهر بأوضح صورها في تبني الإبلويين نظام الكتابة المسماري لتدوين وثائقهم وسجلاتهم.

من المعروف أن الكتابة المسمارية ظهرت أول ماظهرت في بلاد سومر ، في أقصى جنوب بلاد الرافدين، في أواخر الألف الرابع وبداية الألف الثالث قبل الميلاد. ويعزى ذلك الاختراع الهام في تاريخ البشرية إلى السومريين. وقد مرت الكتابة المسمارية بمراحل تطور متعددة قبل أن تصل إلى الشكل المقطعي المعروف، وهذه المراحل هي(٣):

١ —المرحلة التصويريةPICTOGRAPHY:

وهي أقدم مراحل الكتابة على الإطلاق، وفيها كان يتم التعبير عن الأشياء المراد التعبير عنها برسم صورها أو أجزاء منها. فصورة المحراث تعني محراثاً، وصورة السمكة تعني سمكة، وصورة السنبلة تعني شعيراً، ورأس الثور يعنى ثوراً، ورأس الإنسان يعنى إنساناً.

وتمثل أقدم شواهد هذه المرحلة في النصوص المكتشفة في أوروك—الطبقة— الرابعة بـUruk IV B، والبالغ عددها أكثر من ألف لوح يرقى تاريخها إلى نحو ٣٣٠٠ق.م. وهي في معظمها نصوص اقتصادية وإدارية قصيرة تتعلق بحساب واردات المعابد(٤)، لأن المعبد في سومر كان في تلك الفترة مركزاً للنشاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي بالإضافة إلى الديني. ومن شواهد هذه المرحلة في سورية لوحان صغيران من الطين غير المشوي اكتشفا في تل براك عام ١٩٨٤(٥)، وبضعة ألواح في حبوبة كبيرة(٦).

٢—المرحلة الرمزيةIDIOGRAM/LOGOGRAM:

وقد تطورت الصورة فيها إلى رموزأو اشارات مسمارية لاتعبر فقط عن المعاني الأصلية للصورة الأصلية المرسومة بل أيضاً عن أفكار ومعان لها علاقة بالمعنى الأصلي للشيء المرسوم. فالرمز الدال على الشمس لم يعد يعني الشمسّ فقط بل الضوء والنهار واليوم والحرارة، أي كل المعاني المرتبطة بالمعنى الأول.

وللتعبير عن معان جديدة صارت تدمج إشارتان أو أكثر للحصول على معنى جديد مثل:

فم + خبز = يأكل KA + NINDA = KU

رجل + كبير = ملك LU + GAL = LUGAL

٣—المرحلة المقطعية أو الصوتية PHONETICS

وفيها أخذ كل رمز صوتاً معيناً يتناسب واللغة المستخدمة بغض النظر عن مدلوله الصوري. وكان كل رمز يحمل عدة معان، ويمكن أن يؤلف كلمة أو جزءاً من كلمة بإضافته إلى رمز أو رموز أخرى. وقد عرفت هذه المرحلة من مجموعة نصوص اكتشفت في أور، ويرقى تاريخها إلى نحو ٢٨٠٠ق.م.

لم ينحصر استخدام الكتابة المسمارية في بلاد الرافدين، بل شاع وانتشر في مختلف بقاع الشرق القديم بدءاً من الألف الثالث وحتى الألف الأول قبل الميلاد. ودونت بها لغات متعددة كالسومرية والإبلوية والأكادية والعيلامية والحثية والحورية والأورارتيه.

وقد استخدم سكان إبلا في شمال سورية هذا النظام الكتابي في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، لكتابة لغتهم وتدوين وثائقهم بطريقة تشبه الطريقة المستخدمة في مدن جنوب بلاد الرافدين.

فنصوص إبلا تظهر تشابهاً كبيراً من حيث الكتابة مع النصوص المكتشفة في موقعي (شوروباك القديمة) وأبو صلابيخ في جنوب بلاد الرافدين، وهما موقعان سومريان تظهر في نصوصهما المكتشفة تأثيرات كيشية واضحة. وقد دونت بالخط المسماري بثلاثة أساليب هي(٧):

١—نصوص كتبت بإشارات مقطعية فقط، ويلاحظ ذلك بشكل أساسي في بعض التعاويذ والنصوص الدينية كما في النص التالي(٨):

du11- ga	قرار
en	الملك
gis-ba-tuku	سمع
dKu-ra	الإله كورا
wa	و
(d) UTU	إله الشمس
gis-ba-tuku	سمع
wa	و
gis-ba-tuka	سمع
DA-DA	الإله هدد
WA	و
gis-ba-tuka	سمع
dingir-dingir	(كل)الآلهة

٢—نصــــوص كتبــت بشكــــل رئيسي بــإشـــارات مقطعيــــة مـــع بعــــض الرموز(اللوغوغـرامات واللغوغرام,LOGOGRAMإشارة مسمارية تمثل كلمة واحدة) مثل الرسـائل والنصوص التاريخية والمعـاهدات والنماذج المختلفة من المؤلفـات الأدبية، ونورد فيما يلي كمثال على ذلك رسـالة إركب داموIrkab-Damu ملك إبلا إلى زيزي Ziziملك خمازي، وهي منطقة تقـع إلى الشرق من بلاد الرافدين، والمتعلقة بـإقامة حلف بين المملكتين(٩).

الوجه الأمامي:

I	1)	en-ma	هكذا
	2)	i-bu-bu	إبو بو
	3)	agrig	ناظر
	4)	é	قصر
	5)	en	الملك
	6)	li-na	إلى
	7)	sukkal-dug-<si-mà>	الرسول(اسمع)
	8)	an-ta	أنت
	9)	ses	أخـ(ـي)
	10)	u	و
II	1)	an-na	أنا
	2)	ses	أخـ(ـوك)
	3)	Iu-ses	(لك) رجل أخ
	4)	mi-nu-ma	ما
	5)	al-du11-ga	ترغب
	6)	si	ويخرج
	7)	Ka	من فمك
	8)	an-NA	أنا
	9)	in-na-sum	أعطي
	10)	u	و
III	1)	an-TA	أنت

	2)	al-du11-ga	الرغبة
	3)	si	الخارجة(من فمي)
	4)	i-na sum	تعطي(تلبي)
	5)	BAR-AN-SA6	جنوداً جيدين
	6)	hi-mu-tum	أرسل إلي، فأنا أصلي:
	7)	an-tà	أنت
	8)	ses	أخـ(ـي)
	9)	u	و
	10)	an-na	أنا
	11)	ses	أخـ(ـوك)
IV	12)	10gis ÉS	عشر قطع أثاث خشبي
	1)	2gis asud- gis ÉS	حليتان
	2)	i-bu-bu6	(أنا) إيوبر
	3)	in-na-sum	أعطيتهم
	4)	sukkal-du8	إلى الرسول
	5)	ir-kab-da-mu	إركب دامو
	6)	EN	ملك
	7)	eb-laki	إبلا
	8)	ses	أخو
V	9)	zi-zi	زيزي
	10)	en	ملك
	1)		حمازي
	2)	HA-MA-ZI-IM^{Ki}	زيزي
	3)	zi-zi	ملك
	4)	en	
	5)	ha-ma-zi-imki	حمازي
	6)	ses	أخو
	7)	ir-kab-da-mu	إركب دامو
	8)	en	ملك
VI	1)		إبلا
	2)	eb-laki	و
	3)	u	هكذا
	4)	en-ma	تيرا—إل
	5)	ti-ra-il	الكاتب
	6)	dub-sar	كتب
	7)	(i)k-tub	وإلى
	8)	li-na	رسول
	9)	sukkal-du8	زيزي
		(zizi)	الوجه الخلفي:
I	1	i-na-sum	أعطي(الرسالة)

٣—نصوص كتبت بشكل رئيس بعلامات رمزية(لوغوغرامات) ووشيت بإشارات مقطعية مثل النصوص الإدارية. وقد استخدم اللوغوغرام بشكل رئيس للتعبير عن أعداد ومقاييس وبضائع مختلفة وتسميات خاصة بالممارسات الإدارية(دخول بضائع وخروجها واستلامها..إلخ)

علماً ان معظم نصوص إبلا إدارية تتعلق بإدارة القصر الملكي. أما الاشارات المقطعية فقد استخدمت للتعبير عن أسماء أعلام وضمائر وظروف وأدوات جر وبعض الأعداد (مئة، ألف، عشرة آلاف) وأسماء بضائع ليس لها مقابل لوغوغرامي في اللغة السومرية.

وقد قاد هذا الاستخدام المكثف للوغوغرامات في نصوص إبلا بعض الباحثين إلى الافتراض أن معظم نصوص إبلا كتبت باللغة السومرية وليس باللغة المحلية المعروفة حالياً بالإبلوية(١٠).

غير أن الدراسات اللاحقة والدقيقة لأرشيف إبلا، وبخاصة تلك التي قام بها عالم الدراسات الآشورية المعروف Gelb، أظهرت أن القسم الأعظم من نصوص إبلا كُتب باللغة الإبلوية وليس السومرية. ويقتصر ماكتب بالسومرية على المؤلفات الأدبية والنصوص المدرسية المستوردة من الخارج(١١).

من الجدير بالذكر أن الأساليب الثلاثة المذكورة لاستخدام الخط المسماري في إبلا كانت معروفة في المصادر الرافدية العائدة إلى الألف الثالث قبل الميلاد. ويشبه توزيع اللوغوغرامات والمقاطع في نصوص إبلا الادارية أو مطابق لمثيله في النصوص الإدارية الرافدية من العصرين ماقبل الشاروكيني (٢٧٠٠—٢٣٥٠ق.م) والشاروكيني(٢٣٥٠—٢٢٨٤ق.م).

غير أن كتّاب إبلا استخدموا هذه الأساليب لكتابة لغة إبلا ونصوصها بشكل مختلف تماماً عن استخدامها لكتابة أية لهجة أكادية أو لغة أخرى، وينطبق هذا الشكل بشكل خاص على المعاهدات والنصوص التاريخية التي أثارت قراءتها وترجمتها كثيراً من المشاكل والصعوبات.

ففي الرسالة من إركب دامو ملك إبلا إلى زيزيZiziملك حمازي، نقرأ مايلي:

أنت شيش و أنا شيش ومعناها الحرفي : أنت أخ وأنا أخ، غير أن ترجمة بيتيناتو، أنت أخـ(ـي) وأنا أخـ(ـوك) : صحيحة فهذا هو المعنى المقصود.

وتكتب كلمة أخ الواردة في هذه العبارة الآكادية القديمة:

«أخي وأخوك»، (أو ربما شيشي أو شيشخي، وشيشكا)(١٢).

هناك أيضا صفة أخرى للكتابة المسمارية التي استخدمت في إبلا لم تعرف خارجها في الفترات التاريخية الأولى وهي ربط الشكل السومري للفعل مع ضمير ملكية إبلوي كما في المثالين التاليين(١٣):

I.NA.SUM-kum: هو أعطى لك.

I.NA. SUM-sum: هو أعطي له.

فالفعل السومري إناسوم: أعطى اتصل بـه ضمير الملكية المتصل للمخاطب المفرد المذكر في حالة الجر في المثال الأول، وضمير الملكية المتصل للغائب المفرد المذكر في حالة الجر أيضاً في المثال الثاني.

نخلص مما سبق إلى القول أن سكان إبلا استخدموا الكتابة المسمارية بشكل يتناسب مع خصائص لغتهم وصفاتهم، كما هي الحال حالياً في استخدام الحروف العربية لكتابة اللغة الفارسية بشكل يلائم تلك اللغة، واستخدام الحروف اللاتينية لكتابة العديد من اللغات الأوربية الحديثة بشكل يتناسب مع قواعد تلك اللغات وصفاتها.

الهوامش:

★ألقي هذا البحث في الندوة الاقليمية الأولى عن الكتابات في بلاد الشام حتى ظهور الاسلام التي نظمتها جامعة اليرموك بالاردن مابين٢٥—٢٧ / ٤/ ١٩٩٤ .

١— Pettinato,G.,the Archives of Ebla, an empire inscribed in clay, Garden City, New york 1981,P.235.ff

٢— -Ibld.,P.239.

٣—حول نشوء الكتابة المسمارية وتطورها أنظر: مرعي، عيد، الكتابة والتعليم في بلاد الرافدين، دراسات تاريخية ٤١—٤٢، ١٩٩٢ ، ص٧ومايليها.

٤—أنظر حول نصوص أوروك:

Falkenstein, A., Archaische Texte aus Uruk(Ausgrabungen der deutschen Ftorschungsgemeinschaft in Uruk-Warka, Band2) , Berlin 1936 .

٥— Finkel, I. L., Inscription from tell Brak 1984, in: Iraq 47(1985), P.187.

٦— -Strommenger, E., Habuba kabira, eine stadt vor 5000 Jahren , Mainz am Rhein 1980,S.63 ff.

٧— Gelb, I. J. Ebla and the Kish Civilization, in: L. Cani(ed.) La lingua di EBLA NAPOLI, 1981, P11.ff.

٨— -Pettinato, G, The archives of Ebla, an empire inscribed in clay, Garden City , New York 1981, P.246 ff.

٩—ترجم بيتيناتو هذه الرسالة في كتابه:

The arvhices of Ebla, P. 97-98p Ebla Nuovi orrizzonti della Storia, Milano, 1986; P. 397. 398 .

Pettinato , G., Gli archivi Reali di Tell Mardikh-Ebla: Reflessioni—١٠ e prspettive, in: Rivista Biblica Italiana 25(1977), p. 238; Biggs, R, D ., the Ebla Tablets, an Interim prespective, in Biblical archaelogist 43 (1980), P. 83.

-Gelb, op. cit., P.11,13ff;—١١

ibid, P. 17.—١٢

ibid, P. 18.—١٣

دور مملكة كندة السياسي في شمال الجزيرة العربية
(في القرنين الخامس والسادس الميلاديين)

د. محمود فرعون
كلية الآداب ـ جامعة دمشق

شغلت قبائل كندة دوراً هاماً في تاريخ الجزيرة العربية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين بوصفها، دولة ذات شأن لها مصالحها الخاصة، سواء داخل الجزيرة أو على الحدود مع بيزنطة وفارس في الشمال. وأظهرت الاكتشافات التي تمت في وسط الجزيرة وجنوبها، المكانة الخاصة لعاصمة كندة القديمة ودورها على طريق التجارة بين جنوب الجزيرة والشمال الشرقي، وحظيت الكتابات والنقوش الجنوبية التي اكتشفت في قرية «الفاو» بأهمية بالغة، فقد أفادتنا في التعريف على إسم عاصمة دولة «كندة» وأن اسمها «قرية» ووصفتها بأنها «ذات كهل» نسبة لمعبودها. وعن طريقها تعرفنا أيضاً لأول مرة في التاريخ العربي على عاصمة هذه الدولة التي لم تشر الكتب القديمة اليها من قريب أو بعيد. كما لم تشر الى معبودها الرسمي بشكل قاطع، وقد حدد العلماء الذين درسوا هذه الكتابات انها تعود الى مابين القرنين الأول والخامس بعد الميلاد.(١)

فالحديث عن كندة على حدود بيزنطة وفارس يعد محاولة لرسم صورة عن التاريخ السياسي العام لهذه الدولة، وتظهر الأبحاث التي نشرت منذ عدة سنوات، عن نتائج آثار «قرية الفاو» صورة من صور الحضارة العربية قبل الاسلام(٢).

فمملكة كندة: هي مجموعة من القبائل تعود في أصلها إلى الجنوب العربي، حسب رأي الهمداني(٣)، وياقوت(٤)، وابن خلدون(٥)، ولكن هذه المصادر لم تحدد بالضبط موطن تلك القبائل ومتى هاجرت الى غمر ذي كندة الذي يقع في الطرف الجنوبي الغربي من نجد على مسافة يومين من مكة(٦).

وقد ورد ذكر كندة في النقوش السبئية أكثر من مرة(٧)، وقراءة هذه النقوش ألقت الضوء على تاريخ هذه القبائل، وأيدت ماورد في المصادر العربية بأن كندة مجموعة قبائل جنوبية انتقل قسم منها نحو الشمال باتجاه نجد، وتحركها نحو الشمال، انما كان جزءاً من عملية انتقال للقبائل العربية باتجاه وسط الجزيرة نتيجة للإضطرابات التي كان مسرحها

الجنوب العربي(٨)، وربما كان انتقال كندة الى المناطق التي شغلتها قبائل معد في نجد استمراراً لعملية انسياح عام للقبائل العربية، من الجنوب العربي إلى وسط وشمال الجزيرة العربية، امتدت لعدة قرون، ودور هذه القبائل في الجنوب غامض، فالمصادر لاتشير الى أي اتصال بين كندة والدول المجاورة قبل هجرتها الى غمر ذي كندة ،سوى رواية اليعقوبي عن الحرب الطاحنة بين كندة وحضرموت(٩).

وخلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين قامت على الحدود الشمالية لجنوب الجزيرة العربية عدد من الممالك البدوية، أكبر هذه الممالك مملكة كندة القديمة بمركزها في مدينة«قرية» ذات كهل، والتي أكتشفت منذ زمن غير بعيد في وادي الدواسر على الطريق بين نجران واليمامة(١٠). ويبدو أنه لم يكن لكندة أي وزن سياسي كبير في هذه الفترة يؤهلها للاتصال بالدول الكبرى كدولة الفرس والروم، أو بسبب سيطرة ملوك سبأ وحمير عليها لوقوع عاصمتها على الطريق التجاري الذي يربط بين جنوبي الجزيرة العربية والشمال، وشمالها الشرقي حيث كانت القوافل تبدأ من ممالك الجنوب باتجاه نجران ومنها «قرية» الفاو وبعدها باتجاه اليمامة والخليج، وشمالاً الى وادي الرافدين وبلاد الشام، فهي بذلك تعتبر مركزاً تجارياً، واقتصاديا هاما في وسط الجزيرة العربية(١١). ولذلك تعرضت للغزو من قبل ممالك الجنوب أكثر من مرة، وتشير النقوش الجنوبية (Ja. 635)(١٢) ان كندة وعاصمتها تعرضتا لهجوم من قبل جيوش شعرم أوتر، ملك سبأ وذي ريدان ،في القرن الأول ق.م، وكذلك نص النقش (Ja. 660)(١٣) الذي يعود إلى بداية القرن الرابع للميلاد يشير إلى أن كندة ومذحجا، كانتا ضمن القبائل القوية في جيش شمر يهرعش ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة. كما نجد كندة في نقش (Ry.509)(١٤) الذي يعود إلى فترة الملك أبي كرب أسعد الكامل الذي عاش في أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلادي. ويظهر هذا النقش ان كندة كانت من ضمن قوات حمير التي غزت وسط وشمال الجزيرة العربية.

وتؤيد هذه النقوش مايرد في المصادر العربية عن العلاقة بين حمير وكندة(١٥) ويفترض بتروفسكي(Piotrovsky)أن في زمن أبي كرب أسعد كانت البداية لتأسيس كندة الجديدة(١٦)التي فرضت سيطرتها على قبائل معد وربيعة ونزار وأصبحت كقوة في وسط الجزيرة العربية يحسب حسابها في زمن أسرة حجر الملقب بآكل المرار(١٧).

ويبدو أن نفوذ الحيرة على وسط الجزيرة العربية وشمالها قد تقلص مع ظهور كندة من الجنوب العربي«حمير» كقوة في وسط الجزيرة، ووصلت الى أوج سلطتها وتوسعها في ظل الملك الحارث بن عمرو(١٨) الذي يعدّ أشهر ملوك كندة وفي زمنه ارتفع شأنها ووصلت إلى ذروة عظمتها وقوتها، فامتدت سلطتها لتشمل وسط وشمال وشرق الجزيرة حتى شمل قبائل البادية مابين سورية والعراق، مما أدى إلى الاصطدام مع بيزنطة ويذكر

ثيوفانس أن الملك الكندي الحارث بن عمرو، بعث بحملة عسكرية كبيرة بقيادة ولديه «حجر وجبلة» عام (٤٧٩م) لمهاجمة الحدود الجنوبية لبلاد الشام، التابعة للامبراطورية البيزنطية، ثم اتبعها بحملة ثانية بعد أربع سنوات قادها ابنه «معد يكرب» ونجحت الحملة وتمكن الامير الكندي من تخريب مناطق واسعة من بلاد الشام(١٩). ويصف ثيوفانس (Theophanes) حملة معد يكرب بأنه «انقض كالريح على هذه المواضع وابتعد بسرعة بالغنائم، حتى أن «القائد» رومانوس تعقبهم ولم يستطع اللحاق بهم» (٢٠).

فطموحات الحارث بن عمرو أثارت خوف الدول المجاورة ودفعتها إلى التقرب من كندة آملة قيام نوع من التحالف معها لتحقيق مصالحها وأهدافها السياسية. وقد حاولت بيزنطة كسب كندة إلى جانبها أو على الأمل لتفادي تحرشها بالحدود الجنوبية للامبراطورية، أو للاستفادة من كندة، في التحرش بالحدود الغربية للساسانيين واضعاف نفوذ الحيرة وبالفعل تم عقد صلح بين الحارث بن عمرو والامبراطور البيزنطي انستاسيوس عام(٥٠٢م).

لكن بنود الاتفاق لم يذكرها ثيوفانس(Theophanes) ولكن المفروض أنهما اتفقا على انهاء النزاع بينهما والتحالف ضد فارس وحلفائهم المناذرة(٢١).

ويؤيد هذه الروايات مايرد عند المؤرخ يوشع العمودي، عن الحوادث في الحيرة في بداية القرن السادس الميلادي، بأن ملك الحيرة النعمان، اشترك مع الشاه الفارسي، قباذ، في المعارك التي وقعت بين الفرس والروم.

ففي عام ٥٠٢ م تقدم النعمان، بقواته من الجنوب الى منطقة حران فنهب وسبى وخرب حتى حدود اذاسا «الرها»، وفي عام ٥٠٣ شارك النعمان، في الهجوم على شمال سورية، فأصيب في احدى المعارك على الخابور ومات على أثرها(٢٢).

وقبل موت النعمان تلقت الحيرة ضربة شديدة، فقد زحف عرب الروم من بني ثعلبة على حيرة النعمان فعثروا على قافلة، وابل محملة كانت متجهة إليها، فانقضوا عليها وقتلوا جميع من كانوا هناك واقتادوا الإبل.(٢٣) وبنو ثعلبة الذين قاموا بالهجوم على الحيرة، هم بطن من بطون قبيلة بكر بن وائل التي ينتسب إليها الحارث بن عمرو الكندي من جهة أمّه(٢٤) ويفهم من وصف يوشع العمودي المعاصر للأحداث أن بني ثعلبة قد اضطلعوا منذ عام ٥٠٣م بمهمة حراسة الحدود البيزنطية وأن غارتهم على الحيرة كانت بمثابة ضربة مضادة رداً على غارات اللخميين. وكان الصلح الذي تم عقده في عهد الامبراطور انستاسيوس مع الحارث الكندي عام ٥٠٢م هو الذي يسر لقبيلة ثعلبة الخاضعة له الاغارة على الحيرة عام(٥٠٣م)(٢٥). وتتحدث المصادر العربية عن الوضع الخاص الذي شغله في تلك الأعوام الحارث الكندي بالعراق وبالمناطق المتاخمة بوضعه منافساً للمنذر اللخمي، ويظهر أن الحارث استطاع أن يبسط سلطانه على الجزء الأعظم من بلاد اللخميين في أثناء أعوام الاضطراب مابين عام ٥٠٣و٥٠٦ أثناء فترة الحرب بين بيزنطة وفارس(٢٦).

أما عن تقدم كندة نحو الحيرة واتصالها بالفرس فقضية يكتنفها الغموض، فالمصادر العربية تذكر عدة روايات تناقض بعضها بعضاً، فمنها، مايذكر ان ملك الفرس قباذ، طرد المنذر، من مملكته وأحل الحارث محله(٢٧). ومنها مازعمت أن المنذر استرضى الحارث، بعد أن رأى عجزه وعدم مساعدة الفرس له فتقرب إليه وتزوج ابنته هند(٢٨). وهناك رواية تذكر أن الحارث بن عمرو ،قتل ملك الحيرة النعمان بن المنذر بن امرىء القيس بن الشقيقة وأن المنذر ابنه فر ونجا بنفسه. وأن الحارث تملك بالقوة ماكان يملكه اللخميون، وأن قباذ داراه واسترضاه لما وجد فيه من القوة والبأس(٢٩). ويبدو أن الحارث الكندي، كان يتوق إلى اللقاء مع الفرس. بعد أن أفهم بيزنطة أنه ليس بالقوة الصغيرة في المنطقة العربية، وليس بالامكان السيطرة عليه بسهولة، وربما كانت رغبته في التعامل مع الفرس والملك الفارسي محصلة ظروف دولية كانت تخيم على شبه الجزيرة العربية وافقت مصالح كل من الملك الكندي الذي كان يسعى للسيطرة على الحيرة، ورغبة الملك الفارسي قباذ بالتحالف مع مملكة بيزنطة وفارس عام ٥٠٦(٣٠). وبسبب موقف الحيرة من الحركة المزدكية، (٣١) التي تبناها قباذ(٣٢)، أضف إلى ذلك رغبة الحارث الكندي في التحالف مع الفرس، ربما جاءت نتيجة تحرك قبيلتي بكر وتغلب باتجاه الشمال، تاركتين مناطقهما القديمة في اليمامة ونجد، لتستقرا في العراق على مقربة من الحدود الفارسية، وأن هاتين القبيلتين كانتا تشكلان عماد قوته العسكرية وبدونهما كان لايستطيع فرض شيء من رغباته السياسية(٣٣)، لذا وجب عليه أن يتلاءم مع الوضع المستجد ويقبل بالتقارب مع الملك الفارسي، أما مايتعلق بالجانب الفارسي وملكه قباذ، فقد رأت هذه الدولة لدى عاملها في الحيرة في تلك الاثناء المنذر بن ماء السماء انحرافاً عن ولائه التقليدي للفرس وميلاً نحو بيزنطة(٣٤).

وقد أيد قيام التقارب بين المنذر اللخمي وبيزنطة المفاوضات التي جرت بين الجانبين اثر الحملات العسكرية التي قام بها المنذر بن ماء السماء ضد ممتلكات الامبراطورية البيزنطية في بلاد الشام وآسية الصغرى، وأسفرت فيما بعد إلى عقد صلح وتحالف مع المنذر من خلال وفد أرسل للمفاوضة عام ٥٢٤(٣٥). فالتقارب بين المنذر وبيزنطة لم يرض بالطبع الملك الفارسي قباذ وسياسته، ولذلك سارعت الدولة الفارسية الى اتخاذ اجراء سريع ضد المنذر وأنزلت به العقوبة المناسبة بطرده من الحيرة، وتولية الملك الكندي الحارث بن عمرو مكانه واتخذته حليفاً لها. بينما يرى روزشتينRothstein أن ضعف الدولة الفارسية بسبب الاضطرابات المزدكية هي التي أتاحت للحارث بن عمرو الكندي أن يطرد المنذر من عرش الحيرة ويغتصب الملك(٣٦). ويظهر أن الظروف الدولية قد ساعدت في قيام التحالف بين كندة وفارس في هذه الفترة، لأن فارس كانت ترى في تحالفها مع كندة تحقيقاً لمصالحها الاقتصادية وطرق تجارتها المارة في الجزيرة

العربية بالإضافة إلى تأمين حدودها الجنوبية من هجمات القبائل العربية، لأن كندة من بني الجون(٣٧) هي المسيطرة على شرق الجزيرة ويمكن الافتراض أن التقارب مع كندة كان موجهاً ضد بيزنطة التي كات تحث حليفتها الحبشة على غزو اليمن لحرمان الفرس من مد نفوذهم إلى هناك(٣٨).

ولاتذكر المصادر العربية مكاناً ثابتاً للحارث بعد اغتصابه ملك اللخميين، فاليعقوبي (٣٩) يذكر أنه استقر في الحيرة، بينما يرى ابن الأثير(٤٠)، أنه أقام في الأنبار، ويورد حمزة الأصفهاني،(٤١) أن الحارث كان بمعزل عن الحيرة التي كانت دار المملكة، ولم يعرف له مستقر، انما كان سيارة في أرض العرب.

هذا وتربط المصادر العربية مدة حكم الحارث للحيرة بفترة ظهور المزدكية في ايران وقبول الحارث الدخول فيها(٤٢). ويفترض أولينـدر ،أن حكمه كان قصير الامد، مابين ٥٢٥و٥٢٨م أي حتى نهاية سلطة قباذ، وتولية أنوشروان ونكبة المزدكية نهاية ٥٢٨أو بداية ٥٢٩م(٤٣).

وباعتلاء كسرى أنوشروان، قيادة العرش تغيرت السياسة الفارسية بشكل جذري تجاه كندة(٤٤)، وبمجرد تسلمه السلطة أصدر أمراً بإعادة المنذر بن ماء السماء الى عرش الحيرة، وطرد الملك الكندي الحارث بن عمرو منها (٤٥). عندئذ لم يكن أمام الحارث إلا التقرب من خصوم الفرس البيزنطيين(٤٦). ويعود المنذر بن ماء السماء ثانية إلى عرش الحيرة، بدأت صفحة جديدة من الصراعات العسكرية بين مملكة الحيرة بقيادة المنذر وملوك كندة، ويذكر ابن الاثير أن أنوشروان طلب الحارث بن عمرو،«فبلغه ذلك وهو بالانبار فخرج هارباً في صحابته وماله وولده، فرَّ بالثوية فتتبعه المنذر بالخيل من تغلب وإياد وبهراء، فلحق بأرض كلب ونجا وانتهبوا ماله وهجاينه وأخذت بنو تغلب ثمانية وأربعين نفساً من بني آكل المرار فقدموا بهم على المنذر فضرب رقابهم بجفر الاملاك(٤٧).

ويروي ملالا Malala وثيوفانس Theophannes أن ديوميدس، القائد الروماني في فلسطين تحارب مع رئيس يدعى الحارث وأجبره على التراجع اتجاه«الهند»، ويقصد بذلك جنوب الجزيرة العربية، حيث كان يطلق عليها المؤلفون البيزنطيون« الهند» فلما بلغ ذلك المنذر رئيس الأعراب التابعين للفرس، هاجمه وقتله واستولى على ماله وأهل بيته(٤٨).

ويبدو أن المنذر بن ماء السماء لم يقف عند حد مطاردة الحارث بن عمرو الكندي، أو قتله في شمال الجزيرة العربية(٤٩). بل تابع الصراع مع ابنائه من بعده الذين بقوا متمسكين بملكهم والدهم في حياته ،على بعض القبائل العربية وصبروا على قتال المنذر الذي حاول تشتيت أمرهم بالخديعة والمكر ،تارة وبالقتال مرة أخرى(٥٠). وهكذا انهارت كندة بانتهاء الحارث بن عمرو وابنائه من بعده، بفعل الصراعات والنزاعات بينها

وفشلت محاولة الامير الكندي أمرىء القس بن حجر(٥١). الذي بذل جهداً كبيراً للثأر لأبيه وإعادة سلطان كندة تحت قيادته، لأنها اصطدمت بسياسة كسرى أنوشروان المناوئة لكندة وملوكها، كونه عهد إلى المنذر بن ماء السماء بأمر العرب، بالاضافة إلى حقد ملك الحيرة المنذر الذي أراد بدوره إخماد شعلة كندة والقضاء عليها بكل الوسائل المتاحة، لذلك نجده بمجرد التجاء قبيلة بني أسد إليه طالبة الحماية والنجدة ضد أمرىء القيس الكندي يعلن لها حمايته، ويعد العدة مع القبائل العربية الموالية له، بالاضافة الى جيش الاساورة الذي أرسله أنوشروان إليه، لسحق الاماني والرغبات التي حلم بها الامير الكندي، وحول هذا الجانب من ملاحقة الدولة الفارسية وعاملها على الحيرة لكندة وملوكها يذكر اين خلدون في كتابه العبر:

«ان امرأ القيس بعد أن انفضت عنه قبيلتا بكر وتغلب التجأ الى معشر الخير بن ذي جدن» أحد ملوك حمير، حيث أمدّه بخسمائة فارس، وجنود آخرين لمقاتلة بني أسد فلما علمت أسد بهذه الحملة التجأت إلى ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء، الذي وجه في طلبه الفرسان من قبائل اياذ وبهراء وتنوخ. وأمده أنوشروان بجيش من الاساورة، فسرحهم في طلبه فتفرقت حمير ومن كان معه امام تفوق جيش العدو هذا، فنجا من المنذر في عصبته من بني آكل المرار ومعه شيء من ماله وأدرعته كان قد ورثها عن آبائه»(٥٢).

ونجد في المصادر العربية (٥٣) الكثير من الروايات التي تناقض بعضها بعضاً حول مغامرات امرىء القيس وماقيل فيها من الشعر، ومحاولته الثأر لابيه واعادة مجد كندة كما كان، وماتمخض عنها من معارك، يظهر من خلالها فشله الذي دفعه إلى السفر إلى القسطنطينية، لطلب المساعدة من القيصر، مستغلاً كونه مناوئاً لملك الحيرة المنذر، وتنتهى مغامرته بالموت قرب أنقرة(٥٤).

هكذا كانت العلاقة بين ملوك كندة من بني آكل المرار وبيزنطة، ودولة الفرس، وعمالهم المناذرة(٥٥)، علاقة غزو ونزاع ثم تحالف وصراع، انهارت بعدها مملكة كندة، وانسحب من بقي منها باتجاه حضرموت ثانية. بينما استمر حكم كندة من بني الجون لليمامة وماحولها إلى فترة متأخرة نسبيا(٥٦)، انتهت بتعرض كندة إلى يومين من أشهر أيام العرب في الجاهلية(٥٧). قاتل فيهما الكنديون في اليمامة بكل مالديهم من قوة هما يوم جبلة(٥٨)، ويوم ذي نجب(٥٩). وفي هاتين الوقعتين كانت الضربة القاضية لكندة ومالها من أثر سياسي في شرق ووسط الجزيرة العربية، وغادر أرض اليمامة والبحرين على اثرها قسم كبير من الكنديين الى حضرموت(٦٠) ويعتبر أوليندر عودة آخر فلول الكنديين الى ديارهم السابقة بعد ماأصابها من مصائب في نجد واليمامة بأنها مرتبطة

بالتطلعات التوسعية الفارسية نحو جنوب الجزيرة العربية، ورغبة كندة أن تلعب دوراً جديداً كحليفة للفرس في منازلها الأولى(٦١). لكن لم نجد في المصادر مايؤيد وجهة نظر أوليندر هذه، لأن الفرس في زمن أنوشروان اعتمدوا على اللخميين في فرض سيطرتهم وسياستهم على القبائل العربية، وقد ذكر الطبري أن أنوشروان«ملك المنذر بن النعمان على العرب وأكرمه» (٦٢) وفي رواية أخرى يورد الطبري أن كسرى ملك المنذر بن النعمان على مابين عمان والبحرين واليمامة إلى الطائف وسائر الحجاز ومن فيها من العرب.(٦٣) والمنذر هذا هو الذي تتحدث عنه المصادر البيزنطية باسهاب وبأنه ألقى الرعب والفزع في الأراضي البيزنطية لمدة خمسين عاماً (٦٤).

وفي عهد المنذر الثالث بلغت دولة اللخميين أقصى درجات الازدهار والقوة، حتى ان الامبراطور جوستنيان حاول استمالته والتأثيرعليه بالاموال والهدايا لكي يكف عن مهاجمة الحدود البيزنطية. لذلك يصعب قبول وجهة نظر أوليندر. وقد أدى توسع اللخميين في وسط الجزيرة بعد القضاء على كندة إلى الاصطدام بمصالح حمير، ولذلك نجد أبرهة الحبشي حاكم اليمن وحليف بيزنطة يحاول اعادة مدّ نفوذ حمير على وسط الجزيرة بعد انهيار كندة، ويحتمل أنه قام أكثر من مرة بمحاولات غزو وسط الجزيرة العربية لارهاب سكانها المتحالفين مع ايران ولايقاف تحرك اللخميين نحو الجنوب(٦٥)، ويرد في نقش (Ry.506) لعام ٥٤٧م أن أبرهة حارب قبيلة معدّ في حلبان على الطريق المؤدي إلى اليمامة في وسط الجزيرة العربية وهزمها، واضطر عمرو بن المنذر الثالث الذي كان عاملاً للخميين على معد تقديم رهائن لابرهة أثناء مفاوضات الصلح(٦٦). ويذكر بريكوبيوس ذلك، ويتحدث عن حملة واحدة لابرهة، ثم قفل عائدا على الفور(٦٧). لذلك يفترض أن حملة أبرهة على المناطق الواقعة تحت نفوذ اللخميين حلفاء الفرس، كانت تهدف إلى الضغط على فارس واضعاف موقف حلفائها، ثم إعادة السيطرة على الطريق التجاري الواصل الى الحجاز ، من أجل حماية مصالح حمير الاقتصادية. وربما كانت محاولة لاحياء مملكة كندة أو اقامة مملكة بدوية موالية على غرارها، أو أن الحملة كانت نتيجة للصراع بين بيزنطة وفارس وحلفائها للسيطرة على الجزيرة العربية لما لها من أهمية استراتيجية في التجارة العالمية، في تلك الفترة(٦٨).

وكما يظهر فان حملة ابرهة لم تحقق أهدافها، وانتهى آخر أمل لاحياء مملكة كندة أو اقامة مملكة على نمطها، تلك المملكة التي تعددت ولاءاتها ولم يكن لها مبدأ سياسي في حياتها منذ ان بدأت تشارك في الاحداث السياسية للجزيرة العربية، فسعت لفرض وجودها كدولة مستقلة معتمدة على قوة اتحادها القبلي وعلى تأييد حمير، فخاصمت

المناذرة في الحيرة وحالفت الفرس، واصطدمت مع البيزنطيين حيناً، وحالفتهم أحياناً ضد فارس، ثم انقلبت على نفسها، حيث دب الخلاف بين أبنائها فانحلّت عراها ولم تعمر هذه المملكة طويلاً، وهكذا انتهت أولى المحاولات لتوحيد العرب في قلب الجزيرة العربية تحت سلطة سياسية واحدة.

الحواشي

(١)—عبد الرحمن الطيب الانصاري، «قرية الفاو» صورة للحضارة العربية قبل الاسلام في المملكة العربية السعودية ، جامعة الرياض١٩٨٢ ،ص٣١ .

(٢)— المرجع السابق.

—عبد الرحمن الطيب الانصاري، «أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو ونقوشها»، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، مطبوعات جامعة الرياض ١٩٨٣،ص٣—١١ .

—عبد الرحمن الطيب الانصاري، «كتابات عن الفاو»، مجلة كلية الاداب، جامعة الرياض العدد الثالث ١٩٧٤،ص٢٧—٧٠ .

(٣)—الهمداني، يذكر(وبلد كندة مرتفع كانه سراة وتصب أوديته في حضرموت) ص١٦٨وفي مكان آخر(بلدة كندة من أرض حضرموت) ص١٦٦ .

الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن على الاكوع،ط٣،صنعاء ١٩٨٣ .

(٤)— ياقوت الحموي يذكر(ان كندة هو مخلاف باليمن).

ياقوت الحموي، معجم البلدان،ط ليبزج ١٨٦٩،ج٤،ص٣٠٩ .

(٥)—ابن خلدون،كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، بيروت ١٩٥٦م، ج٢،ص٢٥٧ .

(٦)—جوناز اوليندر، ملوك كندة من بني آكل المرار، ترجمة وتحقيق د. عبد الجبار المطلبي ط.جامعة بغداد١٩٧٣،ص٦٦ .

(٧)— Jamme A. Sabaean Inscriptions from Mahram Bilgis. Baltimore, 1962. PP. 136...137.

(٨)—جوناز أوليندر، ملوك كندة،ص٦٥ .

(٩)— اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي،ط ليدن ١٨٦٩ج١ ، ص٢٤٦ .

(١٠)محمد عبد القادر بافقية، في العربية السعيدة ، صنعاء ١٩٨٧، ص٢٦—٢٧ .

(١١)— عبد الرحمن طيب الانصاري ، قرية الفاو ....، ص١٦ .

---

(١٢)— Jamme, A. Sabaean Inscriptions from Mahram Bilgis(Marib) Baltimore, 1962, P. 136 .

(١٣)— Jamme, A. oP . cit., 164-165.

(١٤)— Jamme, A. oP. cit., P. 394

انظر أيضا ترجمة نقش RY 509 عند ميخائيل بتروفسكي M.Piotrovsky النص الروسي ص ١٧٥ ، أما الترجمة العربية.م. بتروفسكي، اليمن قبل الاسلام، تعريب محمد الشعبي، بيروت ١٩٨٧، ص ٣٢٥ .

(١٥)— الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (ط ليدن ١٨٧٩ — ١٨٩٠ مج(١—٣)، ج١ ص ٨٨٠—٨٨١ .

حمزة الأصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء، ط الأوربية ص ١٤٠

الانيوري، كتاب الاخبار الطوال، ط بريل ١٨٨٨ ، ص ٥٤—٥٥

ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ٠٠٠، ج٢ ص ٢٧٦ .

(١٦)—بتروفسكي، اليمن قبل الاسلام ، ص٧٣ .

(١٧)—قيل: سمي حجر آكل المرار لكشر كان به، وقيل قصص أخرى، حول ذلك انظر:

جواد علي، تاريخ العرب قبل الاسلام، مط المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٥٤ ومابعد. ج٣ ص ٢١٩.

(١٨)—يفترض صاحب ملوك كندة أن حكم الحارث الكندي يبدأ تقريباً من عام ٤٩٠م

جونار اوليندر، ملوك كندة، ص ١٠٠

حول نسب الحارث انظر:

ابن حزم الاندلسي، جمهرة انساب العرب، نثر وتحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعارف بمصر، ١٩٤٨ ، ص ٤٠١

(١٩)—جونار أوليندر ، ملوك كندة، ص ٨٩٣

(٢٠)—انظر: نينا بيغوليفسكيا، العرب على حدود بيزنطة وايران، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم الكويت ١٩٨٥ ، ص ١٦٩

(٢١)—جونار اوليندر، ملوك كندة ، ص ٩٣

(٢٢)— Pigulevlevskia N, Mecopotamia na rubeje V i VI VV.
Siriskia, Khronika Jeshu Stilita kak Istoricheskii istochnik, M, L,. 1940, str. 153, No, 57

(ترجمة روسية لحوليات يوشع العمودي ، القسم ٥٧ ،ص ١٥٣)

(٢٣)— المصدر السابق ، القسم ٥٧، ص ١٥٣
(٢٤)—هناك خلاف بين الباحثين حول انتماء ثعلبة الى كندة أم الى الغساسنة. روتشتين يعدّ ثعلبة من قبائل كندة، وأوليندر يؤيده أيضاً بينما نولدكه وعرفان شهيد يرون بأنهم ينتمون إلى الغساسنة ، وجواد علي يشك في صلتهم بكندة. انظر
Rothstein C. Die Dynastie der Lahmiden in al- Hira. B,. 1899 . C. 91
نولدكه ، أمراء غسان، ترجمة بندلي الجوزي وقسطنطين زريق ، بيروت ١٩٣٣ ص٤
جواد علي، تاريخ العرب قبل الاسلام ، بغداد ١٩٥٤، ج ٣ ، ص ٢٢٧
جونار أوليندر، ملوك كندة ، ص ٩٤
(٢٥)— نينا بيغوليفسكيا، العرب على حدود بيزنطة وايران، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، الكويت، ١٩٨٥ ، ص١٧٠
(٢٦)— جونار أوليندر، ملوك كندة، ص ١٠٧ ، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، بيروت، ١٩٧٩ ، ج٤ . ص ٧١
(٢٧)— ابن الاثير، الكامل في التاريخ ، ليدن، ١٨٦٧، ج ١ ص٣١٤
(٢٨)— المفضّل بن محمد الضبي، المفضليات، شرح ابن الانباري، تحقيق لايل ، بيروت ١٩٢١ ، ص٤٢٧
(٢٩)— الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ١ ص٨٨١—٨٨٢ ، أبو علي مسكويه الرازي تجارب الامم، تحقيق د. ابو القاسم امامي، طهران ١٩٨٧ م ، ج ١، ص ٩١
يذكر أبو علي مسكويه «وملك الحارث بن عمرو الكندي ماكان يملك النعمان ، فبعث قباذ بن فيروز ملك فارس الى الحارث بن عمرو الكندي أنه:« قد كان بيننا وبين الملك الذي كان قبلك عهد وأني أحب لقاءك» ، ج١، ص٩١
(٣٠)— جونار أوليندر، ملوك كندة، ص١١٤
(٣١)—المزدكية: تنسب إلى مزدك : مصلح اجتماعي، هاجم نظام التملك الشخصي ودعا إلى اعادة توزيع الثروة بالتساوي بين الناس ومنح المرأة حقوقها، لكن اراء مزدك اتخذت طابعا مشاعيا أثناء التطبيق، فاعتبرها المؤرخون حركة زندقة . انظر:
آرثر كرستنسن، ايران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب وعبد الوهاب عزام بيروت ، ١٩٨٢، ص ٣٤٣ ومابعدها.
برهان الدين دلو، مساهمة في اعادة كتابة التاريخ العربي الاسلامي، بيروت ١٩٨٥ ، ص ٢٠١
المطهر بن طاهر المقدسي، كتاب البدء والتاريخ، ط مصورة لدار صادر عن ط باريز ١٩٠٣، ج٣، ص ١٦٧

البيروني ، الآثار الباقية عن القرون الخالية، ط مصورة لدار صادر عن ط ليبزج ١٩٢٣ ، ص٢٠٩

---

(٣٢)— يذكر ابن الاثير ان الملك قباذ«قد اتبع مزدك على دينه ومادعاه إليه وأطاعه في كل مايأمره به من الزندقة وغيرها مما ذكرنا أيام قباذ وكان المنذر بن ماء السماء يومئذ عاملاً على الحيرة ونواحيها فدعاه قباذ إلى ذلك فأبى فدعا الحارث بن عمرو الكندي فأجابه فسدد له ملكه وطرد المنذر عن ملكه».

ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١، ص ٣١٤

(٣٣)—جونار أوليندر، ملوك كندة، ص ١١٤

(٣٤)— محسن يونس، كندة وعلاقتها بملوك الفرس وعمالهم ملوك الحيرة، مجلة دراسات تاريخية ، العدد ٢١—٢٢، دمشق ١٩٨٦، ص ١٩٨ .

(٣٥)—نبيه العاقل، تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي، دمشق ١٩٨٥، ص ١٧٥

يوسف رزق الله غنيمة، الحيرة: المدينة والمملكة العربية، بغداد، ١٩٦٣، ص ١٦٧

(٣٦)—Rothstein C. die dynastie der Lahmiden in al-hira B. 1899. C. 87 .

(٣٧)— الجون: لقب معاوية الكندي، وقد سمي بذلك لشدة سواده انظر:

أبو الفرج الاصفهاني ، كاب الاغاني، ط مصورة عن دار الكتب المصرية، نشر دار احياء التراث العربي ، بيروت، د. ت ،ج ١١ ، ص ١٣٣

(٣٨)—لطفي عبد الوهاب يحيى، العرب في العصور القديمة، بيروت ١٩٧٩، ص ٤٣٩ .

(٣٩)— اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ط ليدن ١٨٦٩ ، ج ١ ، ص ٢٤٧

(٤٠)—ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ١ ، ص ٣٧٥ .

(٤١)— حمزة الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، ط الاوربية، Lip-sia Mdcccxliv ١٨٤٤ ، ص ١٠٨

(٤٢)— ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ١ ، ص٣١٤ .

(٤٣)— جونار أوليندر، ملوك كندة ، ج١، ص ١١٤ .

لكن د. خالد العسلي يقول:« من الصعب قبول الروايات العربية التي تقول ان كندة حلت محل المناذرة في الفترة التي أيد فيها قباذ المزدكية» دون أن يعلل رفضه لقبول الروايات العربية؟

انظر : د. خالد العسلي، «العلاقات السياسية بين المناذرة والجزيرة العربية»

المجلة التاريخية ، العدد الثاني ، بغداد ١٩٧٢ ، ص ١٨٧

(٤٤)— انظر خطبة كسرى انوشروان عند الطبري، ج ١ ص ٨٩٧ ومابعدها. كذلك يذكر الثعالبي أن كسرى قال: يوما لجلسائه (تمنيت على الله ثلاثا، الملك وقد أتانيه وتمليك هذا الفتى على العرب وقد ملكته وبقيت واحدة فقالوا : ماهي أيها الملك قال: قتل الزنادقة

الثعالبي ، غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، ط باريس ١٩٠٠ ، ص ٦٠٤

(٤٥)— ابن الاثير، الكامل في التاريخ ، ج ١ ، ص ٣١٥، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك، ج١ ، ص ٨٩٩—٩٠٠ . حمزة الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، ص ١٤٠ ، أبو علي مسكويه ، تجارب الامم، ج١ ، ص٩٧ .
(٤٦)— جونار أوليندر، ملوك كندة ، ص١١٥
(٤٧)— ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ط دار صادر المصورة عن ط ليدن ١٩٠٢ ، ص ٤٤ ابن الاثير، الكامل في التاريخ ، ج ١، ص ٣١٥ . وقد خلد شاعر كندة امرؤ القيس هذه الوقعة وفيهم يقول:

ملوك من بني حجر من عمرو
يساقون العشية يقتلونا

فلو في يوم معركة اصيبوا
ولكن في ديار بني مرينا

ولم تغسل جماجمهم بغسل
ولكن في الدماء مرملينا

تظل الطير عاكفة عليهم
وتنتزع الحواجب والعيونا

أبو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، ج ٩ ، ص ٨٠
(٤٨)— جونار أوليندر، ملوك كندة ، ص ٩٥
(٤٩)— حول موت الحارث بن عمرو الكندي روايات عديدة ومختلفة في المصادر العربية
أنظر : حمزة الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، ص ١٤١ المفضل بن محمد الضبي، المفضليات ، ص ٤٢٩
ابو الفرج الاصفهاني، الاغاني ، ج ٩ ، ص ٨١
ويعلق جواد علي حول هذه الروايات فيقول:«لاتخلو هذه الروايات المتعلقة بموت الحارث ونهايته من مؤثرات العواطف القبلية... فكلب تدعي أنها هي التي قتلته ، وكندة تنكر ذلك مدعية أنه مات كما يموت سائر الناس، وأهل الحيرة يقولون أنهم هم الذين قتلوه» . جواد علي، تاريخ العرب القديم، ج ٣، ص ٢٤٢
(٥٠)— انظر قصة الحرب بين أولاد الحارث شرحبيل وسلمة في معركة الكلاب الاولى. عند اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ص ٢٤٧—٢٤٨
المفضل بن محمد الضبي، المفضليات ص ٤٣٠—٤٣١
(٥١)—امرؤ القيس بن حجر ولد عام ٥٠٠م تقريباً، يعدُّ من أشهر شعراء العرب قبل الاسلام، وتسمح لنا أشعاره بتتبع سيرة حياته، وكثير من القصائد تلقي الضوء على محاولاته التي قام بها من أجل استعادة مجد كندة ، والثأر لمقتل والده، انظر: ابن قتيبة ، الشعر والشعراء، ص ٣٧ ومابعدها. أبو الفرج الاصفهاني ، الاغاني، ج٩ ، ص ٧٧ ومابعدها.

---

(٥٢)— ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر. دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٦م ج٢ ، ص ,٢٧٥

ابن الاثير ، الكامل في التاريخ، ج ١ ، ص ٣٧٩

(٥٣)— حول هذه الروايات انظر:

اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي، ج١، ص ٢٤٩ ومابعدها، ابن خلدون ، كتاب العبر ج٢، ص ٢٧٤—٤٧٥ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٤٣—٤٤ .ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج١ ، ص ٣٨١

(٥٤)— اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ، ص ٢٥١ (يفترض فيليب حتي أن موت امرىءالقيس كان عام ٥٤٠م تقريباً) . فيليب حتي، تاريخ العرب ترجمة محمد مبروك نافع، ط ٣، القاهرة ١٩٥٢ ، ج ١ص ١٠٢ ويؤيد د. عمر فروخ ذلك، لكنه يرفض الرواية التي تقول: ان امرأ القيس مات مسموماً بحلة أرسلها له الامبراطور البيزنطي، ويمكن ان يكون قد مات بالجدري لما مر بـأنقرة في زمن الشتاء القارس، نحو ٥٤٠ م . د. عمر فروخ، تاريخ الجاهلية، ط ٢،بيروت ١٩٨٤ ، ص ٩٤

(٥٥)— أنظر مقال محسن يونس، كندة وعلاقتها بملوك الفرس وعمالهم ملوك الحيرة، مجلة دراسات تاريخية، العدد٢١—٢٢ ، دمشق، دمشق ١٩٨٦، ص ١٩٥—٢٠٢

(٥٦)— يفترض د. خالد العسلي أن حكم كندة لمنطقة اليمامة استمر حتى عام ٥٧٠ . خالد العسلي، العلاقات السياسية بين المناذرة والجزيرة العربية،.....ص ١٨٨

(٥٧)— يقول د. نبيه العاقل: يبدو ان نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الميلاديين في الجزيرة العربية كانت فترة اتسمت بالصراع الدموي بين القبائل بسبب عوامل عديدة قد يكون من بينها شح الارض بالقوت والماء و الكلأ ، فلا يجدون إلا الغارة على جيرانهم وسيلة للقيام بأودهم وأود أولادهم ، وأدى ذلك إلى كثرة الحروب، وماتستتبعه هذه الحروب من ثارات، ومايترتب على الثارات من معارك جديدة، هذا فضلاً عن التنافس على السيادة والزعامة والجاه الذي جر الى الكثير من الحروب وأريقت في سبيله الدماء الغزيرة».

د. نبيه عاقل، الوفود والسفارات في الجاهلية وعصر الرسول(ص) ، مجلة دراسات تاريخية، ١٩٩١ ، العدد ٣٩—٤٠، ص ٩

—أيام العرب: هي أيام المعارك التي وقعت بين القبائل البدوية في الجاهلية والتي كانت أسبابها في أغلب الاحيان اقتصادية.

أنظر: عمر فروخ، تاريخ الجاهلية، ص ٧٧ ومابعدها. فيليب حتي، تاريخ العرب ، ج١ ، ص ١٠٥ ويذكر صاحب الاغاني أن أعظم أيام العرب ثلاثة، يوم كلاب، ويوم شعب جبلة، ويوم ذي قار. الاصفهاني، الاغاني، ج١١ ، ص١٣١ ومابعدها.

(٥٨)— الاصفهاني، الاغاني، ج١١ ، ص ١٣٣—١٤٨ . ابن الاثير الكامل في التاريخ ، ج ١ ، ص ٤٣٥ — ٤٣٦

(٥٩)— نقائض جرير والفرزدق ، ط بريل — ليدن، ١٩٠٥ ، ص ١٠٧٩ . ابن الاثير ، الكامل في التاريخ، ج ١ ، ص٤٤٥ .

(٦٠)— الهمداني، ضفة جزيرة العرب ، ص ١٧١ .

(٦١)— جونار أوليندر، ملوك كندة ، ص ٢٠٧ .

(٦٢)— الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ١ ، ص ٨٩٩ .

(٦٣)— المصدر السابق ، ص ٩٥٨ .

(٦٤)— نينابيغوليفسكيا، العرب على حدود بيزنطة وايران ، ص ١٣٢ .

(٦٥)— م. بتروفسكي، اليمن قبل الاسلام، ص ٧٩

(٦٦)— انظر ترجمة النقش عند بتروفسكي، المرجع السابق، ص ٣٢٧ ، جواد علي، المفضل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج٣ ، ص٤٩٥

(٦٧)— بروكوبيوس القيصري، تاريخ حروب الرومان ضد الفرس، ترجمة يو.دستونيس، سانتبطرسبورغ، ١٨٧٦ ، ١، ١٩،ص٨١ .

ترجمة روسية لتاريخ بروكوبيوس .

(٦٨)— د. نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، دمشق ١٩٨٥ ، ص ١٥٩ .

الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة قبل الهجرة وأثر الهجرة عليها

● د.شكران خربوطلي
قسم التاريخ ـ كلية الآداب
جامعة دمشق

عناصر الموضوع

مقدمة
البيئة الطبيعية للمدينة
اقتصاد المدينة
الزراعة
الثروة الحيوانية
الصناعة والحرف
التجارة
الأسواق
الخاتمة

الحياة الاقتصادية لأي مجتمع، هي الدعامة الأساسية في وجوده واستمرار بقائه وارتقائه ، وقد فسرّت هذه الدعامة على أنها الفعاليات الزراعية والصناعية والتجارية فيه، وترتبط الفعالية الرعوية وتربية المواشي بتلك الفعاليات في بعض الأحيان.

ولعلنا نجد ارتباط الاقتصاد بالزمان والمكان، فالإنتاج الإقتصادي رهين البيئة بكل تفاصيلها، لذا فرضت على الأوائل من بني البشر التكيف غير المحدود مع المكان الذي عاشوا فيه، فاتبعوا نمطاً خاصاً من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية يتواءم من واقعهم، ثم عملوا بدأب ونشاط لاستثمار امكانات التربة.

لذا وقبل الحديث عن الحياة الاقتصادية في المدينة المنوّرة لابدّ من التعرف على بيئتها الطبيعية.

تقع المدينة المنوّرة إلى الشمال من مكة المكرَّمة، وكانت مدينة صغيرة تعادل نصف مكة،(١) وتبعد عن الجار وهو ميناؤها على البحر الأحمر يوم وليلة، (٢) ويبدو أنه مثّل دوراً هاماً بالنسبة لها، خاصة وأن جزيرة صغيرة يقال لها قراف، وقعت على مقربة منه، وكانت ملتقى التجار القادمين من سواحل أفريقية والمحيط الهندي،(٣) وكانت التجارة مزدهرة في ميناء الجار، بحيث لم يكن بالحجاز بعد مكة أكثر مالاً وتجارة منه.(٤)

وأرض المدينة بركانية بين حرتين، وقد اشتهرت بالخصب والنماء، يحدّها جبل أُحد من الشمال(٥) وجبل عير من الجنوب الغربي، وهو عبارة عن جبلين أحمرين متقاربين ببطن العقيق، أحدهما عير الوارد والآخر عير الصادر، (٦) وإلى الشرق منها بقيع الفرقد، وإلى الجنوب قرية قباء وكانت على بعد ميلين منها مما يلي القبلة، وهي شبيهة بالقرية ، وكان الفرع من المدينة على أربعة أيام في جنوبها.(٧)

يوجد في المدينة وديان كثيرة،(٨) أخصبها وادي العقيق وهو « يشق من قبل الطائف، ثم يمر بالمدينة، ثم يلقى في أضم البحر، (٩) وهو عقيقان، العقيق الأكبر والعقيق الأصغر، وبه آبار لاتزال آثار بعضها بادية ظاهرة، ولكنها مطمورة كبئر رومه، وبئر عروة بن الزبير» ، (١٠) وقد عرف وادي العقيق بعيونه ومزارع نخيله. (١١)

ومن أودية المدينة، وادي بطحان، ووادي رانون، الذي يبدأ من جبل عير قبلي المدينة، ويمر بقباء ثم يختلط بوادي بطحان، ووادي مذينيب، في الجنوب الشرقي، وهو شعبة من بطحان، وعليه كانت منازل بني النضير، ويقع إلى الشمال الشرقي وادي قناة، ووادي مهزور، وهو موضع ماء على أربعين ميلاً من المدينة، ويأتي من الحرة الشرقية المعروفة

باسم حرة واقم،(١٢) على أنه في الحقيقة حرّات المدينة ثلاث هن: حرة واقم في الشرق، وهي أشهرها وأخصبها، وحرة الوبرة في الغرب. وحرة قباء في الجنوب، ثم أنه بالقرب من المدينة ثلاث حرات أخريات هن: شوران، وتقع على يسار الواقف ببطن العقيق يريد مكة،(١٣) وحرة ليلى، وكانت لبني مره بن عوف بن ذبيان يطؤها الحاج في طريقهم إلى المدينة، وحرة النار بالقرب من حرة ليلى. (١٤)

ومناخ المدينة حار صيفاً، بارد شتاءً، يؤيد ذلك قوله(ص) « من صبر على لاوائها وشدتها كنت له شهيدا—أو شفيعا— يوم القيامة» ،(١٥) وتسقط أمطارها في أوقات قصيرة، وقد تحدث سيولاً في كثير من الأحيان، لأنها تهطل بعنف، لذا فان ظاهرة انتشار الاوبئة والامراض بالمدينة كانت من الظواهر المألوفة، فالرسول (ص) حين قدم إليها« وهي أوبأ أرض الله » أصاب أصحابه منها بلاء وسقم فدعا (ص):(اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشدّ، اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مدّنا وصححها لنا وأنقل حمّاها الى الجحفة)(١٦).

وعلى العموم، اذا قيس مناخ المدينة بمناخ مكة فيمكن القول أنه معتدل، فضلا عن أن ترتبتها خصبة، وقد أتاح—مع توفر المياه— جعل الحالة الاقتصادية في المدينة متنوعة الجوانب. وكان سكانها في أواخر القرن السادس للميلاد عبارة عن تجمع قبلي كبير يعرف ببني قيلة ضم قبيلتين هما الأوس والخزرج(١٧) إلى جانب عشائر من يهود بني قريظة وبني النضير، وبني قينقاع.

وطالما توفرت في المدينة مقومات: التربة والمياه من الآبار والأودية،(١٨) فمن الطبيعي أن يعمل السكان بالزراعة وفق نظام خاص، فقد ذكر أنهم كانوا يقسمون المياه بينهم بأن يحبس الماء صاحب الأرض العالية حتى تسقي نخيله فتصل إلى جذوعه بارتفاع الكعبين، ثم يرسلها إلى من أرضه أسفل فيسقي،(١٩) وقد قضى رسول الله (ص) في سيل مهزور ومذينيب «أن يحبس الماء حتى يبلغ الكعبين، ثم يرسل الاعلى على الاسفل»(٢٠) وفي الأوقات التي تشح فيها الوديان أو تجف، وفي الأماكن التي كان الماء لايصل إليها، كان الناس يستخدمون مياه الآبار في ارواء مزروعاتهم، وقد أشار ياقوت إلى ذلك بقوله:«نخيل المدينة وزرعها تسقي من الآبار عليها العبيد»(٢١).

واستخرجت المياه من الآبار بالدلاء، وكان الزراع يستخدمون الحيوان في متح الماء بالدلاء من الآبار الكبيرة الواسعة لري البساتين والحقول ، وقد كان لاحيحة بن الجلاح تسع وتسعون بعيرا كلها ينضح عليها.(٢٢)

كان جلّ أهل المدينة يعملون بالزراعة كل على قدر حاله، لكن أوسع الأراضي وأخصبها، وأكثرها غلة كانت بأيدي اليهود، ووجهاء الأوس والخزرج حيث «ان الحبر اليهودي مخيريق كان غنياً كثير الأموال من النخيل»، (٢٣) وقيل «كان مخيريق أحد بني النضير حبراً غنياً له سبع حوائط وبساتين». (٣٤)

لقد عمل اليهود بالزراعة، وكانت زراعتهم تأتي عليهم بمال طيب، جعل بعضهم من الأثرياء، وقد استفيد من «شراح الحرة» وفي سقي المزارع ، وكانت تستمد ماءها من الحرة.

وأفقد التركيب السكاني غير المتجانس يثرب المبادرة، وأعاق تبوأها دوراً أكثر أهمية في الحجاز، فانطوت بصورة شبه دائمة على صراعات داخلية ضارية قضت على جزء من طاقاتها، فكثيراً ماقامت الحروب بين الأوس والخزرج بتشجيع من اليهود من أجل الرئاسة والزعامة، والعصبية القبلية، والثأر، والاعتداء على الممتلكات الخاصة ، فأثر ذلك على الزراعة وأفسح المجال واسعاً أمام اليهود لاستغلال امكانات المدينة لصالحهم. وهذا يفسر لنا مقدار الجهد الذي تحمله عرب المدينة حين نزل عليهم المهاجرون من أهل مكة، وأقاموا معهم في ضيافتهم، وكيف وجد الرسول(ص) حلاً لتلك الأزمة بايجاد نظام المؤاخاة، والدليل على ذلك أنه لم تتحسن الأوضاع إلاّ بعد اجلاء بعض العشائر اليهودية عن المدينة واستقرار أمر المهاجرين، فأموال بني النضير مثلاً كانت خالصة لرسول الله(ص) فكان يزرع تحت النخيل في أرضهم، فيدخل من ذلك قوت أهله وأزواجه سنة، والباقي كان يجعله في الكراع والسلاح، وقد قسمها(ص) على المهاجرين دون الأنصار الا انه أعطى سهل بن حنيف، وأبادجانة سماك بن خرشة الساعدي، وغيرهما. (٢٥)

لقد قسم رسول الله (ص) أرض بني قريظة بين المسلمين على السهام(٢٦) «وأعلم في ذلك اليوم سهمان الخيل وسهمان الرجال، وأخرج منها الخمس، فكان للفارس ثلاثة أسهم: للفرس سهمان، ولفارسه سهم، وللراجل من ليس له فرس سهم، وكانت الخيل يوم بني قريظة ستاً وثلاثين فرساً....»(٢٧)

وقد انتعشت الزراعة بالمدينة بعد الهجرة والقضاء على المنازعات الداخلية فيها، حتى أنها استوعبت عدداً كبيراً من المهاجرين اليها والوافدين عليها من قبائل العرب.

وكان النخيل أهم المزروعات وعليها اعتمد أهلها بالدرجة الأولى(٢٨) يأكلون ويبتاعون ويبيعون منه ويدفعون الأجور ويسددون الديون(٢٩) ففي صحيح البخاري باب كامل عن البيوع وأغلب الحديث به عن النخل.(٣٠)

وبما أن معظم المزارع كان يملكها يهود المدينة، فقد أثرى الكثيرون من زراعته والمتاجرة به ، واعتمد معظم السكان عليه، فكان جل طعامهم منه وبه كانوا يتعاملون لذا أصبح تمر المدينة من أجود الأنواع، فالصيحاني منه لم يوجد مثله في بلد من البلدان.(٣١) وبتمر يثرب ضرب المثل، وقد أشار امرؤ القيس بشعره إلى نخل يثرب بقوله:

علون بأنطاكية فوق عقمة
كجرمة نخل أو كجنة يثرب(٣٢)

وكان عندهم العجوة ونخيل اللون.(٣٣)

واهتم المدنيون بالنخيل لفوائده الجمة، حيث كانوا يستخدمون جذوعها أعمدة لبيوتهم، وحوامل معترضة لسقوفهم، ويستعملون جريدها في سقوف منازلهم ويرضخون النوى بالمراضخ حتى تتكسر، فيكون علفا للابل، ويعملون من خوصها المكاتل والقفف.(٣٤)

والجدير بالذكر أن الشعير والتمر كانا طعام الناس، وقد عدّ الشعير المصدر الثاني لثروة المدينة الزراعية، فأثناء الحديث عن الخندق ورد:«عملنا مع رسول الله (ص) في الخندق فكانت عندي شويهة غير جد سمينة قال: فقلت: والله لو صنعناها لرسول الله (ص) قال: فأمرت امرأتي فطحنت لنا شيئا من شعير، فصنعت منه خبزاً وذُبحت تلك الشاة».(٣٥)

وإلى جانب هاتين الغلتين الرئيسيتين، زرعوا التين، والسفرجل، والخوخ، (٣٦) والسلق والبصل والثوم(٣٧) وكان من مزروعاتهم الهامة حبّ اللبان، فكان يحمل إلى سائر البلدان.(٣٨)

ومن عاداتهم أنهم كانوا يأخذون ورق السلق فيجعلون فيه حبات من الشعير ويطبخونه فيكون طعاماً لذيذاً.(٣٩)

أضف إلى ذلك أنهم أحاطوا الحدائق بأسوار مرتفعة قدر الامكان لحماية ومنع الانسان والحيوان من دخولها سميت بالأطم.(٤٠)

ولعلهم كانوا يكرون الأرض لأجل قصير، أو لأجل طويل، فاذا كروا الأرض لأجل طويل غرسوا الشجر على نصيب معلوم من الثمر، لأنه لم يكن هناك معاملة بالدنانير والدراهم، قال رافع بن حديج« كنا أكثر أهل المدينة مزدرعاً، كنا نكري الأرض بالناحية منها مسمى لسيد الأرض قال: فمما يصاب ذلك وتسلم الأرض ومما يصاب الأرض ويسلم ذلك فنهينا، وأما الذهب والورق فلم يكن يومئذ (٤١)

وكانوا يتعاملون على الشطر مما تغله الارض فلما جاء المهاجرون زارعوا الانصار حتى ماكان في المدينة بيت هجرة الا وزرع على الشطر أو على التين، أو على أوسق من تمر أو بر أو غير ذلك.

ولم يكن :«بالمدينة أهل بيت هجرة إلا ويزارعون على الثلث والربع...»(٤٢) وقد عامل النبي (ص) أهل خيبر بشطر مايخرج منها من تمر أو زرع، وكرى بعضهم أرضه بطريقة المؤاجرة أو المغارسة أو المزارعة بالربع أو الثلث أو نصف الناتج، أو أقل من ذلك أو أكثر فنهى الرسول (ص) عن ذلك بقوله:«من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه، فان أبى فليمسك أرضه»(٤٣)

وذلك لأن المؤاجرة والمغارسة والمزارعة شكل من أشكال الاستغلال بالمدينة ومنطقتها تؤدي إلى منازعات وخصومات بين صاحب الارض والمستأجر أو العامل فيها. أضافة إلى ذلك أنهم باعوا ثمار نخيلهم وأعنابهم بطريقة المزابنة والمحاقلة فنهى رسول الله(ص) عن ذلك(٤٤).

ولهذا نجد اقبال المهاجرين على الزراعة، فحفروا الآبار وجنوا منها ثمراً طيباً وفي هذا دليل أنه كان من بين المهاجرين قوم يحسنون الزراعة فضلا عن أن جلّهم كانوا يريدون عملاً يعتاشون منه، وبحسب العادة المتبعة حاقلوا أصحاب الأرض، على زرع أرضهم في مقابل نصيب معلوم، كانوا يتفقون عليه، وقد نجح بعضهم في استغلال الأرض وكسبوا منها، غير أن قسماً منهم اختصم مع الملاك بسبب توزيع الحاصل أو الماء، فكان رسول الله (ص) يتدخل بنفسه في حسم الخلافات التي كانت تنشب بين الملاك ومن يعمل عندهم، ولعله بسبب هذه الخلافات تم الغاء ايجار الارض بقوله:«من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها ، فان لم يفعل فليمسك أرضه»(٤٥)

وبهذا أوجد الرسول(ص) حلاً للمشكلة الاقتصادية التي واجهته بعد الهجرة، والتي نبعت من واقع أصحابه المهاجرين الذين تركوا أموالهم في مكة، وغادروها دون أمل بالعودة واسترداد مايملكون، اضافة إلى أنه أوجد نظام المؤاخاة، أفادت هذه المؤاخاة من الناحية الاقتصادية بدليل إن عملية الميراث التي قامت على المؤاخاة توقفت بعد النصر في بدر ومأأفاء الله عليهم من غنائم وأموال سدّت عوز المحتاجين منهم، فلم يعد له مايسوّغه.(٤٦)

وكانت الثروة الحيوانية ركن آخر من أركان الحياة الاقتصادية حيث امتلك أهل يثرب ثروة من الابل كانوا يرعونها مما تنبت المدينة من أشجار وشجيرات رعوية.(٤٧)

فعندما رأى رسول الله (ص) ابلا في السوق وأعجبه سمنها، قال:«اين كانت ترعى هذه؟ فقالوا: بحرة شوران فقال:«بارك الله في شوران» (٤٨)وقد ذكر حسان بن ثابت الانصاري الابل في شعره قائلا:

يثرب قدشيدوا في النخيل
حصونا ودجن فيها النعم(٤٩)

وقد اتخذت الابل مقياسا للثروة والمال، فكانوا يقدرون بها أثمان السلع، والاشياء ويتعاملون بها في تجارتهم، وفي أسواقهم وبها تم تقدير الديّات والفدية والمهور، فأول قتيل وداه رسول الله بمئة ناقة،(٥٠) فقد كان لرسول الله (ص) لقاح في الغابة .(٥١)

وكان عدد ابل المسلمين يوم بدر سبعين بعيراً(٥٢) وهذا العدد قليل إذا قيس بعدد المسلمين ، لذا كانوا يتعاقبون الابل الاثنين والثلاثة والاربعة،(٥٣) وبعد بدر كثر عدد ابل المسلمين من الغنائم ومن النتاج، فمثلاً كانت النعم في غزوة قرارة الكدر خمسمائة بعير(٥٤) وغنم المسلمون في غزوة حنين من الابل«أربعة وعشرين ألف بعير، وكانت الغنم لايدري عددها ،قالوا: أربعين ألفا وأقل وأكثر»(٥٥) ومما يدل دلالة واضحة ازدياد عدد الابل في المدينة بعد أمد من هجرة الرسول اليها امداد عثمان بن عفان جيش تبوك بثلاثمائة بعير.(٥٦)

- - - - - - - - - - - - - - - - -

ووُجدت الخيول في المدينة، ولكنَّها كانت قليلة العدد(٥٧) وهي ان وجدت كانت بحوزة أهل اليسر والغنى، وبالمقارنة مع عددها بعد الهجرة نجد أنها زادت شيئا فشيئا، وذلك تبعاً لحاجة المسلمين اليها في حروبهم نظراً لسرعة الخيل وخفتها ومرونتها في القتال وفي الكرّ والفرّ، فهي سلاحٌ لنجاح الغزو، وإلحاق الأذى بالعدو، فكثر جلب الخيل من البادية للبيع وقد كانت لها سوق خاصة بالمدينة «كانت بنو سليم يجلبون اليها الخيل...»(٥٨) وفي القرآن الكريم ذكرت الخيل في آيات متعددة على أنها مصدر من مصادر الثروة والزينة وبهجة الحياة الدنيا يرهب المسلمون بها أعداءهم.(٥٩)

وعندما كثر عدد الخيول في المدينة جعل لها الرسول(ص) موضعاً خاصاً للرعي فحمى النقيع أحماه لخيل المسلمين وركابهم»(٦٠)

أضف إلى ذلك أن الرسول (ص) ابتاع بسبايا بني قريظة خيلاً وسلاحاً من نجد،(٦٠) فكثرت أعداد الخيول في المدينة حتى بلغ عددها في جيش المدينة عند فتح مكة مايقارب الألفي فرس،(٦٢) وبلغ مااستطاع أن يمدّ رجل واحد من المسلمين «هو الصحابي عثمان بن عفان» (٦٣) جيش تبوك ، بثلث ماكان يملكه ذلك الجيش الذي بلغ عشرة آلاف فرس(٦٤) الأمر الذي يبرهن على نمو عدد الخيول وكثرتها في المدينة بعد الهجرة.

وعدت الأغنام المادة الرئيسة لتموين الناس باللحوم والصوف، ومن الواضح أن أهل المدينة قد عملوا بتربيتها، وكانت تربى في منطقة اسمها الغابة، ففي غزوة ذي قرد جاء: قالت بنو حارثة من الانصار«يارسول الله ههنا مسارح ابلنا ومرعى غنمنا ومخرج نسائنا يعنون موضع الغابة، فقال رسول الله(ص): من قطع شجرة فليغرس مكانها ودية، فغرست الغابة»(٦٥)

وفي غزوة بدر الاولى أغار كرز بن الفهري على سرح المدينة«أي على الابل والمواشي»(٦٦) وبمعرض الحديث عن أسر عمرو بن أبي سفيان واطلاقه جاء«فبينما هو محبوس بالمدينة عند رسول الله (ص) اذ خرج سعد بن النعمان بن أكال أخو بني عمرو بن عوف، ثم أحد بني معاوية معتمراً ومعه مرية له، وكان شيخاً مسلماً في غنم له بالنقيع»(٦٨)

وعاشت الأغنام في حمى الربذة، فقد «كان يرعى فيه أهل المدينة»(٦٩) على هذا حوت المدينة الأغنام، وكانت تربى في الغابة والنقيع والربذة، وقد أمدت السكان باللحم والصوف واللبن.

ولقد كانوا يتهادون الشياه، فالرسول(ص) عندما نزل الأبواء أهدى ايماء بن رحضة جزراً ومائة شاة.... ولقد ضحى رسول الله (ص) بالمدينة، وخرج بالناس الى المصلّ، وذبح بيده شاتين وقيل شاة.(٦٩)

لم تكن الثروة الحيوانية نامية في المدينة قبل الاسلام فكما أسلفنا القول، كثيراً ماكانت تتعرض للغزو السلب والنهب من قبل القبائل المتنازعة، خاصة الاوس والخزرج، وبالمقابل لم نسمع عن سلب أو نهب بين القبائل المتعددة بعد الاسلام، لكن ماأوردته المصادر هو أنه عقب كل غزوة كانت هناك غنائم توزع على المقاتلين، من المسلمين، فتحسنت أحوالهم، وأصبح لهم ثروة بعد أن هجروا ديارهم وأقبلوا على المدينة صفر اليدين.

ومما يذكر أن رسول الله(ص) لما فتح خيبر، وصارت الأموال بين يديه لم يكن عنده من العمال مايكفيه عمل الأرض، فدفعها إلى اليهود يعملون بها على نصف ماخرج منها...(٧٠)

وقامت في المدينة بعض الصناعات التي تعتمد على الانتاج الزراعي مثل صناعة الخمر من التمر، وكان معظمها في منطقة الحصون الخيبرية،(٧١) واعتمد أكثرها على خليط من البسر والتمر، وبعضها على خليط من الزبيب والتمر، أو الرطب واليسر،(٧٢) وكانت تحفظ هذه الخمور في جرار، أطلق عليها اسم الحنتمة، والمزفت، والدباء، والنقير.(٧٣)

وقامت أيضاً على سعف النخل صناعة المكاتل والقفف، والنجارة من شجر الطرفاء، والاثل، وهو شجر كان يكثر في غابة يثرب.(٧٤)

واحتكر اليهود العمل في الحرف المالية، والصناعية، مستغلين من ناحية الطبيعة الاجتماعية لأهل المدينة من الأوس والخزرج، ومن ناحية أخرى لصلاتهم الطيبة مع قبيلة سليم، التي كانت تمتلك المصادر المعدنية كالذهب والفضة،(٧٥) والحديد،(٧٦) فعملوا بها، وربحوا ربحاً طيباً كما وربحوا من انتاجهم الادوات والمعدات والآلات الزراعية، وعملوا أيضا بصناعة الدباغة وآلات الزراعة، وأدوات الصيد هذا وان عمل غيرهم من أهل المدينة بالحدادة(٧٧)، فقد كانت هذه الحرفة شبه حكر عليهم.

ففي غزوة خيبر، خرج اليهود«بمساحيهم ومكاتلهم»(٧٨) وفي غزوة الخندق استعار المسلمون من بنى قريظة آلات كثيرة من مساحي وكرازين، ومكاتل يحفرن بها الخندق»(٧٩)

ولقد غنم الرسول(ص) كل مالدى بني النضير من سلاح، الحلقة والدروع(٨٠) وذلك بعدما حاصرهم طويلاً حتى نزلوا على الجلاء، على أن لهم ماأقلت من الابل من الأمتعة والأموال الا الحلقة»(٨١)

كما غنم المسلمون عندما أجلوا بني قينقاع عن المدينة كثيراًمن الدروع والسيوف والقسيّ، في أطمهم أيضاً آلة للصاغة(٨٢)، ففي قرية زهرة وحدها، وهي أعظم قرى يثرب بين حرة واقم والساقلة، ثلثمائة صائغ.(٨٣)

وكـان في المدينة سـوق لبنـي قينقاع اختـص بالصيـاغـة احتوى على الكثير مـن الحلي والمجوهرات،(٨٤) اعتادت النساء من أهل المدينة على غشيـانه يشترين مايلزمهن، وقدم إليه الناس من حواضر الحجاز، وأهل البادية لشراء ماتطلبه نساؤهم وفتياتهم من مصاغ.

ومن الطبيعي ألا تشذّالمدينة عن حياة الحواضر الأخرى، خاصة وأن موقع يثرب على طريق القـوافل كان يؤهلها للإسهـام بالضرورة في نطاق الدائرة الحيويـة من تجارة الشام المهمـة، وفي ضوء ذلـك أسهمـت المدينة فيهـا بنصيـب، سـواءً في المواد المنتجة محليـاً، أم المستورد منها عبر ميناء الجار.

وفي الـوقت الـذي احترف فيـه السكـان الزراعـة، وذلـك لخصـوبة الأرض وتـوفـر الامكـانات المطلـوبة، فمـن غير المستبعد ألا يكـونوا قـد ضربوا بسهـم وافر في النشـاط التجـاري في الحجاز، وفي الـرحلات التجـاريـة الخارجية ومهما يكـن من حـال، احترف اليهود التجارة إلى جانـب الصناعة، وتحدثت المصادر عن رجـل يهودي اسمه اذينة، كان بارعاً في التجارة، أغضـب حرب بن أمية بن عبد شمـس بن عبد مناف فألّب عليـه فتياناً من قريش، تخلصوا من منافسته بقتله.(٨٥)

ومن المؤكـد أن قوافـل مكة كانـت تمر بالمدينة في رحـلاتها التجاريـة(٨٦) وأن أهلها كانوا يتعاملون مع هذه القوافل المكية، ولقد وصفت خيبر، وسوقهم الشهير «نطاة خيبر» بأنها واحدة مـن أهم مراكز التجارة، واشتهـرت أسواقها الموسمية، ليس في بلاد الحجاز فحسب بل في جزيرة العرب أجمع(٨٧)

فقد صنفهـا ابن حبيـب ضمن أسواق العـرب المشهورة، كـات مبايعتهـم فيها(٨٨)، وكانت مقـر اليهود في الحجاز قبل الاسلام(٨٩)، وقـد أعدها اليهود لتكـون واحدة من أهم المحطـات التجاريـة للقوافل التـي كانـت تجوب شبه الجزيرة العـربية مـن سوق إلى سوق(٩٠)، وكان لليهود علاقات تجارية واسعة خارج منطقة خيبر، وأسهموا بدور هام في التجارة الخارجية لشبـه الجزيرة، وكانت التجارة الـدولية من الأعمال التي بـرعوا فيها وكان التاجر اليهودي الجوال معروفاً في كل بلدة ومدينة ومعروفاً في كل سوق(٩١).

وكانت التجـارة الداخلية نشيطة في يثرب، وسلـف أن ذكرنا أنه كـان بها عدة أسواق كسوق بني قينقاع لبيع الحلي، ثـم سوق أخرى بزبالة وكان بالصفـاصف بالعصبة سوق، وسوق قـام في موضع زقاق ابـن حبين، كان يقال لـه مزاحم(٩٢). وسوق قـرب البقيع عرفت ببقيع الخيل وسوق الطحاء(٩٣)، ولانعدام الامـن والرقابة المنظمة «كان الراكب ينزل بسـوق المدينة فيضعُ رحلـه ثم يطوف بالسـوق، ورحله بعينه يبصره ولايغيـب عنه شيء»(٩٤)

ويبدو أيضاً أنه لم تكن هناك رقابة مفروضة على البيع والشراء وتنظيم التعامل في هذه الأسواق فالغش والمخادعة وسوى ذلك كانت من الأمور المعتادة، فقد كانوا يلون الحنطة والشعير ليكثر كيلها أو يخفون الرديء داخل الطيب، ذكر عن النبي (ص) أنه«مر برجل يبيع طعاماً، فسأله كيف تبيع؟ فأخبره فأوحى إليه أن أدخل يدك فيه، فأدخل يده فإذا هو مبلول، فقال رسول الله (ص) «ليس منا من غش»(٩٥)

كما كانوا يرفعون الأسعار، ويحتكرون البضائع، فعندما مر الرسول (ص) برجل يبيع طعاماً بسعر أعلى من سعر السوق... قال«ابشروا فان الجالب الى سوقنا كالمجاهد في سبيل الله، وان المحتكر كالملحد في كتاب الله»(٩٦)

وكانوا يتصرفون في مزروعاتهم ببيعها قبل أن يبدو صلاحها كما سلف ذكره.

وتعامل أهل المدينة بالربا: ممارسة العرب واليهود على السواء، فقد ذكرت الروايات أن أصيحة ابن الجلاح أحد زعماء الا وس، كان يتعامل بالربا مع قومه من الاوس، كاد ان يحيط بأموالهم(٩٧). وقد نزل القرآن يندد باليهود ويلومهم لأخذهم الربا، وقد نهوا عنه، وعن أكلهم أموال الناس بالباطل(٩٨).

وعلى الرغم من وجود هذه التجارة في يثرب، إلا أنها لم تستطع منافسة مكة بوجه عام في الفترة التي سبقت الهجرة، وقد تبدل الوضع بعد هجرة النبي اليها، فنقل المهاجرون خبرتهم الى المدينة، فأبو بكر وعثمان كانا بزازين، وعمر كان تاجرا في الجاهلية(٩٩). وبعد الهجرة أخذوا يتاجرون من المدينة مع بلاد الشام، واذا نظرنا إلى غزوات الرسول(ص) كغزوة دومة الجندل وتبوك وغيرهما وجدنا أنها كانت من بعض الجوانب لحماية الطرق التجارية أو لاحتكارها لصالح المدنيين(١٠٠)، وقد عدّ انتصار المسلمين في بدر حلقة أولى في الحصار الاقتصادي لمكة، هدد قوافل قريش، وشيئاًفشيئاً تبوأت المدينة مركز مكة التي تطوقت في حصار اقتصادي هدّد مصالحها الحيوية، ولم يكن الأمر مجرد حصار تجاري ضد الفئات القرشية الميسورة، ولكنه انعكس على مختلف فئاتها الاجتماعية سواء في ارتزاقها اليومي. أو في تموينها بالمواد الغذائية الاساسية، فقد كان هذا الطريق الجزء الأهم منها لاسيما الحبوب التي كانت تأتيها من بلاد الشام، وأخذ الأنصار والمهاجرين يتاجرون معاً في الأسواق، وظهرت النتائج الكبرى لهذه التجارة بعد فتح مكة، ودخول القبائل في الاسلام.

المصادر والمراجع:

١—ابن الاثير،عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري؛ اسد الغابة في تمييز الصحابة. منشورات المكتبة الاسلامية.

٢—الاصبهاني،(أبي الفرج علي بن الحسين)
الاغاني، مصور عن طبعة دار الكتب

٣—الافغاني،(سعيد)
أسواق العرب في الجاهلية والاسلام—دار الفكر ط ٣

٤—امرؤ القيس،
ديوان امرؤ القيس. دار صادر—بيروت

٥—الانصاري،(عبد القاوس)
آثار المدينة المنورة— مطبعة الترقي دمشق١٩٣٥م .

٦—البخاري،(أبي عبد الله محمد بن اسماعيل).
صحيح البخاري. مطبعة الهندي ج٢—ج٣

٧—البلاذري،(أحمد بن يحيى بن جابر)
أنساب الأشراف—تحقيق محمد حميد الله — دار المعارف مصر.

٨—البلاذري(أحمد بن يحيى بن جابر)
فتوح البلدان— دار الكتب العلمية— بيروت ١٩٧٨ .

٩—ابن حبيب، (ابي جعفر محمد)
المحبر، مكتبة المثني—بغداد ١٩٤٢

١٠—حسان بن ثابت
ديوان حسان

١١—الحموي، (ياقوت)
معجم البلدان — دار احياء التراث العربي— بيروت١٩٧٩

١٢—ابن حوقل، (ابي القاسم النصيبي)
صورة الأرض. مكتبة الحياة— بيروت١٩٧٩

١٣—ابن خرداذبة،(ابي القاسم عبيد الله بن عبد الله)
المسالك والمالك — دار المدينة. مطبعة بريل١٨٨٩ م

١٤— دائرة المعارف الاسلامية، أصدرها بالعربية أحمد الشنتاوي وابراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس— مراجعة. محمد مهدي علام.

١٥—سالم، (عبد العزيز).
تاريخ العرب في عصر الجاهلية—دار النهضة العربية١٩٧١م

١٦—سلام،(شافعي محمود سلام)
النشاط التجاري في خيبر— منشأة المعارف— الاسكندرية
١٧—السمهودي،(نور الدين علي بن أحمد)
وفاء الوفا— دار احياء التراث العربي ط٤ ١٩٨٤م
١٨—السيوطي،(جلال الدين عبد الرحمن)
تاريخ الخلفاء— تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم—دار الفكر العربي مصر.
١٩—شريف،(أحمد ابراهيم)
مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول— القاهرة ١٩٦٧
٢٠—عاقل وخماش،(نبيه ونجدة)
تاريخ الدولة العربية الاسلامية الاولى— دار الكتاب —دمشق ط٣
٢١—علي،(جواد)
المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٦ .
٢٢—الكتاب المقدس
القرآن الكريم
٢٣—لوبون(غوستاف)
حضارة العرب— ترجمة عادل زعيتر— مطبعة الحلبي ١٩٦٩م
٢٤—ابن منظور،(ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)
لسان العرب— دار صادر—بيروت.
٢٥—المقريزي،(تقي الدين أحمد بن علي عبد القادر)
امتاع الاسماع بما للرسول من الابناء والاموال والحفدة والمتاع— تحقيق محمد شاكر —مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر— القاهرة١٩٤١ .
٢٦—الواقدي،(محمد بن عمر)
المغازي النبوية— تحقق مارسدن جونز— مؤسسة الاعلمي للمطبوعات — بيروت
٢٧—ابن هشام،(ابو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري؛ السيرة النبوية— تحقيق مصطفى السقا وغيره— دار احياء التراث—بيروت.
٢٨—الهمداني،(ابو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب)
صفة جزيرة العرب— تحقيق محمد بن علي الاكوع الحوالي— دار اليمامة— الرياض.
٢٩—اليعقوبي، (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح)
تاريخ اليعقوبي — دار صادر —بيروت.

الحواشي:

١—ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب.

٢—ياقوت ، معجم البلدان مادة جار.

٣—ياقوت معجم البلدان مادة جار.

٤—ابن حوقل، صورة الارض ص ٣٩

٥—ياقوت، معجم البلدان مادة أحد ، ومادة مديثة يثرب.

٦—ياقوت ، معجم البلدان مادة عير.

٧—ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب.

٨—السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٦٨ ومابعدها.

٩—سمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٦٨ .

١٠—ياقوت، معجم البلدان مادة بئر.

١١—ياقوت، معجم البلدان مادة عقيق.

١٢—السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٧١ ومابعدها ، الانصاري، آثار المدينة ص ١٤٠—١٥١—١٥٥ .سالم ، تاريخ العرب في عصر الجاهلية ص ٣٨٧ .

١٣— ياقوت، معجم البلدان مادة حرة.

١٤—ياقوت ، معجم البلدان مادة حرة.

١٥—سمهودي، وفاء الوفا ١ / ٣٩ .

١٦—البخاري، صحيح البخاري ٢ / ٦٦٧ .

والجُحْفة، كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل، وهي ميقات أهل مصرٍ والشام ان لم يمروا على المدينة فان مروا بالمدينة فيمقاتهم ذو الحليفة، وكان اسمها مَهْيعة ، وانما الجحفة لان السيل اجتحفها وحمل أهلها في بعض الاعوام وهي الآن خواب. ياقوت، معجم البلدان مادة الجحفة.

١٧—ابن منظور، لسان العرب مادة قيل، سالم، تاريخ العرب في عصر الجاهلية—ص ٣٩٢ .

١٨—السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ٩٤٢ ومابعد.

١٩—البخاري، صحيح البخاري ٣ / ٨٣٣ ، البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٤ السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٧٩ .

٢٠البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٤ .

٢١—ياقوت ، معجمَ البلدان مادة يثرب.

٢٢—الاصبهاني، الاغاني ١٥ / ٤٨ —الافغاني ، اسواق ص ٦٢ .

٢٣—ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ١٦ .

٢٤—البلاذري، فتوح البلدان ص ٣١ ، السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ٩٩٠ .
٢٥—ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ٢٠١ — ٢٠٢ قارن البلاذري، فتوح البلدان ص ٣٣
٢٦—البلاذري، فتوح البلدان ص٣٥ .
٢٧—ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ٢٥٦ .
٢٨—اليعقوبي، البلدان ص ٣١٣ ، ياقوت معجم البلدان مادة مدينة يثرب.
٢٩—السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ٩٩٠ ومابعد، شريف، مكة والمدينة ٣٥٧ .
٣٠—البخاري، صحيح البخاري ٣ / ٨١٧ومابعد.
٣١—ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب.
٣٢—ديوان امرؤ القيس ص ٦٥، ابن منظور، لسان العرب مادة جرم.
٣٣—الواقدي، المغازي ١ / ٣٧٢ .
٣٤—شريف، مكة والمدينة ص٣٥٧ .
٣٥—ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ٢٢٩ .
٣٦—سمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٢٣٨ وينظر ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب .
٣٧—ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ١٤٤ .
٣٨—ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب.
٣٩—البخاري، صحيح البخاري ٢ / ٨٢٧ .
٤٠—ياقوت، ، معجم البلدان مادة الاطم والاطم والاجم بمعنى واحد والجمع أطام وأجام وهي الحصون ، واكثر مايسمى بهذا الاسم حصون المدينة.
٤١—البخاري/ صحيح البخاري ٢ / ٨١٩ .
٤٢—البخاري، صحيح البخاري ٢ / ٨٢٠ .
٤٣—البخاري، صحيح البخاري ٢ / ٨٢٥ .
٤٤—البخاري، صحيح ٢ / ٧٦٣ ، الافغاني أسواق ٥٠—٥١ .
المزابنة، وهي بيع الثمر بالتمر ، وبيع الزبيب بالكرم، وبيع العرايا وهي اشتراء الثمر بالتمر في رؤوس النخل.
المحاقلة، بيع الحنطة في سنبلها بحنطة صافية.
٤٥—البخاري، صحيح البخاري٢ / ٨٢٥ .
٤٦—ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ١٥٠ ومابعد ، ٢ / ٢٥٧ ومابعد.
٤٧—المقريزي، امتاع الاسماع ١ / ٢٤٧ .
٤٨—السمهودي، وفاء الوفا ٤ / ١٢٤٧ .

٤٩—ديوان حسان بن ثابت ٢٢٢ .
٥٠—ابن هشام، السيرة النبوية ٤ / ٥٨ .
٥١—ابن هشام ، السيرة النبوية ٣ / ٢٩٤ ، واللقاح «الابل الحوامل ذوات الالبان».
٥٢—ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ٢٦٤ .
٥٣—ابن هشام السيرة النبوية ٢ / ٢٦٤ .
٥٤—الواقدي، مغازي الواقدي ١ / ١٨٣ .
٥٥— الواقدي، مغازي الواقدي٣ / ٩٤٣ .
٥٦—السيوطي، تاريخ الخلفاء ١٦٧ .
٥٧—ابن هشام، السيرة النبوية. كانت خيول المسلمين يوم بدر فرسين بينما كانت خيول أهل مكة مائة فرس.
٥٨—السمهودي، وفاء الوفا٢ / ٧٥٤ .
٥٩—سورة آل عمران آية ١٤ ، الانفال، ٦١ ، سورة النحل، ٨ ، سورة الحشر، ٦ ، سورة الاسراء، ٦٤ .
٦٠— السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٨٥ .
٦١— ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ٢٥٦ ، الواقدي، مغازي الواقدي ٢ / ٥٢٣ .
٦٢—الواقدي ،مغازي الواقدي ٢ / ٨٠٠ .
٦٣— الواقدي ، مغازي الواقدي ٣ / ٩٩١ .
٦٤— الواقدي، مغازي الواقدي ٣ / ١٠٠٢ .
٦٥—البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٣ .
٦٦—ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ٢٥١ .
٦٧—ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ٣٠٥ .
٦٨—السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٥٩٢ .
٦٩—الواقدي، مغازي الواقدي ٢ / ٥٧٧ ، ابن الاثير، أسد الغابة ١ / ٢٢ .
٧٠—البلاذري، فتوح البلدان ص ٣٩ .
٧١—سلام، النشاط التجاري في خيبر ص ٢٧ .
٧٢—جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٧ / ٥٤٠ .
٧٣— ابن منظور، لسان العرب مادة حنتم ومادة زفت ومادة دبي ومادة نقر .
٧٤—شريف، مكة والمدينة ص ٣٧٦ ، سالم ، تاريخ العرب في عصر الجاهلية ص ٤٠٥ .
٧٥— الهمداني، الصفة ص ٢٩٩ ، دائرة المعارف الاسلامية ١٢ / ١٤٤ .
٧٦— ابن الاثير، أسد الغابة ١ / ٣٨—٣٩ .

ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ص ١٣١ .
٧٧— ابن الاثير، أسد الغابة ١ / ٣٨—٣٩ .
٧٨—ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ٣٤٣ .
٧٩— الواقدي، مغازي ٢ / ٤٤٥ . والمساحي جمع مسحاة وهي المجرفة من الحديد، وكرازين جمع كرزون وهو الفأس . وكاتل جمع مكتل وهو الزنبيل الكبير . الواقدي ، مغازي الواقدي ٢ / ٤٤٥ حاشية .
٨٠—البلاذري، فتوح البلدان ٣١ .
٨١—الواقدي، مغازي الواقدي ١ / ٣٧٣ .
٨٢—الواقدي مغازي الواقدي ١ / ١٧٩ .
٨٣—السمهودي، وفاء الوفا ٤ / ١٢٣٠ .
٨٤—الواقدي، مغازي الواقدي ١ / ١٧٦ .
٨٥—البلاذري، أنساب الاشراف ١ / ٧٣ .
٨٦—ابن هشام، السيرة ٢ / ٢٥٧ .
٨٧—الافغاني، اسواق٣٥٦ .
٨٨—ابن حبيب، المحبر ١٦٩ .
٨٩—لوبون، حضارة العرب ١٠٧ .
٩٠—الافغاني، أسواق ٣٥٦ .
٩١—سلام، النشاط التجاري في خيبر ص ٢٢ .
٩٢—سمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٤٧ .
٩٣—السمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٥٤ .
٩٤—السمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٤٩ .
٩٥—السمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٥٦ .
٩٦—السمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٥٧ .
٩٧—الاصبهاني، الاغاني١٥ / ٤٨ .
٩٨—سورة النساء، ١٦٠—١٦١ .
٩٩—الافغاني، أسواق ص ٣١ .
١٠٠—عاقل وخماش، تاريخ الدولة العربية الاسلامية الاولى ص ٦٣—٧١ .
١٠١—البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٨ .قارن السمهودي ، وفاء الوفا٢ / ٧٤٨ .

من تاريخ اللغة العربية(*)

● د. مسعود بوبو

أدوات الكتابة والوراقة

سبقت الإشارة إلى أن أدوات الكتابة والتدوين كانت بدائية وفق حاجات العرب إليها في ذلك الزمن المبكر، كالحجارة بأنواعها والعظام والأقتاب والعسيب والجلود والمهارق والطوامير.. ثم القرطاس والورق.

وإذا أردنا الحديث عن الكتابة والوراقة بمفهومها الواسع، فلا بدّ من الحديث عن الورق بشيء من التفصيل، بصفته الأداة الرئيسة في هذا الميدان.

والورق اختراع قديم، يعود تاريخه إلى ماقبل الميلاد، ومن المرجح أن الصينيين عرفوا صناعة الورق منذ عام ١٠٥م،ومن الصين انتقلت هذه الصناعة إلى سمرقند التي فتحها العرب سنة ٨٧هـ. والمشهور عملياً أن معركة العرب بقيادة زياد بن صالح مع الترك وحلفائهم الصينيين ،عام ١٣٤هـ على ضفاف نهر طراز، جاءت بأسرى صينيين إلى سمرقند، كان فيهم من يعرف صناعة الكاغد الذي كان أحسن وأنعم من القراطيس البرْديّة المصنوعة من ورق البردي، والتي عرفها المصريون منذ أقدم العصور، وعنهم عرفها الفينيقيون وأوصلوها إلى العرب، انطلاقاً من ثغرهم المعروف بيبلوس(قرب بيروت في لبنان). واشتقّ اليونان من اسم هذا الثغر كلمتي «بِيْبْلِيُون BIBLION » بمعنى الكتاب عامة، ومنها الانكليزية BIBLIOTHECA والفرنسية BIBLIO-THEQUE، وتعني الكلمة في مختلف اللغات الأوربية: خزانة كتب، دار كتب، مكتبة عامة... BIBLIOGRAPHYبيبليوغرافية، بمعنى الفهرسة، وعرافة الكتب.

ومن الواضح والمتفق عليه، أن تسميتي «الكاغد» و«القَراطيس» غير عربيتين، فالكاغد كلمة فارسية في معجم «لسان العرب» وغيره، والقراطيس: جمع «قرطاس» يونانية الأصل بلفظ«خَارْتس». وعندما عرف العرب هذين النوعين من أدوات الكتابة استخدموا التسميتين بتغييرَ صوتي يسير، أي بتعريب نطقيهما، ثم أصطلحوا على تسميتهما أو ترجمتهما بالورق، على التشبيه بورقَ النبات، ولم يكن العرب قد عرفوا ورق الكتابة،

★نشرت الحلقة الأولى من هذه الدراسات في العدد٣٣/ ٣٤(١٩٨٩)، والثانية في العدد٣٧/ ٣٨(١٩٩٠)، والثالثة في العدد٤٧/ ٤٨(١٩٩٣)، والرابعة في العددين ٤٩/ ٥٠(١٩٩٤)، والخامسة في العددين٥٠/ ٥١(١٩٩٥) .

ومن الثابت تاريخياً أن العرب عرفوا القراطيس قبل الكاغد، يقول كلود كاهن: «..ومنذ العصر البيزنطي انفردت مصانع في مصر خاصة بإنتاج ورق البردي، أو بإنتاج الأقمشة الفاخرة التي عرفت باسم «الطراز» في العالم العربي وإيران. ولم تتوقف هذه الصناعات، بل ظلت قائمة في ظل الحكم العربي في مصر»(١)

والذي يعنينا هنا هو أن الروم البيزنطيين كانوا يستوردون القراطيس من مصر(٢)، ولأنّ أرض الشام كانت امتداداً لامبراطوريتهم، فمن المحتمل أن العرب كانوا قد عرفوا القرطاس بطريق الشام، ومن الشواهد القديمة على ذلك قول طرفة بن العبد يصف ناقته:

وخدٌّ كقرطاس الشآمي ومشْفَرٌ
كسبت اليماني قدُّه لم يُجرَّد(٣)

وطرفة من الشعراء الجاهليين، أي أن العَرب كانوا قد عرفوا القرطاس منذ العَصر الجاهلي. ولكن، من المؤكد أن العرب—بعد الفتوحات الإسلامية— هم الذين كانوا يصدرون القراطيس والطوامير(٤) إلى بلاد الروم. فقد جاء في كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة:

«كانت القراطيس تدخل بلاد الروم من أرض العرب، وتأتي من قبلهم الدنانير، وكان عبد الملك(ابن مروان بن الحكم ت ٨٦هـ) أول من كتب(قُلْ هو الله أحد) وذكر النبي صلى الله عليه وسلم في الطوامير، فكتب إليه ملك الروم: إنكم أحدثتم في طواميركم شيئاً من ذكر نبيكم نكرهه، فانهُ عنه وإلا أتاكم في دنانيرنا من ذكره ماتكرهون. فكبر ذلك في صدر عبد الملك وكره أن يدع شيئاً من ذكر الله قد كان أمر به، أو يأتيه في الدنانير من ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم مايكره. فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية فقال: ياأباهاشم! إحدى بنات طبق(أي داهية معضلة)، وأخبره الخبر. فقال: ليفرح روعك (ليذهب فزعك)، حرِّمْ دنانيرهم واضرب للناس سككاً ولاتُعفهم (يعني الروم) ممايكرهون. فقال عبد الملك: فرجتها عني فرج الله عنك»(٥).

وأما الكاغد الصيني الذي كان يصنع من الكتان والقنّب، فقد كان العرب يستوردونه من سمرقند بطريق بلاد فارس. ومن الفرس عرف العرب المهارق، وكانت من قماش يسقى بالصمغ ثم يصقل بالخرز ويستخدم في الكتابة عليه(٦).

خلاصة القول: إن مصر والصين كانتا أشهر مصادر إنتاج الورق في العالم القديم، وإن العرب كانوا مستوردين له قبل الاسلام وفي بدايته من إحدى الجهتين أو منهما جميعاً، ثم ازدهرت صناعة الورق في ديارهم فصارت متجراً لهم، وسبباً من أسباب تقدم الحركة العلمية وتنشيطها.

ففي عهد هـارون الرشيد(١٧٠—١٩٣هـ) انتقلـت صناعة الورق إلى بغـداد«خاصة بعد أن أمر لأن لايكتب الناس إلا في الكاغد، لأن الجلـود ونحوها تقبل المحو والإعادة، فتقبل التزوير، بخلاف الورق»(٧).

ويقال إن الفضل بن يحيى البرمكي أنشأ هـذه الصناعة في الجودة ووفرة الإنتاج، ونالها على أيدي المسلمين التغير الـذي كان يعتبر حادثاً في تـاريخ العالم، فإن المسلمين نقّـوه مما كان يستعمـل في صناعتـه من ورق التـوت ومن الغـاب الهندي وكـان من الأنـواع التي اتخذوها:

١—السليماني، نسبـة إلى سليمان بـن راشـد الذي كـان على خـراج خـراسـان لهارون الرشيد.

٢—الجعفري، نسبة إلى جعفر البرمكي.

٣—الطلحي، نسبة إلى طلحة بن طاهر ثاني الأمراء الطاهريين.

٤—الطاهري، نسبة إلى طاهر الثاني.

٥—النوحي، نسبة إلى نوح الساماني.(٨)

أي إن صناعة الورق في العصر العباسي صارت بيدالحكومة المركزية التي اتسعت بهذه الصناعـة، فأنشأت مصـانع في دمشق وطبرية وحلب وطرابلس من بلاد الشام. وإبان الحروب الصليبية، تعلّـم أسيران فرنسيان في دمشق سر صنـاعة الورق، وعندمـا عادا إلى أوروبة نشرا هـذا السر، وعمت بعد ذلـك صناعته في فرنسـة وأوروبة. كما كان لصنـاعة الورق في صقلية والأندلس أكبر الأثر في نقل هذه الصناعة إلى إيطالية وبقية ا لغرب.(٩)

ويذكر الإدريسي أنـه كان يعمل بمدينة شـاطبة بالأندلـس من الكاغد مالا يـوجد له نظير بمعمـور الأرض، وأنه يعـم المشارق والمغـارب(١٠). وقد مـدح المؤرخون الـروم والمسلمون الورق الدمشقي الذي صار يصدر منهـا ومن طرابلس على البحر المتوسط إلى مصر، وكـانـت أوروبة الشرقيـة تبتـاع ورقهـا مـن بـلاد الشرق العربي كما يـدل الـورق الدمشقي:(كارتا دا مسكنا CHARTA DAMASCENA)، وكذا عرف عندها ورق الطير الذي كان رقيقاً تكتب فيه البطائق وتعلّـق في أجنحة حمام الزاجل. وصُنع الورق في حلب، ولشهرته سمي حـي فيها باسم«حي الوراقة»، ومازالـت هذه التسمية معروفة إلى اليوم.

ومامن شـك في أن الإقبال على اقتناء الكتب ونموالاهتمام العلمـي، وشيوع المكتبات قد عـزّز صناعة الورق ورواج الاتجار بـه، ودفع الحكام إلى زراعـة القنب لدعم صنـاعته وتـوفيره حتى صـار في متناول المحتـاج بسعر زهيـد، يـرجح هـذا ماذكـره ابن سعـد في الطبقات(٦/ ١٦) من أن علي بن أبي طـالب قام يخطب في أهل الكوفـة فقال: من يشتري علماً بـدرهـم؟ فـاشترى الحارث الأعور صحفـا بدرهـم، ثم جـاء بها علياً رضي الله عنـه فكتب له علماً كثيراً.

ويذكر الجهشياري أن الخليفة أبا جعفر المنصور، باني مدينة بغداد، وقف على كثرة القراطيس في خزائنه، فدعا بصالح صاحب المصلّى فقال له: إني أمرت بإخراج حاصل القراطيس من خزائننا فوجدته شيئاً كثيراً جداً، فتول بيعه، وإن لم تُعط بكل طومار إلا دانقاً، فإن تحصيل ثمنه أصلح منه.

قال صالح، وكان الطومار في ذلك الوقت بدرهم.(١١)

ولقد كان حرياً بتجارة الورق أن تزدهر تمشياً مع اتساع التدوين والتصنيف وإقبال الناس المتزايد على الاشتغال بالكتابة والاهتمام بالكتب وبالتحصيل العلمي عن هذا الطريق الجديد، ومن هنا حرص الحكام على توفير الورق، خدمة للعلم والدين، وتوجيهاً للناس إلى مافيه صلاحهم وخيرهم وخدمة لغتهم. وفي هذا الصدد يُذكر قول الألمانية زيغريد هونكه:

«فأصبحت الكتب هي مطلب كل من يستطيع تحمل نفقات الحصول عليها، وأقبل الناس في البلدان العربية على اقتنائها بلهفة متزايدة لم يعرف لها التاريخ من قبل مثيلاً».(١٢)

ومع تنامي هذا الاتجاه الصناعي —التجاري —العلمي فرز التطور التاريخي للعرب ظاهرة جديدة في حياتهم ومجتمعاتهم هي حرفة الوراقة. واصطلح القوم على أن الوراقة تعني حرفة صناعة الورق، ونسخ الكتب، والاتجار بها، وهي عند ابن خلدون:«الانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور المكتبية والدواوين»(١٣).

وقد فرز هذا التطور فئة جديدة في المجتمع عرفت باسم«الوراقين»، واشتغل بحرفة الوراقة عدد من أعلام الحفاظ والنحاه والمؤرخين والقضاة والعلماء والأدباء، وفي طليعة هؤلاء الجاحظ(عمر بن بحر بن محبوب، ت ٢٥٥هـ) وابن النديم(أو النديم٤٣٨هـ)، وياقوت الحموي(ت٦٢٦هـ) وغيرهم.. ولقّب بعض هؤلاء بالقراطيس والكراريس، واشترك معهم في هذه الحرفة المشتغلون بصناعة الأحبار والأقلام وأدوات الكتابة والخطاطة والتجليد، كما جذبت هذه الحرفة التجار وأصحاب رؤوس الأموال ونظراءهم ممن اتخذوها وسيلة للرزق وكسب العيش والشهرة.

وكان للوراقة أسواق مشهورة في سائر أنحاء الدولة الاسلامية، «ففي سوق الكتب عند بوابة البصرة ببغداد، التي كانت تضم أكثر من مئة متجر (مثلاً) كان المتعلمون من كل أنحاء العالم الاسلامي يجتمعون. هنا يفتش الفيلسوف والشاعر والفلكي عما صدر حديثاً من الكتب، وهنا ينقب الطبيب والمؤرخ وجامع الكتب عن النسخ القديمة، وهنا وهناك يتنافسون جميعاً ويتبادلون المعرفة أو تُقرأ عليه برمتهم مقتطفات مما كتب»(١٤).

وأثر هذه الأسواق في تاريخ اللغة العربية يظهر جلياً في الانتقال من الأسواق الشعرية ومنابر الخطابة ومنتديات القوم ومجالسهم التي كانت أدواتها الأولى المادة الشعرية والمنافرات والإصلاح، وطابعها الكلامي الإلقائي — إلى أسواق الوراقة التي حفلت بالعلوم المتنوعة، والمعارف المتشعبة، والتي دونت في الأوراق والكتب بلغة علمية رصينة متأنية..

وصار للوراقة محترفون مهرة استقلّ بعضهم، أو تخصّص بفن بعينه في هذا الميدان، كالجغرافي المقدسي، من جغرافيي القرن الرابع الهجري، الذي برع في فن التجليد على الطريقة الشامية، وكان في رحلاته يجلّد الكتب، وعندما زار اليمن ونزل في عدن كانوا يدفعون له دينارين عن تجليد كل مصحف.(١٥) وازدهر فن التجليد بالجلود حتى أخذته البندقية عن العرب ونشرته في أوربة.

وارتبطت بالوراقة مهنة «الخطاطة»، واشتهر خطاطون، وصار يذيّل الكتاب باسم الخطاط للرفع من قيمته. كما رافق الوراقة «التذهيب» والزخرفة، وخاصة للفاتحة أو الديباجة،من كلمة ديباج بالفارسية، ثم أخذ الأوربيون كذلك هذا الفن. وظهر مع الوراقة «الدلالون» الذين كانت مهمتهم البحث عن الكتب النادرة وشراءها وبيعها، فكانوا يجوبون المدن ويزورون كل تاجر للبحث عن النادر منها وللاطلاع على آخر ماأنتجه الفكر العربي تأليفاً وترجمة. فكانوا بذلك همزة الوصل بين تجار الكتب في العالم العربي(١٦).

وهكذا امتلأت حوانيت بيع الكتب وأسواقها بالناسخين والخطاطين، وغدت الوراقة مصدر رزق لطائفة كبيرة من الناس. وألحق بالمساجد مكتبات عامة لطلاب العلم، وصار أصحاب الاختصاص يلتمسون الكتب كل وفق اختصاصه. وفي هذه الدائرة عرف ابن النديم العام صاحب «الفهرست» ندماءه وخلانه، ومن هنا استقى مادة كتابه وعنوانات أقسا لكتاب وفصوله، وكان هو نفسه عالماً فذاً له شهرته، كما كان، كأغلبية زملائه من تجار الكتب، قد تلقى تربية علمية واسعة، فسمع محاضرات الأعلام من فلاسفة عصره، وزار منازلهم وتعرف بالأوساط العلمية التي انتشرت على شكل جماعات ومدارس في أنحاء العربية.. ولم يكن هذا الرجل المثقف تلك الثقافة العالية إلا نموذجاً للكثير من زملائه ناشري العلم والمعرفة في تلك العصور.(١٧) وهو الذي خبر خفايا حرفة الوراقة وأسرار أصحابها وماكان يدفعهم إلى الاشتغال بها، أو يؤرقهم جرّاءها، وفي هذا الصدد يقول:

«وكان العالم إذا لم يكن فقيهاً صاحب منصب، ولم يجد مايعيش منه اشتغل بنسخ الكتب، كما حكي عن أبي زكريا يحي بن عدي(ت٣٦٤هـ) وكان من أكبر فلاسفة القرن الرابع الهجري.. وذكر عنه أنه نسخ بخطه نسختين من تفسير الطبري، وأنه كان يكتب في اليوم والليلة مئة ورقة»(١٨).

وتتحدث زيغريد هونكـه عن عالم الوراقة وعن الكتب التي «نسخت باليد وبذل فيها كـاتبوهـا مجهوداً مضنيـاً دام أشهراً طـويلة، بـل وأحيانـاً بضع سنـوات.. وكم رزم مـن الأوراق، ولييترات مـن الحبر صنعت مـن السنـاج والصمـغ العربي استهلكتهـا الأيـدي الدائبـة على الكتابـة في كل عـام. وكم مـن جلود أمـدتهم بهـا صغار الغـزلان والماعز قـد استنفدت في هذا الغـرض. وهكذا أصبحت تجارة الكتب تماماً كـالصيدلة، هديـة قدمتها العرب للبشرية. والواقع أن تـاجر الكتب لم يعرف كوسيط لنقل الثقافـة، ومتاجر الكتب كمراكز للثقافة في المدينة قبل أن يفعل العرب ذلك»(١٩).

إلى جـانب العلماء والتجـار والنسّاخ اشتغـل القضاة بـالوراقـة، كأبي سعيـد السيرافي القاضي الـذي كان يأكـل من كسب يده، ولا يخرج مـن بيته إلى الحكم إلا بعـد نسخ عشر ورقات يأخـذ أجرتها عشرة دراهم(٢٠). وكان الأعراب الرواة يـأتون الحواضر لعرض ألسنتهـم أو بضاعتهـم اللغويـة ولاسيما الغريـب، وبعضهم يعلّـم الصبيان أو يـورّق في الحضر كأبي مالك عمر بن كركرة٨(٢١)

ويستخلص مما قيّد عـن الورَاقة في كتب التراث أن دورها كان شبيهـاً بدور المطابع في هذا العصر مـن حيث إخراج الكتـب للناس، كما كانـت في ا لوقـت نفسه بمنزلـة المراكز الثقافيـة يشع منهـا نور العلـم والمعرفة، ومصـدراً للرزق ضئيـل المورد، ومن هنـا ذمت أحياناً، وحلم بعضهم بالخلاص منها كـأنها رمز لبؤس العلماء، يستوي في ذلك الفلاسفة والشعراء الذين قال عليهم أبو الحسن بن الفرات(ت٣١٢هـ):

«ولعل الواحـد منهم يبخل على نفسه بدانق ودونـه يصرف ذلك في ثمن ورق وحبر، وأنـا أحق بمـراعـاتهم ومعاونتهـم على أمرهـم، وأطلـق لهم من خـزانتـه عشرين ألـف درهم»(٢٢).

وكان القاضي أبو المطرف(ت٤٠٢هـ) قاضي الجماعـة بقرطبة، وقد جمع من الكتب في أنواع العلم مالم يجمعـه أحد من أهل عصره بالأندلس، وكان لـه ستة وراقين ينسخون له دائما، وكان متى علم بكتـاب حسن عند أحد من الناس طلبه ليشتريه منـه وبالغ في ثمنه، وكان لايعير كتـاباً مـن أصوله البتـة، وإذا سألـه أحد ذلك وألحف عليـه أعطاه للنـاسخ فنسخه، وقابله ودفعه إلى المستعير.(٢٣)

ويستخلص من هـذا الخبر أن« النِّساخة » صارت وظيفـة، وأنّ المهتمين بجمع الكتب كهذا القـاضي كانوا يجنّدون فريـق عمل من الـوراقين الذين اتّسعـت مهامهـم فشملت «مقابلة» المنسوخ على الأصل إلى جانب عملية الانتساخ.. ويبدو أن بعضه أمضى سحابة عمـره في الوراقـة حتى أوشـك أن يحال على المعاش، أو التقـاعـد، ومن هنـا جاء السـأم والشكوى من هذه الحرفة، من ذلك ماروي من أنـه كان بنيسابور وراق يسمى أبا حاتم، ورّق بها خمسين سنة، وهو القائل:

إن الــــوراقـــــة حــــرفـــــة مـــــذمــــومـــــة
محرومــــــــــــة عيشي بها زمـــــــــنُ
إن عشــــت عشــــت وليـــس لي أكـــل
أو مـــــتّ مـــــتّ وليـــس لي كفـــن

ويروي ياقوت الحموي، أحد الوراقين المؤرخين الثقات خبر أحدهم فيقول:

«وكان أبو بكر الدقاق المعروف بابن الخاضبة(ت٤٣٩هـ) يعول والدة وزوجة وبنتاً من الوراقة، وفي سنة واحدة كتب صحيح مسلم سبع مرات، وهو يقول: فلما كان ليلة من الليالي رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت، ومناد ينادي ابن الخاضبة، فأحضرت، فقيل لي: ادخل الجنة، فلما دخلت الباب وصرت من داخل استلقيت على قفاي ووضعت إحدى رجلي على الأخرى وقلت: آه!. استرحت والله من النسخ»(٢٤).

وقد تعدّى مفهوم الوراقة هذه الدائرة التجارية والحرفية حين تحولت إلى ملتقى للعلماء ومحفل لنشاطهم المتنوّع في بيع الكتب وتبادلها واكترائها.. مما ساعد على رواج المؤلفات، وازدهار التأليف، وكثرة المخطوطات. وهذا كله أفضى إلى هواية اقتناء الكتب وإحداث المكتبات والخزائن.

ولاتعني الوراقة وتلك الكثرة في الكتب والمكتبات أن العربية أصبحت تحَّصل عن هذا الطريق حصراً، أو أن الناس اتجهوا كلية إلى الكتب في التحصيل، بل كانت هنالك حلقات للدرس والتدريس في المساجد، وكانت هنالك القراءة على الشيوخ في مختلف ضروب العلم من تفسير وحديث ولغة وشعر وأخبار، وكانت طريقتها أن يختار الشيخ«قارئاً» عرف بالضبط والحفظ ليقرأ والحاضرون يستمعون، أو يتابعون في نسخهم، والشيخ يصحح الأغلاط، ويضبط النص، ويوثّقه، ويشرح ماغمض منه ووجوه احتمالاته، دلالةً وتراكيب، ويكتب الحاضرون مايضيفه الشيخ من زيادات، ومايجيب به عن الأسئلة، إما من كتاب بين يديه أو من حفظه.

ومن الأمثلة على ذلك مارواه ياقوت الحموي نقلاً عن أبي الحسن العباس ثعلب (ت٢٩١هـ)، قال:

«شاهدت ابن الأعرابي (ت٢٣١هـ) وكان يحضر مجلسه زهاء مئة إنسان، كلٌّ يسأله أو يقرأ عليه، ويجيب من غيرَ كتاب. قال: ولزمته بضع عشرة سنة مارأيت بيده كتاباً قط»(٢٥)

وتعليل الإقبـال على حلقات الـدرس والقراءة على الشيوخ مـرده إلى استمرار التـأثر بالـرواية الشفهية عن الثقـات من العلماء من جهة، وعـدم الثقةبالصحف والـوراقين من جهـة أخرى، وتعليـل ذلـك احتمال عدم فهـم الناسـخ لبعـض الألفاظ أو العبـارات أو المسـائل والموضوعـات، أو لأن المكتوب قـد يكون منطـويـاً على خطأ لايحسـن الناسـخ اكتشـافه وتـوجيهه فيـأخذه على عـلاته، ومـن هنا نشـأ الخوف أو الحذر من التصحيـف والتحريف.

ويعرّف السيـوطي التصحيف فيقـول:«أصل التصحيف أن يأخـذ الرجل اللفـظ من قراءته في صحيفة ولو لم يكن سمعه من الرجال، فيغيره عن الصواب»(٢٦).

ويقرب من ذلـك التحريف، وهو إبدال حـرف بحرف لتشابههما في الرسـم. ومن هنا قال أبـو منصور الأزهـري، صاحب معجـم الصحاح: «والصحفـي إذا كان رأس مـاله صحفاً يقرؤهـا فإنه يصحّف كثيراً، وذلك أنـه يخبر عن كتب لم يسمعها، ودفـاتر لايدري أصحيح ماكتب فيها أم لا، وإن أكثر ماقرأنا من الصحف التي لم تضبط بالنقط الصحيح، ولم يتولَّ بصحيحها إلا أهل المعرفة السقيمة لايعتمدها إلا جاهل»(٢٧).

وقال الشريـف الجرجاني(ت٨١٦هـ):«التصحيـف أن يُقرأ الشيء على خـلاف ماأراد كاتبه أو على خلاف مااصطلحوا عليه»٨(٢٨)

والتحــريــف:تغيير اللفــظ دون المعنــى(٢٩). وفي «الكليــات» لأبي البقـــاء الكفوي(ت١٠٩٤هـ): التصحيـف: تغيير اللفظ والمعنى، والتحريـف: تغيير اللفظ دون المعنى.(٣٠).

ومـع مـااستـدعته الـوراقـة مـن تطـور في تحصيـل العلم، ومـن إنفـاق ومشكـلات ومصطلحات، ومع كل هذا التحفظ والحذر، فإن الزمـن والعرب قد انتقلا باللغة العربية من مرحلـة الشفهية الصوتية إلى المرحلة الصـورية الكتابية، وصـار العرب يعكفون على تحصيل لغتهـم من الصحف والكتـب والمخطوطـات ويحفظونها في تضاعيـف المصنّفات والخزائن، بعد ماكانت تؤخذ بالسماع والتلقي والرواية، وتحُفظ في الذواكر والصدور.

الحواشي والإحالات:

١—انظر: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية:٣٥ ، كلود كاهن. ترجمة د. بدر الدين القاسم. دار الحقيقة—بيروت، ط٣ ، ١٩٨٣ وانظر أيضاً: ص١٣٧منه.

٢—انظر: فتوح البلدان للبلاذري: ٢٤١ ، عني بمراجعته: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية— بيروت ١٩٨٣ .

٣—المشفر للناقة كالشفة للإنسان وكالجحفلة للفرس. والسِّبْت (بكسر السين) جلود البقرِ المدبوغة. بشجر القَرَظ، ومن هذه الجلود كانت تصنع النعال السِّبْتية أو نعال السِّبت، وكان ينتعلها عليه القوم.

والقد: النعل لم تجّرد من الشعر، لذا تكون ألين للمحتذي.

٤—الطوامير: جمع طومار، وهو الصحيفة كما في لسان العرب(طمر)،وهو دخيل بمعنى الصحيفة الملفوفة، وفي التركية طومار معناه دفتر(كتاب تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية للقس طوبيا العنيسي ط/ ٤٨) عني بنشره وتحقيقه الشيخ توما البستاني—مكتبة العرب بالفحالة. ط ٢ سنة ١٩٣٢ . وقيد صاحب لسان العرب: وقيل:(هو دخيل، ثم قال: وأراه عربياً محضاً لأن سيبويه قد اعتدّ به في الأبنية فقال : هو ملحق بفسطاط). والاعتداد به في الأبنية يكون في الشيوع والاطراد، وليس بناء«فوعال» كذلك. والإلحاق يقتضي أن يكون بوزن أو أصل عربي صحيح، وفسطاط ليست بعربية. وانظر«المعرب من الكلام الأعجمي» للجواليقي:١٧٣ . بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، مطبعة دار الكتب ط ثانية، القاهرة ١٩٦٩ . والكلمة في الفارسية (ان) فقالوا: طوماردان.

ويبدو أنها دخلت اليونانية بحكم الجوار فتوهّم د.التونجي يونانيتها انظر(معجم المعربات الفارسية في اللغة العربية). نشر دار الأدهم. دمشق ١٩٨٨ .

٥—عيون الأخبار: ٢١٩—٢٢٠ ، أعدته للطبع ونشرته وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٧ ، وفي فتوح البلدان: ٢٤١مع بعض اختلاف في الرواية. وانظر: كلود كاهن(مرجع سابق): ٣٥ .

٦—كوركيس عواد، مجلة مجمع دمشق، مجلد ٢٣ص ٤١٨ ، بحث بعنوان: الورق أو الكاغد، صناعته في العصور الإسلامية.

٧—عواد، الموضع السابق، الصفحات:٤١٨،٤٢٦،٤٢٧ .

٨—الموسوعة الميسرة. وانظر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري٢ / ٣٦٦ لآدم متز، تعريب: محمد عبد الهادي أبو ريدة. ط٥ ، دار الكتاب العربي، بيروت، بلا تاريخ.

٩—كوركيس عواد: ٤١٨ (مرجع سابق).
١٠—الحضارة العربية ٢ / ٣٦٧ حاشية المترجم عن الإدريسي، (طبعة دوزي، ص ١٩٢) .
١١—الوزراء والكتاب: ٨٨—٨٩ دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، بيروت—لبنان ١٩٨٨ .
١٢—زيغريد هونكه «شمس العرب تسطع على الغرب» ص ٣٨٥ ، نقله عن الألمانية فاروق بيضون—كمال دسوقي، ط، ١٩٦٤ . منشورات المكتب التجاري—بيروت.
١٣—مقدمة ابن خلدون ٢٦٢ بتحقيق. علي عبد الواحد وافي. القاهرة ١٩٥٧—١٩٦٠ .
١٤—زيغريد هونكة: ٣٩٠ .
١٥—الحضارة الإسلامية: ٢ / ٣٣٣(نقلا عن المقدسي في : أحسن التقاسيم).
١٦—زيغريد هونكة:٣٩١ .
١٧—السابق نفسه:٣٩٠—٣٩١ .
١٨—الفهرست لابن النديم ٢٦٤ ، والحضارة الإسلامية ١ / ٣٤٢—٣٤٣ .
١٩—زيغريد هونكه: ٣٩٠ .
٢٠—البلغة في تاريخ أئمة اللغة لمجد الدين الفيروز آبادي: ٦١ ، تحقيق محمد المصري. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٢ .
٢١—الأعراب الرواة: ٢١٨ للدكتور عبد الحميد الشلقاني. دار المعارف بمصر ١٩٧٧
٢٢—الحضارة الإسلامية ١ / ٣٤٢ .
٢٣—نفسه ١ / ٣٢٦—٣٢٧ .
٢٤—إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ٦ / ٣٣٧ ، نشر مرجليوث، ليدن ١٩٠٧—١٩٢٦ .
٢٥—معجم الأدباء: ١٨ / ١٩٠—١٩١ دار احياء التراث العربي. بيروت.
٢٦—المزهر في علوم اللغة: ٢ / ٣٥٣ بعناية: جاد المولى، البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم. ط. عيسى البابي الحلبي وشركاه.
٢٧—تهذيب اللغة ١ / ٣٣ . حققه وقدم له عبد السلام محمد.
٢٨—كتاب «التعريفات»: ٦١ ، مكتبة لبنان—بيروت ١٩٧٨ .
٢٩—السابق نفسه: ٥٥ .
٣٠—الكليات لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي: ٢ / ٧٢ ، قابله على نسخة خطية ووضع فهارسه د.عدنان درويش—محمد المصري. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٥ .

المظاهر السياسية والحضارية للدولة الرستمية في المغرب

١٤٤—٢٩٦هـ = ٧٦١—٩٠٩م

اعداد
الدكتور / صالح محمد فياض أبو دياك
أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك
بقسم التاريخ — كلية الآداب
جامعة اليرموك
اربد— الأردن

د.صالح محمد فياض أبودياك

المظاهر السياسية والحضارية للدولة الرستمية في المغرب (١٤٤—٢٩٦هـ = ٧٦١—٩٠٩م)

الواقع أن ظروف المغرب كانت مؤاتية لاندلاع ثورات الخوارج سنة ١٢١هـ =٧٣٩م، بعد تفاقم المشاكل في البلاد من النواحي السياسية والاقتصادية إبان ولاية عبيد الله بن الحبحاب الذي كان رغم حسن ارادته وخبرته في تسيير الأمور إلا أن هذه الصفات لم تغن شيئاً أمام النزاع القبلي العربي، الأمر الذ أدى إلى تداعي نفوذ الخلافة الأموية في هذه البلاد خاصة بعد موت الخليفة هشام سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م، ولعل أبرز الأحداث دلالة على ضعف هيبة الخلافة بالمغرب، تغلب عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة الفهري على أفريقية سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٥م. وارغام حنظلة بن صفوان على مغادرتها وقبول الخليفة مروان بن محمد مضطراً بشرعية ولايته سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٥م(١).

وكان فشل الخوارج في المشرق في تحقيق أهدافهم بتكوين دولة لهم بسبب ضعفهم في التنظيم السياسي، وقيامهم بالثورات المستمرة ضد بني أمية دون تنظيم مسبق، جعلهم يستفيدون من أخطائهم السابقة ويلجأون إلى التنظيم والسرية في الدعوة لتكوين الدولة.

ونجحت دعوتهم بتكوين الدولة الرستمية التي تبنت آراء المذهب الأباضي الذي انفرد عن غيره من المذاهب الاسلامية بأن الخلافة ليست في قريش، ولا في قبيل من قبائل العرب، ولافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، وأن الجميع فيها سواء، وأن العمل بأوامر الدين كجزء من الايمان، وليس الايمان الاعتقاد وحده بل الاخلاص للعقيدة، من هنا تناسبت هذه الآراء مع طبيعة المغاربة ومطالبهم، خاصة الشرط القائم على الجنس، فقد أقبل المغاربة على الأخذ بها أكثر من غيرها، وقام دعاة الأباضية في بث مذهبهم بين شيوخ القبائل الذين تحولوا إلى دعاة للمذهب بين قبائلهم، حتى عمت الدعوةسائر البلاد المغربية في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة. واحتاج المذهب إلى رجال يقومون بتعريف المغاربة بفقهه وآرائه وعقائده. ولم يستطع دعاة المذهب الأول كعكرمة مولى ابن عباس، وسلمة بن سعيد، وابن مفيطر أن يقوموا بهذا الدور، فاختار المغاربة بعض الرجال منهم وأوفدهم في بعثة علمية إلى البصرة للدراسة والتعليم والتعمق في أصول المذهب وفروعه، واستمرت مهمتهم خمس سنين عادوا بعدها إلى المغرب، وسموا بـ(حملة العلم)(٢)، ثم قاموا بتدريس ماتعلموه بالمشرق في حلقاتهم التي انتشرت في جهات كثيرة من بلاد المغرب الأدنى، وفي تلك الحلقات تلقى أتباع المذهب عل الأصول والفروع، والسير، والتوحيد. والشريعة، وآراء الفرق الاسلامية الأخرى، إلى جانب علوم اللغة والفلك والرياضيات(٣)، فكانت حلقاتهم بمثابة مدارس للعلوم النقلية والعقلية ومراكز للتعريب ونشر الحضارة العربية الاسلامية.

ولم تنقطع الصلة الثقافية بين أباضية المشرق —عُمان والبصرة— وأباضية المغرب، فكانت كتب فقهاء المذهب في الشرق وتصانيفهم ترد إلى المغرب بشكل دائم(٤). كما دأب فقهاؤهم ومحدثوهم على القدوم الى المغرب للتدريس والافتاء(٥)، والاطلاع على أحوال الأباضية، وقد أشار أبو زكريا إلى ذلك، بقوله«...وبلغنا أن رجلاً من أصحابنا(٦) من أهل المشرق، أقبل من عُمان يريد زيارة أهل الدعوة...»(٧). إلى جانب ارسال البعثات العلمية من أهل المذهب إلى المشرق للأخذ عن أعلام المذهب في العراق ومصر والحجاز(٨).

ولاشك أن ذلك الاتصال الثقافي بالمشرق أثرى الحياة الثقافية في بلاد المغرب، وساعد على اظهار كثير من أعلام المغرب في العلوم الدينية والدنيوية مثل: الشيخ المهدي النفوسي الذي برع في علم الكلام، وابن يانس الذي برع في علم التفسير، والشيخان الفقيهان أبو الحسن الابدلائي، وعبد العزيز بن الأوز(٩) اللذان برعا في علم الفقه وغيرهم الكثير ممن أثروا بتآليفهم ومصنفاتهم الحياة الثقافية في بلاد المغرب، الأمر الذي ساعد على انتشار المذهب ورسوخه في العديد من المناطق المغربية، مثل: الجزائر ووهران، وجبال الأوراس، وجنوب باغاية، والنصف الجنوبي من أفريقية— تونس، ومنطقة طرابلس الممتدة من خليج سرت الواقع على البحر المتوسط إلى الصحراء الكبرى باستثناء مدينة طرابلس وساحل البحر اللتان كانتا تابعتان للأغالبة من قبل، ونظراً لقربها من مناطقهم، كانتانقطتي تماس بينهما. وبقي هذا المذهب في هذه المناطق إلى نهاية القرن الخامس للهجرة.

يقول البكري بهذا الخصوص:«وجبل أوراس وهو مسير سبعة أيام وفيه قلاع كثيرة تسكنها قبائل هوارة ومكناسة وهم أباضية»(١٠). وإلى اليوم مازالت فئات منهم في ميزات—جنوب الجزائر— وفي جربه بتونس، وفي ليبية.

ولما تكونت دولتهم المسماة بالدولة الرستمية(١١)، تبنت المذهب الأباضي، واتخذت مدينة تاهرت عاصمة لها، وأصبحت حدودها السياسية بين إمارة الأغالبة شرقاً والأدارسة غرباً، وامتدت جنوباً لتشمل ورقلة ووادي ريغ والجريد، وجبال دمر إلى طرابلس. وجبل نفوسة، وأصبحت على مقربة من الحدود المصرية.

ولقب حكامها بالأئمة إلى جانب لقب أمير المؤمنين(١٢)، وكما ذكرنا كان نظام اختيار الحكام قائم على مبدأ الشورى، بدليل أن الإمام عبد الرحمن بن رستم عندما أدركته الوفاة، قام بتعيين سبعة رجال من أهل الشورى—ممن عرفوا بالتقوى والورع— لاختيار امام منهم، وهم: ابنه عبد الوهاب، ومسعود الأندلسي، وأبو قدامة، ويزيد بن فندين اليغرني، وعمران بن مسعود الأندلسي، وأبو الموفق سعدوس ابن عطية، وشكر بن صالح الكتامي، ومصعب بن سرحان، وبجعل ابنه ممن يقع عليهم الاختيار، أحدث احتجاجاً من قبل مسعود الأندلسي، ويزيدبن فندين، وخاصة الأخير الذي رأى في هذا الاسلوب تغليب فكرة التعيين بالوراثة على فكرة التعيين بالانتخاب(١٣).

ولك ينال الإمام التأييد لابنه مـن فقهاء وزعماء الأباضية(١٤) في المشرق أرسل وفداً إليهم يستفتيهم بما حصل، فجاء الافتاء لما فعل، ولكـن ابن فندين لم يقنع، فلجأ الإمام إلى محاصرته والتقليل من شأنـه، فعهد إلى الاصهار مع أحد شيوخ لواته الكبـار وتزوج بابنة أمير هوارة أحد بطونها فانحازت لواته له(١٥).

ونال البيعة الخاصة من أهل الحل والعقد، وتبعتها البيعـة العامة من أبناء الرعية وبهذا نال الامامة حسب الأسلوب المتبع في الدول الاسلامية ونودي به إماماً للدولة(١٦) سنة ١٦٨هـ/ ٧٨٤م.

وجرت العادة أن يكـون للامام مجلسٌ يتكـون من العلماء والعقلاء المتقين المخلصين، والذين لهم دراية بـالأمور وهم يعدون له ظهيراً، ويقوم الخطبـاء بترديد البيعة للملأ على المنابر قصد اشهارها، فالخطيب أبو الربيع كان يعلن دائماً عن بيعة الإمام عبد الوهاب من على منبر المسجد في الأيـام الأولى من توليته بقـوله:(الامام عبـد الوهاب أمامنـا، وثقتنا، وإمام المسلمين أجمعين، فأنا براء ممن خالفه وأنكر عليه شيئاً غير حق)(١٧).

ويعلن الإمام عنـد توليته عن منهـاجه السياسي، ويوجـه كتاباً للأمـة يتضمن النصح والارشاد، واتباع أوامـر الله، من هؤلاء؛ الامام أفلح بـن عبد الوهاب الـذي وجه لعماله كتاباً ليقرأوه على المنابـر للرعية بعد أن بدأها بالبسملة والصـلاة على النبي قال: من أفلح بن عبد الوهاب إلى من بلغه كتابنا هـذا من المسلمين. أما بعد، فالحمد لله في الأمة المكرمة التي جعلها أمة وسطا... إلى أن يقول: «وعليكم بتقوى الله واتباع آثار سلفكم، فقد سنوا لكم الهدى، وأوضحوا لكم طـريق الحق وحملوكم على المنهاج، ففي أتبـاعهم النجاة وفي خلافهم الهلكة؛ وكـل بدعة ضلالة وكل ضلالة كفـر...» إلى أن يقول:«إن الله قد أوجب عليكم أن تقوموا لله بـالعدل في عباده وبلاده ولاتأخذكم في الله لـومة لائم... فاتقوا الله حق تقـاته وتـواصوا بالبر والتقـوى ومروا بالمعـروف المفترض عليكم وانهوا عـن المنكر الذي قـد نهيتم... فعليكـم معشر المسلمين باتبـاع الآثار والعمـل بما عمل بـه أسلافكـم المتقدمون قبلكم، فقد سنوا لكم الهدى، ففي اتبـاعهم كل رشد، وفي مخالفتهم كل غي... وقـد بالغـت إليكم في النصحيـة، وشرحـت لكـم الموعظـة ورضيت لكـم بما رضيت بـه لنفسي، ونهيتكم عما انهى عنـه نفسي نصيحة لله واجتهاداً في طلب رضـائه، والله أسأل أن يوفقنا وإياكم لطاعته والقيام بحقه برحمته إنه قدير، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

والكتاب طويل، اقتصرت على فقرات منه لعدم اتساعه في هذا المجال(١٨).

كما يصدر الامـام بعد تـوليته السلطـة قراراتـه المسماة بالبربـرية (البيـورلدي)، ومـن ضمنها ارسال الوفـود الدبلوماسية إلى الأمراء والملـوك الذين تربطهم به عـلاقات مودة، فقد أرسل الإمام أبو بكـر بن أفلح بن الامام عبد الوهاب، وفـداً إلى ملك مملكة صوصو احدى الممالك السودانية، برئاسة محمد بن عرفـة أحد أعيان مدينة تيهرت، ومعه هدية منه إلى الملك، وكان حسن الهيئـة والخلقة، فأعجب به، وعبر عن اعجابـه بلهجته قائلاً:«أنت حسن الوجه، حسن الهيئة والأفعال»(١٩).

ونهجوا كغيرهم من حكام المسلمين على تدريب ولاة العهد، فقد عين الامام عبد الوهاب حفيده (ميمون) على بيت المال، وأوكل إليه الجبايات رغبة منه في تولي الامامة من بعده، لكن رغبته لم تتحقق، أما الامام أبو اليقظان فقد قام هو الآخر بتدريب ولده المكنى بأبي حاتم على أمور الدولة، وعهد إليه مناصب متعددة، مما لفت نظر العامة إليه الذين حملوه على الأعناق يوم العيد ذاهبين به إلى المسجد ليصلي بالناس صلاة العيد لتأخر والده عنها، ولما علم والده بالخبر، قال لأمه واسمها غزال:«احذري ياغزال فقد أصبح ابنك اليوم سلطاناً(٢٠). ولعل اسمها كان تشبهاً بغزالة أم شبيب بن يزيد الشيباني التي كانت من أبرز نساء المذهب في المشرق(٢١).

وبالمناسبةفقد شاركت المرأة الأباضية الرجل في فنون السياسة والحرب، وأسهمت في التنظيم والدعوة، وبرزت في ميدان المعرفة، أمثال العجوز(وقاية) المعروفة بزهدها وسعة علمها وحسن آرائها، فقد استشارها الوالي أبو عبيدة عبد الحميد في الولاية المعروضة عليه من الإمام عبد الرحمن على جبل نفوسة(٢٢) فشجعته على قبولها(٢٣).

وتعددت العناصر المكونة للمجتمع الأباضي، الأمر الذي دعاهم إلى اتخاذ سياسة التوازن بينها خوفاً من الفتنة، ولكن عندما يشعرون بالخوف على أنفسهم أو مصالحهم يقومون بضرب العناصر بعضها ببعض، إلا أن الغالب على تصرفاتهم، حل المشاكل بالطرق السلمية، وعدم التعرض إلى سفك الدماء.

فقد عقد الامام عبد الوهاب مع الوالي المتمرد خلف بن السمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى اتفاقاً تم بموجبه اقتسام ولاية نفوسة بينه وبين واليه أبو عبيده عبد الحمد الجناوي، كما أننا نلمس من تصرفات الأئمة الأول الغيرة على الدين وتطبيق أحكام الشريعة في إماراتهم.

ونلمس أيضاً تطوراً في مظاهر البلاط الرستمي، عما كان عليه الحال من الزهد والتقشف أيام الأمير عبد الرحمن بن رستم أول الأئمة الرستميين الذي لم يحو بيته—يومذاك— إلا على حصير فوقه جلد ووسادة ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط في فناء داره، بينما الأئمة الذين جاءوا من بعده، كانت حياتهم شبيهة بحياة حكام المشرق، وهذه شأن كل الدول. فقد امتلكوا الضياع والمنازل والحصون التي أقاموها بنواحي (تسلونت) خارج تيهرت، واقتنوا الجواري والغلمان والعبيد والحشم، وكان لخيولهم وخدمهم وعبيدهم منازل خاصة بحصن(تماليت) خارج المدينة(٢٤)، لئلا يتعرضوا إلى النقد والتشهير من السكان المزدحمين في المدينة.

وأصبحوا يخرجون في مواكب خاصة يحيط بهم فرسان أعدوا لهذا الغرض، حاملين الأعلام الذين كان من أبرزها علم كبير يسمي(البند)(٢٥) ولم يشر المؤرخون إلى لون الأعلام ولا إلى شعاراتها، ويظن أنها بيضاء، لأن اللون الأبيض محبب لدى المسلمين عامة

والمغاربة والأندلسيين خاصة، إضافة إلى رغبتهم في مخالفة شعار العباسيين الممثل بالسواد، ويبدو أن هذه الأعلام كتب عليها آيات قرآنية تتماشى مع فحوى المذهب، وقد عثر في وادي ميزاب بجنوب الجزائر على رايات قديمة محفوظة في المساجد بيضاء اللون مكتوب عليها آيات قرآنية قريبة الشبه بالرايات الرستمية.

وكان لهم مواكب للخروج وللصيد في أوقات فراغهم، وبلغ تأثرهم بحكام المشرق أن لبسوا الثياب المزركشة والحلي القشيبة ووضعوا على رؤوسهم ما يسمى بـ(الطرطور)(٢٦).

واتخذ الامام أبو اليقظان سرادقاً على طريقة خلفاء بغداد تأثراً بهم بسبب عيشه مدة طويلة في حاضرتهم—بغداد— أثناء اعتقاله. أما عن الولائم والحفلات، فقد أقاموا الأسمطة—الجفان— لاطعام الفقراء أيام الأعياد والمناسبات الهامة. فكانت تقام الحفلات التي يحضرها وفود من كافة أنحاء الدولة، وكان عمال الإمام ورؤساء القبائل والعشائر ينزلون في (دار الضيافة) ثم ينصرفون إلى عمالاتهم ومضاربهم بعد أن يأخذوا نصيبهم من الأرزاق والهدايا والألطاف التي توزع عليهم في هذه المناسبات(٢٧).

وارتبطت الدولة الرستمية بعلاقات مع جيرانها اتسمت بالمد والجزر والود والبغض حسبما تمليه الظروف وخاصة السياسية منها على المنطقة كلها، ونظراً لقرب حدودها من دولة الأغالبة، والاختلاف في المذاهب الدينية وفي الولاء السياسي، كان من البداهة أن تحدث بينهم المشاحنات(٢٨)، والواقع أن الأغالبة لم يشكلوا خطراً مباشراً على حاضرة الرستميين(تيهرت) لبعدها عن افريقية مسافة قدرت مسيرة شهر على ظهور الإبل(٢٩)؛ وإنما يعود إلى مراكز استقرار رعايا الدولة الرستمية في الجبال، وقسم منهم امتهن حياة الترحال والتنقل من مكان لآخر حسب الظروف الطبيعية(٣٠)، وقدحدث أول احتكاك له بين الأغالبة والرستميين زمن الأمير ابراهيم بن الأغلب الذي كان معاصراً للإمام عبد الوهاب بن رستم الأباضي الذي تولى الإمامة٢٦٨هـ/ ٨٨١م، وسبب هذا الاحتكاك أن، بربر هوارة الأباضية، مافتئوا يثيرون القلاقل ضد بني الأغلب قصد انفصالهم عنهم والانضمام إلى دولة مذهبهم—الدولة الرستمية—ومن الواضح أن الإمام عبد الوهاب بن رستم هب لنجدتهم مستعيناً ببربر نفوسة القاطنين بالجبل المسمى باسمهم، رغم أن المصادر الأباضية تنكر ذلك، مشيراً إلى أن قدومه إليهم كان بغرض الحج وأن أهل الجبل قد أشاروا عليه بالبقاء تحسباً من مكائد العباسيين واعتقاله فيما لو علموا بوجوده في أرض الحجاز(٣١)، ويبدو أن بقاءه ساعده في الاضطلاع على أحوال بربر هوارة ومايلاقونه من متاعب من جيرانهم الأغالبة، فقام بضمهم إلى دولته وتعهد بالمدافعة عنهم، وعين عليهم والياً منهم اسمه مدراراً، بعد أن كانت هذه القبائل تعيش نظاماً اجتماعياً خاصاً بها يديره مجلس مكون من مشايخ قبائلهم راضين بالانعزال خوفاً من ضربات الأغالبة لقربهم منهم(٣٢).

ويبدو أن طابع العلاقات بين الدولة الرستمية، ودولة الأغالبة الممثلة للدولة العباسية في افريقية كـان واضحاً، ففي عهد الإمـام أفلح بن عبد الـوهاب الذي خلف والـده بعد وفاتـه سنة ٢٠٨هـ/ ٨٢٣م اندلعـت الفتن في عهده، وكان مـن أبرزها ثورة الثـائر نفاث الذي لم يـرض عن تـولية الإمـام، فلجأ الامام أفلـح إلى تضييق الخنـاق عليه مما اضطره للذهاب إلى المشرق ونزل لاجئاً سياسياً عند الخليفة العباسي ببغـداد، واستخدمه الخليفة وسيلة ضغط على الـدولة الرستمية، كما قـام الخليفة الواثق بـالله باعتقال محمد بـن الإمام أفلح المكنى بأبي اليقظان أثنـاء تأديته فريضة الحج. كل هذا يدل على ماكـانت تقوم به من تضييق الخناق على الدولة الرستمية.

وعمـد الأغـالبـة إلى إثـارة الفتـن الـداخليـة للـدولـة الـرستميـة، ويـرى صـاحـب الازهار(٣٣)، أن شخصـاً يدعى خلـف الخادم مولى بنى الأغلـب—استطاع عن طـريق بذل الأموال— إثارة الفتن بين سكان تيهرت، فـانقسموا إلى معسكرين، الامام وأنصاره مـن العجـم والنفـوسيين في جـانـب، والجنـد العـرب في جـانـب آخـر، ويـبـدو أن الجو الاجتماعي كـان مهيئاً لضرب العناصر بعضها ببعـض، اذ سرعان مانجح في مهمتـه وقام العرب والجند باحراق درب النفوسيين معبرين عن سخطهـم للبربر، وبالرغم من جهود الإمام أبي بكر في رأب الصدع، وقضائه على الحزب المناوىء—العرب— في عدة مواقع، لكن الخلافات والفتن لم تهدأ واستمرت سبعة أعوام حتى عهد الإمام أبو اليقظان(٣٤).

وبـادل الرستميـون الأغـالبة الكيـد بـالكيد، فقـد ثـار بـربر الأبـاضيـة في طرابلـس سنة٢٤٥هـ/ ٨٥٩م بتحريض من الإمام أبـو اليقظان محمد، وفي هذا يشير ابن خلدون في كتـابه(العبر)(٣٥) أن الأبـاضية في طـرابلس ثـاروا على عاملهـا أيام الأمير ابـراهيم بـن الأغلب(٢٤٢—٢٤٩هـ=٨٥٦—٨٦٣م) وهزموا عاملهـا، فجهز الأمير ابراهيم جيشاً بقيادة أخيـه زيادة الله وتمكـن من اخماد ثورتهم. لكـن رغم هذه العـداوة فقد تـوحدوا في جبهـة قتاليـة واحـدة لدرء خطـر صـاحـب مصر العبـاس بـن منصور بـن طـولون سنـة ٢٥٦هـ/ ٩٠٨م، لاحبـاً بالأغـالبة ولكن لانقـاذ أخوانهم الأبـاضيـة التابعين لإليـاس بن منصور النفـوسي، الذي بطش ابـن طولـون بهم وهتك حجبهم(٣٦) بعـد أن قضى على الأغالبة بمقتل عاملهم على طرابلس، ويروي ابن عذاري، أن الياس هذا استغاث بالبربر القاطنين بطرابلس أو الضاربين حولها، ويبدو أن هؤلاء كانوا من أتباع المذهب ومحسوبين على الدولة الرستمية.

أضف إلى ذلك أن ابـن طولون قد أرسـل قبل رحيله من بـرقة إلى زعيم جبل نفـوسة يدعوه إلى الطاعة، ويتوعده إن لم يجبه إلى طلبه. لذلك تلاقت رغبة الطرفين في درء الخطر الطولـوني، ودليل ذلك أن الأمير الأغلبـي كان يقاتـل ابن طـولـون لوحده قبـل أن يصل الأخير إلى طرابلس، وهـذا ما يفصح عنه ابن الـداية بقوله:(فلما كان اليـوم التالي وصلت جيوش نفوسة وعدتها اثني عشر ألفاً من الأباضية)(٣٧).

ويبدو أن هذا الاتفـاق كان مؤقتاً، بدليـل أنه بعد مرور ستـة أعوام على ذلك الحادث قام الأغالبة بالاعتداء على جبل نفوسة أيام الإمـام أبي حاتم يوسف بن محمد الذي خلف والده أبو اليقظان سنـة ٢٨١هـ/ ٨٩٤م. وقتلوا عدداً من رجاله، ولعـل الأغالبة وضعوا في اعتبارهـم بأن يكـونوا على بـوابة مصر، وأن يبسطـوا سلطانهم على تلـك البقاع حتـى لايفكر الطـولونيين في الاعتـداء مرة أخـرى، وربما استأنسـوا من أنفسهـم القوة فقـاموا بمعـركتهم الشهيرة مـع الرستميين عنـد مـوضع يقـال لـه(مانـو)، الأمر الـذي أدى إلى ضعفهم، ولم تقم لهم قـائمة بعد أن انهارت قبيلة نفـوسة التي كانـت تشكل درعها(٣٨) الـواقـي وبسبب الخلفيـة الفكـريـة الأباضيـة؛ التـي تصر على الـزاميـة مناصرة الـرعيـة لامامها(٣٩)، نتـج عن ذلك عدم الاهتمام في الجيش، إلى جانب مايـراه العلماء والفقهاء منهم، مـن أن وجـود الجيش النظامـي في الدولة يـرأسه أعلى سلطة فيها يـؤدي إلى فرض السلطة الفـردية، وبذلك يتحـول نظام الحكم مـن نظام دستوري جماعي إلى نظـام فردي مستبد، لعل هذا كان سبباً في ضعف القوى العسكرية(٤٠) عندهم، إلى جانب مانتج عن انكسارهم في المعـركة من إشاعة الفـوضى، الأمر الذي أدى إلى ضعف بنيتهـا السياسية والعسكرية، مما أسرع في زوالها فيما بعد.

أما علاقاتهم مـع الدول الأخرى، فلم تكن بمثل مـاكانت عليه مع دولة الأغـالبة من التشابـك والتعقيد، فكـانت عـلاقاتهم مـع بني واسـول المداريين بسجلماسة، تقـوم على الصداقة لوجود كثير من نقاط الالتقاء بين المذهبين الصفري والأباضي إلى جانب الزواج السيـاسي، فقـد تـزوج مـدراراً بـن اليسـع الصغـرى مـن أروى ابنـة عبـد الـرحمن بـن رستـم(٤١)، وكان لهذه العـلاقة أثـرها الـواضح في تيسير السبـل التجاريـة للأبـاضيين الذاهبين إلى السودان.

أما علاقاتهم مع الأدارسة فقد اتسمـت بالمرونة مابين الحرب والسلم(٤٢). ولكنها لم تأخـذ المدى التي اتخذته مـع الأغالبة، لاسيما وأن فـرقة الواصليـة—الذي كان يعـد عبد الحميد الأروبي زعيمها— كانت تمارس حياتها في المجتمع التـاهرتي مثل غيرها من الفرق الاسلامية الأخرى.

وارتبطت الدولـة الرستمية بمصر ارتباطاً وثيقـاً عن طريق التجارة إلى جـانب وجود عدد من علمائها، أبرزهـم: شعيب المصري الذي شارك بفتنة ابن فندين.

أما عـلاقاتهم مـع الأمويين في الأنـدلس، فكـانت تـربطها العـداوة المشتركة للـدولة العباسية، ولكن التقـارب فيما بينها لم يصل إلى درجة التحالف الفعلي ضـد أعدائها، وإنما أقصـى مـاوصـل إليـه تبـادل السفـارات والهدايـا، فضـلاً عـن الصـلات التجـاريـة والاقتصادية(٤٤)، حيث كانت تتردد السفن بين وهران والمرية حاملة العلماء والمسافرين إلى جانب البضائع التجارية، وكثـرت وفود الاندلسيين إلى الحاضرة تيهرت(٤٥)، وكان

من أبرزهم عمران بن مروان الأندلسي، ومسعود الأندلسي، اللذان رشحهما عبد الرحمن بن رستم في جملة من اختارهم للإمامة من بعده، إضافة إلى حادثة ابن حفصون التي دلت على وجود الأندلسيين في تيهرت، وعلى تعاطف الأئمة الرستميين مع بني أمية بالأندلس إلى جانب ماقام به ابن رستم سنة ٢٠٧هـ-٨٢٢م بزيارة ودية إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم الذي أكرم وفادته.

وبالجملة توطدت العلاقات بين الطرفين في عهدي الأميرين عبد الرحمن الأموي وعهد أبي اليقظان الرستمي الذي كان يعد من الأئمة الأواخر في الدولة الرستمية الأمر الذي جعله يعرض الكثير من أمواله على الخليفة الناصر لأخذ رأيه فيها(٤٦).

وفي إطار الولاية للدولة: تفنن الأئمة في اختيار الولاة فلجأوا إلى سبر غورهم لمعرفة مدى رغبتهم بالولاية وزهدهم بها، فقد قام الإمام عبد الوهاب بسبر غور الوالي مدمان الهرطلي بأن أرسل له كتابين، تضمن الأول العزل، ويتضمن الثاني التثبيت، فلما عرض عليه الكتاب الأول وافق على ماجاء به، عندها سلم له كتاب التثبيت على الولاية بعد بيان حسن نيته(٤٧)، إلا أن بعضهم رفضها وطلب اعفاءه منها، فوافقه الإمام على طلبه، فقد طلب والي جبل نفوسة أفلح بن العباس، من الإمام عبد الوهاب بن رستم اعفائه من ولايته فوافقه على ذلك وعين بدلاً منه أبو منصور النفوسي التندميرتي(٤٨).

ومن ولاته في الجهات الشرقية من دولته، سلام بن عمرو اللواتي، واليه على سرت وماحولها، وسلمة بن قفطان الزراغي واليه على قابس ونواحيها، ووكيل بن دراج النفوسي من بني يخلف على قفصة وما حولها، وأبو يونس وسيم النفوسي التمزيني واليه على القنطرارة وحاضرتها تيجي، وأبو عبيدة الجناوني، وأيوب بن العباس، والسمح بن أبي الخطاب، وأبو منصور النفوسي التندميرتي محل هؤلاء ولاته على جبل نفوسة والعلامة مدراراً واليه على جبل دمر.

أما الولاة الثلاثة، بيران اليزميرتني المزاتي، وجارون القمري الزناتي صهر الامام، ونهدي بن عاصم الزناتي فلم نعرف ولاياتهم.

أما ولاته في منطقة الأوراس، وشمال تيهرت وغربها وشرقها، وفي تبلغمت، والأغواط، وجبال راشد(جبال عمور) الآن، ورجلان وتيقورت، فلم تكشف لنا المصادر عن الولاة الذين عينوا في هذه الولايات، ولعل هذا راجع لضياع عدد من الكتب التي كانت في مكتبة المعصومة مما جعلتنا نفتقر إلى هذه المعلومات(٤٩).

ويبدو أن الأئمة الرستميين مالوا إلى تعيين ولاة جدد عند توليهم الإمامة، فالإمام أفلح ابن عبد الوهاب قام بتغيير ولاة أبيه ولم نعرف السبب، ولكن طالما أن الوالي يمثل الإمام في ولايته، فربما لم يرض عن البعض منهم أو اقتضت الظروف تغييرهم، فقد عين سعد بن أبي يونس على قنطرارة، وميال اين يوسف على قبيلة نفزازة، وأبوالعباس بن

أيوب على جبل نفوسة بدلاً من أبي عبيدة عبد الحميد الجناوي، ثم استبدله في أواخر أيامه بأبي ذر إبان بن وسيم النفوسي المشهور بالفتيا، والذي لم يمارسها إلا بعد أن رخص له شيخه أبو خليل بالافتاء بقوله:(افت يابن للناس بالرخص، فإن لكل زمان نذير، وأنت نذير زمانك)(٥٠).

وهذا دليل على الاهتمام بصفات الوالي الذي كان يجمع إلى جانب معرفته في الإدارة، العلم والورع ليتسنى له حل قضايا الناس ومشاكلهم، فهو في ولايته بمثابة الإمام في الدولة فالإمام أفلح وجه كتاباً إلى واليه ميال بن يوسف، يطالبه فيه بالتحلي بالصفات التي كان يتحلى بها السراة من الأباضية السابقون له، الذين كانوا يقضون على الفتن وهي في مهدها، وعلى البدع قبل انتشارها، خوفاً من بلبلة الفكر وتشتيت صفوف الأئمة قصد الحفاظ على وحدتها(٥١).

وجعل ولاته يراقبون بعضهم بعضاً، بارسال التقارير إليه، عما يقوم به بعضهم من أعمال الشغب والفتن في ولاياتهم، فقد أرسلوا له كتاباً بحق الوالي ابن فندين، يصفون فيه مايفعله وأعوانه من أعمال الشغب والفتن، وقد أشار إلى ذلك النفوسي في كتابه الأزهار بقوله:(...فكثرة الكتابات في حقه إلى الإمام من عماله وغيرهم ممن ائتمنهم توخصهم بمكانته وأخباره بأحوال الولاة والعمال والرعية في الجهات...) مما دعا الامام أفلح إلى أن يرسل له كتاباً يتوعده فيه ويتبرأ منه، والكتاب يخلو من البسملة والصلاة على النبي لأنه كتاب تهديد ووعيد ومما جاء فيه:(...ثم قلت إنا أمرنا في كتابنا بالبراءة منك فإن كنت كما كتب إلينا عمالنا فأنت محقوق بالبراءة ومقصي من جماعتنا لأننا ماكتبنا كتابنا ذلك إلا على أن كل من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا وزعم أن عمالنا أساقفة وأنهم لاطاعة لهم في حال كتمانهم فهو محقوق بالبراءة ومقصي من جماعة المسلمين. فإن تكن أنت منهم الذي ابيحت لنا البراءة منك. وأحللت بنفسك مالا بدّ لنا أن نفعله بك وبغيرك. وإن لم تكن كذلك فاظهر الانتفاء من ذلك وكذب عن نفسك ماقيل عنك لتكون عندنا بالحالة التي تستحقها وتستوجبها)(٥٢).

وقد يكرم الإمام أحد ولاته بتميزه عن غيره بأن يسند إليه في منصبه شخصاً يقوم بمساعدته، ويشاركه الرأي في المعضلات التي تواجهه يسمونه عندهم بـ(المزوار) المتفقة بالأمور الشرعية وغيرها، من هؤلاء الولاة؛ الوالي السمح بن الخطاب الذي ميزه الإمام عن غيره بهذا المنصب، وجعل معه مزواراً(٥٣).

ونهج الإمام عبد الرحمن ومن تلاه من الأئمة، منهج الاختيار للقضاة، فكان يعين في هذا المنصب ممن اتصفوا بالورع وسعة المعرفة والتقيد بالأحكام الشرعية، مع الاهتمام برغبة الشراة(٥٤) من أبناء المناطق المراد تعيين قضاة فيها، لتسهيل مهمتهم والتعاون معهم في تطبيق الأحكام. فقد حدث أن اختار الشراة أيام الامام أفلح (محكم الهواري)

الساكن بجبل أوراس ليكون قاضياً عليهم وأبلغوه باختيارهم، فرد عليهم قائلاً: «هو رجل نشأ في البادية لايعرف لذي القدر، قدره، ولالذي الشرف شرفه، وإن كان ليس منكم أحد حب أن يظلم ولايظلم، ولكن تحبون أي يجري فيكم الحقوق على وجهها بلا نقص لاعراضكم وامتهان لأنفسكم». وهذا يدل بوضوح على رغبته التي تتفق مع رغبة الخليفة عمر بن الخطاب في تعيين القضاة من البيئات التي نشأوا فيها، ولكن اصرار الشراة في تعيينه دون سواه، جعله يوافق على ذلك، فكتب وكتب معه الشراة إلى (محكم الهواري) كتاباً تضمن تكليفه بالقضاء جاء فيه: «بعد البسملة، أما بعد فإنه قد نزل بالمسلمين أمراً لاغنى بهم عن حضورك، وهم منتظرون لقدومك ولايسعك فيما بينك وبين الله عن اللحوق بهم والاجتماع معهم، ليجمع رأيك ورأيهم على مافيه صلاح المسلمين». (٥٥)

ولما وصل الكتاب إلى (محكم)، حاول التهرب من التكليف، وعبر عن ذلك بقوله: «إن الحق مر أمر من شرب الدواء إلاكرهاً، وأنتم مترفون أبناء نعم، وغيري أحب إليكم مني، نصحتكم فاقبلوا نصيحتي» (٥٦). وفي قوله مايطابق قول الإمام، لكن اصرار الشراة جعله يوافق، فأنزلوه دار القضاء، وعينوا له خادماً يقوم بخدمته.

وفعلاً صدق ظنهم فيه بدليل أن شقيق الإمام أبا العباس وخصمه تحاكما عنده، بعد أن اعتذر الإمام أفلح عن البت في الخصومة لمكانتها عنده، وحبها إليه فحكم القاضي (محكم) لخصم شقيقه أبي العباس (٥٧)، مما ثار ثائرته فاشتكاه لشقيقه الإمام، فقال له الإمام: «ياأبا العباس قد كنت أعلمتك بهذا من قبل، والصواب مافعل والحق أولى أن يؤثر، ولو فعل غير هذا لكان مداهناً» (٥٨).

وجرت العادة في تعيين قاضي الحاضرة أن يؤخذ رأي مشايخ الأباضية وغير الأباضية ممن هم في الحاضرة، شريطة أن يكونوا من كبار القضاة بعلمهم وتقواهم وضبط أحكامهم، فكان قاضي الحاضرة أيام الإمام أفلح عمروس بن فتح الله النفوسي، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ، الذي أعيد إلى هذا المنصب أيام الإمام أبو بكر بن محمد (٥٩).

وعُرف عن قضاة الحاضرة إلى جانب علمهم ونزاهتهم نباهتهم وحسن ذكائهم، فالقاضيَ عمروس بن فتح الله النفوسي، عندما عرض عليه قضية متاع تخاصم فيه اثنان، قام على الفور بحجز المتاع وسؤال كل منهما على حده، ولما تبين له من استجوابها صاحب المتاع حكم له.

أما عن النزاهة، فقد كان أحد أولاد الإمام أفلح غير محمود السيرة، وكان قاضي الحاضرة أبو عبد الله محمد، وفي أيامه وقع ابن الإمام بمشكلة أخلاقية باعتدائه على فتاة تقدمت أمها بظلامتها للقاضي، فقام القاضي وأعوانه في البحث عن الفتاة، ولكنهمَ عجزوا عن العثور عليها، عندها قدم استقالته لأنه أدرك عجزه عن القيام بمهمته. (٦٠)

وبـالجملة كـان القضاة في الجرائم التـي تستوجـب الحدود كـالقتل والسرقـة والزنـا، وشرب الخمر، يمكنـون المتهم من الـدفاع عن نفسـه، وبيان حجتـه، فإن ثبتت جـريمته حكموا عليه بحكم الله، وينفذ الإمام في الحاضرة وولاتـه في الولايات حكم القضاء دون التهاون فيه، بغية إقامة ا لعدل ونشر الأمن في أرجاء الدولة(٦١).

أما عن مجلس المظالم، فقد تنوعـت أغراضه، فإذا كـان الغرض منه مناقشـة أصحاب الفكر المغـالين بأفكـارهم، عقـد لهم مجلس يضـم ذوي الاختصاص، لمنـاقشتهم، والـرد عليهم، ففي زمن الإمام عبد الرحمن بن رستم، كان يعقد كل يوم في المسجد الجامع مجلساً للبحـث في قضية مـن القضايـا، فيجلـس على وسادة مصنـوعـة من الجلـد، يقابلـه ذوو التخصص في المسألة المطروحة للبحث، ففي القضايـا الفكرية، كان يقابله رجل من كبار قبيلة نفـوسة واسمه عيسى بـن فناس، ورجل من كبـار قبيلة هوارة يكنى بـابن الصغير، امتاز عن عيسـى بغزارة علمه، وعرف عيسـى بكثرة ورعه عنه، وبين يـدي الامام وجوه النـاس، كـان أدناهم منـزلة رجل مـن العرب واسمه محمـود بن بكر، ورجـل من العلماء البارزيـن اسمه عبـد الله بن اللمطـي الذي عـرف بكثرة تـأليفه وحسـن مناظـرته لعلماء المعتزلة وغيرهم من الفرق المغالية، يرد عليهـم مبيناً غلوهم، فكان بعمله يعد المدافع عن المذهب(٦٢).

أما إذا كانـت القضية سياسية، ضم المجلس رجـال السياسة لمناقشتها وبيـان مضارها من فوائدها، وإذا كانت ادارية، جمع لها الإداريين المحنكين، وإذا كانت حربية جمع لها قادة الحرب، وإذا كانت صناعيـة أو فلاحية جمع لها من أرباب الصناعة والفـلاحة، إلى جانب ندمـائه الذين يسـاعدونه في حل المشـاكل وتطبيق الأحكـام عليها، فهم بعملهـم يعدون ظهيراً له(٦٣).

وقد تصله ظلامات مـن القرى النائية مكتوبة باللغة البربـرية، فيقوم المترجم بترجمتها للغة العربية(٦٤) واصـدار الحكم فيها، وكان من أبرز المترجمين أبـو سهل الفارسي الذي يعد من أبناء الطبقة السابعة، من علماء الأباضية.

أما الحواضر وشبـه الحواضر فيبعث أهلها شكايـاتهم في ولايات الدولة بصحبـة عدد من رجال المجلس(٦٥)، فإذا قدمت إليه شكايات قام بالحال في عقد مجلس لها للبت فيها في نفس المكان.

أما الحسبة، فلم تكن مقصورة علي موظفيهـا فحسب، بل شاركهم في مهامهم الشراة، وهم بمثابـة أهل الحل والربط عنـد أهل الجماعة، وهم مجموعـة من الرجال بلـغ عددهم الأربعين أو يزيـد قليلاً، وهـؤلاء اشتروا آخرتهم بـدنياهـم بمعنى أنهم تخلـوا عن الـدنيا وعاهدوا الله على انكار المنكر والأمر بالمعروف بدون مبالاة أو خوف، ولو أدى بهم الأمر إلى القتال(٦٦)، *فهم يمتحنون الأئمة والولاة ويسبرون غورهم ويعطون رأيهم فيهم من*

خير أو شر، وحكمهم عند الرعية لايناقش لثقتهم بهم وعلمهم باخلاصهم لدين الله وتطبيق شرائعه، ويشاركهم في علمهم العلماء والفقهاء، فالعالم أبو عبيدة عبد الحميد الجناوي أبرز علماء جبل نفوسة أخبر الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم عما فعلته خيله ودوابه من فساد في مزارع وأشجار أهل الجبل بسبب اهمال رعاته أثناء مروره من الجبل لتأدية فريضة الحج قائلا له:«ياأمير المؤمنين قد أذيت الضعفاء والفقراء واليتامى بخيلك لاهمالك رعاتك فكفها عن المضرة والا حال بيننا وبينك هذا، يعني السيف»(٦٧). فأعجب الإمام بقوله وشكره على حرصه واهتمامه بأملاك المسلمين وعينه فيما بعد والياً على الجبل.

وبالجملة فقدكان رجال الحسبة عندهم شأنهم كشأن غيرهم من دول الاسلام، يقومون باظهار المعروف عند زواله، وإزالة المنكر عند ظهوره، وتعددت اختصاصاتهم حتى شملت جميع مناحي حياة الأئمة، فكانوا يراقبون الحمالين الذين يحملون الدواب فوق ماتطيق، ويمنعون أصحاب الحرف من إقامة مصانعهم في المدينة حتى لاتضر سكانها، ويهبون لنجدة كل ملهوف، ويضربون على يد الظالم، لهذا كان الأئمة يختارون لها رجالاً ممن عرفوا بالصرامة والحزم والحرص على تطبيق أوامر الشريعة، وكان جهلهم من أهل نفوسة الجبل الذين نزلوا في الحاضرة تيهرت قادمين من الجبل، فلا عشائر له يحابونها، ولاأقرباء كثيرون ليغضوا الطرف عنهم عندما ينحرفون بأعمالهم عن أصول الشريعة(٦٨). وقد شاهدهم ابن الصغير أيام الإمام أبو اليقظان، فلخص أعمالهم بقوله: «...ثم أمر أبو اليقظان قوماً من نفوسة يمشون في الأسواق، فيأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، قالوا: «فإن رأوا قصاباً ينفخ في شاة ليوهم الناس بانتفاخ لحمها أنها سمينة عاقبوه، وإن رأوا دابة حمل عليها فوق طاقتها انزلوا حملها وأمروا صاحبها بالتخفيف عنها، وإن رأوا قذراً في الطريق أمروا من حول الموضع أن يكنسه»(٦٩).

ومن الجدير بالذكر أن بقايا هذا النظام مازال موجوداً في بلاد ميزاب جنوب الجزائر، يقوم رجاله بهذه المهمة بمحض اختيارهم دون أن يتقاضوا أجراً من خزينة البلدية، فيراقبون الباعة خوفاً من الغش أو الاحتكار، ويأمرون بنظافة الشوارع من الأقذار، واصلاح الطرق من الحفر، وترميم المباني المتداعية، وحراسة المدن والقرى خوفاً من اللصوص، أو دخول العابثين إليها من الدخلاء، ومراقبة الحمالين الذين يحملون الدواب أكثر من طاقتها وغير ذلك من الأمور الأخرى(٧٠).

وسلك الإمام عبد الوهاب في تعيين رجال الشرطة نفس المسلك الذي سلكه في اختيار رجال القضاء، فعين لها رجالاً اتصفوا بالأمانة وحسن الإخلاص في العمل، وفي عهد الإمام أبو حاتم انتشر الفساد بين أفراد الرعية، فشاع السكر فيما بينهم، وكثر وجود دنان الخمر والخوابي في البيوت، واقتنوا الغلمان اخداناً، وانتشر السراق وقطاع الطرق،

فاستدعى الإمام وجهاء الحاضرة ومشائخهم وأخبرهم بماهو حاصل، وطلب منهم اختيار رئيس للشرطة، لكي يقوم بقطع دابر الفساد الذي انتشر بين الناس بسبب الحروب، وكثرت الفتن، فأشار قسم منهم باختيار شخص اسمه نكّار كان قد قتل ابنه بين يدي الإمام، ورأوا من الواجب مواساته والتخفيف عما أصابه إلى جانب مااتصف به من سداد الرأي، وقسم آخر أشار إلى ابراهيم بن مسكين الذي له صلابة في الحق، لاتأخذه لومة لائم، فعين الاثنين رؤساء للشرطة، (فقاما بكسر الخوابي بكل دار مهما علت منزلة صاحبها، وضربا بالسوط، وسجنا كل مجرم وشردوا الغلمان الأفلات في رؤوس الجبال وبطون الأودية، وحملا الناس على الجادة، فخاف المنافق، وأمن البريء، وشرد السراق وقطاع الطرق، وأمنت السبل، وسار الناس إلى بعضهم بعضاً، في أي وقت من الأوقات دون خوف أو وجل)(٧٢).

أما في طرابلس وجبل نفوسة وماتلاهما من المناطق، فلم يستطع الإمام أن ينشر الأمن فيهما مثلما كان بالحاضرة، وشغل الناس ببعضهم، ولم يقدروا على مساعدة الإمام أثناء حروبه مع الأغالبة(٧٣).

ولم تقتصر رئاسة الشرطة في الحاضرة على شخص يعين من أبناء الرعية، وإنما تجاوزتها إلى تعيين رئيس لها من أبناء الأسرة الحاكمة، ففي زمن الإمام أفلح، كان أخوه أبو اليقظان يقوم بتفقد الحراس ليلاً، فيعمل على ترتيبهم وتجهيز دوابهم، ويأمرهم بمراقبة الطرقات والضرب على أيدي المفسدين العابثين، فإن حصل شيء، يخبر أخاه في صباح اليوم التالي بما حدث(٧٤).

وكان التدريب على القتال مهنة واجبة على كل فرد منهم، حتى الصبية كانوا يدربونهم على الضرب بالقضبان بدلاً من السيوف اتقاء لشرها، حتى إذا مهروا في ضربها استخدموا الضرب بالسيوف، فكان مجتمعهم أشبه بثكنة عسكرية إلى حد ما(٧٥).

وولع الرستميون بتربية الخيل، وكان أمتع الألعاب لديهم لعب الفروسية والضرب بالسيف، وكان كل فرد منهم يظهر مهارته بها في كل مناسبة من المناسبات السارة والحربية، وكان من أبرز فرسانهم، بكر بن يبيب، وبكر بن عبد الواحد، وأيوب بن العباس. وهناك حوادث كثيرة دلت على ولعهم بالخيل، والتسلي بركوبها في أوقات الراحة، ففي أيام الإمام أبي الخطاب، كان جنده يتسابقون على ظهور الخيل في أوقات فراغهم، وفي يوم من أيام السباق، شاهدوا مايفعله عاصم السدراتي من فضائح بنساء القيروان عند غزوه لها، فأسرعوا إلى أمامهم أبي الخطاب يخبرونه بمايفعله عاصم وجنده، فقام أبو الخطاب بتجريد حملة عسكرية لانقاذ القيروان وهو يقول: «اللهم بيتك، اللهم بيتك».

ومن الأدلـة الأخرى الدالة على ولعهـم بفنون الحرب، ماطلبـه المعتزلة من فـارسهم أيوب بـن العباس بتعليم أبنـائهم على أساليـب القتال والضرب بـالسيوف، وماكـان من خـديعتهـم لـه ونجاتـه منهـم(٧٧). وكـانـوا يصفـون كل مـن يقـدر على حمل السـلاح ولايمتشقه بالنقص في الذكورية(٧٨).

ومن طرق القتـال عندهم تشكيل الصفـوف المتراصة وربط أرجلهم بعضهـا ببعض، وأخذ العهد على أنفسهم بعدم الفرار، وكانـوا في قتالهم يدورون مع المعركة حيث دارت، وسمي هـذا النوع من القتـال عندهم بمعـارك (الربد)(٧٩). وقـد يستدرجون عـدوهم لاقامة المعركـة بالقرب من الجبال ليستعينوا بها في التغلـب عليه لاسيما وإن معظمهم من سكـان الجبال(٨٠). ومـن عـادتهم في الحرب، عدم متـابعة العـدو أثنـاء فراره، وعـدم الاجهاز على الجريح(٨١).

وشارك العلماء اخوانهم المقـاتلين في ميدان القتال، واصطحب الجيـش النساء بغرض التشجيع والقتال في المعـركة إن لزم الأمر، والدليـل على ذلك ماحدث في معركـة (مانو) بالقـرب من مـدينة قنطـرارة المسماة اليوم بـ(تيجي) الـواقعة على جبـل نفوسـة في القسم الشرقي من حـدود الدولة، حيث قتـل منهم أربعمائة عالم وأسر ثمانين. أما النسـاء اللواتي صحبن الجيش فقد أوكلـن زواجهن لبعضهن بعضاً، فيما إذا وقع على احداهـن سطو من جند بني الأغلب، تقوم موكلتها بزواجها، خوفاً من الفسق بها.(٨٢)

واستخدم الجيـش طبولاً مصنـوعة أطرهـا من الخشـب أو النحاس ومغطـاة بجلود الأبعرة التي تشبـه بسمكها سمك الرق، يضربونها بعقـال من وبر يسمع على بعـد مسافة تقدر بالمشي على الأرجل ب أربـع ساعات، ولهم في ضربه طرق معروفـة لديهم يستدلون بها على الغرض المطلوب، فبمجـرد سماع الواحد منهم صوته يعـرف المراد منه؛ أما النفير أو وقف القتال في المعركة، أو إقامة الصلاة، فكان يضرب ضربات معينة تدل على دخول وقـت الصلاة، فيتـوقـف الجيش عـن السير، ويـؤذن المؤذن للصلاة، فيصلي بهم الإمـام ركعتي السفر، ثم يضرب الطبل ثانية بعد انتهاء الصلاة ايذاناً للرحيل(٨٣).

الحياة العلمية:

تمتع الأئمة الرستميون بثقافة عالية، فكان الإمام عبد الرحمن من جملة حملة العلم الخمسة التي قدمت إلى المغرب، وبفضل علمه لابفضل حسبه نال الإمامة(٨٤)، أما ابنه الإمام عبد الوهاب، فكان له من الخلوات العلمية الخاصة إلى جانب المجالس العلمية العامة، مما جعل طلبة العلم يتهافتون عليه للأخذ منه، مما علا من شأنه بين الناس وحفظ له مركزه كإمام للأباضية الرستمية(٨٥)، فإلى جانب ممارسته للتدريس، شجع الحركة العلمية في البلاد، وجلب إلى مكتبة المعصومة الكتب من المشرق في مختلف العلوم والفنون، كما شجع حركة التأليف، بتأليفه كتابا سماه(نوازل نفوسه) وهو مجموعة من الفتاوى التي كان علماء نفوسه يستفتونه بها، ويلاحظ من أسلوب الكتاب الفصاحة وحسن التمكن وعمق المعرفة في الشريعة، وكان يرسل الوفود إلى المشرق لشراء الكتب، فقد أرسل وفداً إلى الصرة مقر المذهب وأعطاه ألف دينار، لكن الوفد اشترى بالمبلغ ورقاً وأخذوا ينسخون عليه ماوجدوه من الكتب. ولكون مايكتبون عليه رقاً بخط عريض وكبير على طريقة الأوائل في الكتابة لذا فإن قطع الرق ملأت ثمانين غرارة—كيساً— ويبدو أنها وصلت صيفاً مما دعا الإمام إلى القيام بدراستها قبل حلول الشتاء، لأنه كان يخلع ملابسه ولايبق على جسمه سوى السروال ليزداد نشاطاً(٨٦).

أما ابنه أفلح فكانت ثقافته متنوعة، فإلى جانب فهمه لأصول العقيدة الإسلامية، كان بارعاً في الأدب والرياضيات، لكنه لم يتقن باباً من أبواب المعاملات وهو البيع والشراء الاتقان التام من وجهة نظرهم، لأنه أغفل مسألة من المسائل المختصة بالربا والبيع والشراء، أثناء مناقشة أبيه الإمام عبد الوهاب له، فمنعه من الذهاب بتجارة إلى بلاد السودان قائلاً له:«ارجع حتى تستعد لهذا الأمر وإلا أطعمتنا الحرام من حيث لاندري فرجع»(٨٧).

كما برع في قرض الشعر، من قصائده التي نظمها يحث فيها الطلبة الذين ينشدونها في المناسبات، حتى أصبحت من الأناشيد الوطنية عند أهل ميزاب، مطلعها:

العلم أبقى لأهل العلم آثاراً يرك أشخاصاً روحاً وأبكارا

أشدد إلى العلم رحلاً فوق راحلة وصل إلى العلم في الآفاق اسفارا

واصبر على دلج الأغساق معتسفاً مهامه الأرض أحزاناً وأقطارا حتى تزور رجالاً في رحالهم فضلاً فأكرم بأهل العلم زوارا ويستمر في قصيدته داعياً طلبة العلم إلى اعمال عقولهم لفهم مايحفظون ويرشدهم إلى التربية النفيسة والمران الذهني فيقول:

وأحسن الكشف عن علم تطالبه والزم دراسته سرا واجهارا ويطالب بحسن الانتقاء في اختيار تعلم العلوم فيقول:

فاطلب من العلم ماتقتضي الفروض به
واعمل بعلمك مضطراً ومختاراً واطلبه ماعشت في الدنيا

ومدتها لموقف العرض أن لاتورد النارا واجعلـه لله ولاتجعله مفخرة ولاترائي به بدوا واحضارا وهـذين البيتين الأخيريـن يدلان على انسجام نظرة ا لأئمـة للعلوم مـع هدف الدين الحنيف.

أمـا أخت الإمـام أفلح، فقـد برعـت في العلـوم الشرعية واللغـوية إلى جـانب علـم التنجيـم(٨٩)، وبرع الإمـام يعقوب ابـن أفلح بـالعقـائد السماوية الأخـرى إلى جانــب العقيدة الاسـلامية، فحفظ الانجيـل والتوراة إلى جانب القـرآن الكريم، وكـان يستخدم علمه بما يتناسـب مع متطلبات حياتـه، فقد عرض عليه أهـل مدينة «ورجلان» الإمـامة أثناء دخوله المدينة فاراً من الفاطميين، فقال لهم قولاً مشهوراً أصبح مضرب المثل:«وهل يستتر الجمل بالغنم»، وهذا يدل على حسن تقديره للأمور(٩٠).

أما الامام أبو اليقظان محمد فقد كـان يدرس في حلقات ثلاث أنواع العلوم المختلفة. وكانت مسـاجد حواضرهم عـامرة بالعلماء، ومسجدهـم الجامع بالعاصمـة تيهرت كان مجمعاً لأهل العلم، تعقد بـه المناظرات بين الفرق، وكانت كل فرقـة تود الاجتماع بالفرقة المخالفة لها في المذهـب لتطلع على ماعندها، وامتـازت الفرق الاباضية عـن غيرها بلطف المناظرة(٩١).

وإلى جانب المناظرات العلمية، وفدت وفـود طلابية من المغرب إلى عُمان لتلقي العلم من العلماء العمانيين، ويصف أبو سعيد الكدمي ذلك بقولـه:«كان من العلامة ابن بركة في بهلا(٩٢)، وكان ابـن بركـة غنياً اشتهـر بغناه وكـان غناه ظهيراً للعلـم، ولذلـك يقصده الطلبة من عمان وغيرها، حتى قيل: ان الطلبة المغاربة كانوا لايفقدون من مقامه»(٩٣).

وعقدت حلقـات الدرس التـي يدرس فيها العلـوم المختلفة، فيجـد الطلبة فيهـا كل مايـريدون من مختلف أنـواع العلوم إلى جانب العلـوم الشرعية من تفسير وحديـث وفقه وأصـول، بـالإضافـة إلى العلـوم التطبيقيـة من فلـك وطـب وكيميـاء، وصناعـة أدويـة ورياضيـات ولم يقتصر الأمر على الطلبة فحسـب، بل تعداه إلى كـل فرد من أفـراد الأمة، فعمدوا إلى تعليم العبيد والإماء، وبخصوص الإماء ذكر الشماخي، إن إماء نفوسة كن إذا وردن إلى الغابـة للاحتطاب يتـذاكرن بمسائل كتب الإمـام الفقيه(ماطـوس) في الشريعة الإسلامية(٩٤)، أما الحرائر فكـن إلى حد ما أكثر معرفة بأسرار اللغة العـربية والدراية في العديد من الفنون، خاصة الفقهية منها، والتي تتماشى مع مايتطلبه المذهب.

ويبدو أن رعاية الأئمة للعلوم جعل منها مطلباً جماهيرياً، وهذا ماأشارت إليه المصادر الاباضيـة في بعض الحقب الـزمنية، بأنـك لاتجد قرية مـن القرى إلا وفيها مـن يفتي بها، وربما كان في كثير مـن المساكن من تمتع أهلها بوجـود علماء فيها، يقومـون بتعليم ذويهم وغيرهم مـن الناس، ويحلون لهم مشاكلهـم سواء كان منها مـايتعلق بالشعائر الـدينية أو المعاملات.

أما الخطباء، فكان من أبرزهم ابن أبي ادريس، وأحمد التبه، وأبو العباس بن فتحون، وعثمان بن الصفار، وأحمد بن منصور، والذي قال عنهم المؤرخ ابن الصغير بأنهم جميعاً كانوا يستعملون خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، باستثناء خطبة التحكيم، لكن الخطيب أحمد بن منصور كان قد شذ عنهم، وخطب خطبة التحكيم الذي بدأها:«الحمد لله الذي نستعينه ونستغفره ونؤمن به ونستهديه ونستنصره ونبرأ من الحول والقول إلا إليه.. —إلى أن يقول— اللهم أرض وصل على الخليفتين المباركين بعد نبيِّك أبي بكر وعمر إمامي الهدى بما عملا به من كتابك، وماأثراه من نبيّك... إلى أن يختم الخطبة بقراءة سورة(الاخلاص) وبعد اتمامها ينزل عن المنبر(٩٦).

وتمتعت المدن الاباضية في الشمال بازدهار علمي بفضل وفرة العلماء بمختلف التخصصات من هذه المدن: تنس، والخضراء، وافكان، وبني واريغن، وستغانم، وقلعة هوارة، ووهران، وتامزغران، وتاغربيت، والغزة، واوزكي ومعسكر ، وشلف، والرها، وقصر الفلوس، وبيّل، ومدينة جبل توجان، وجبل لازغ، حيث برز فيها عدد من العلماء، كان من أشهرهم يهود بن قريش التاهرتي، الذي كان متطلعاً في عدة لغات منها، البربرية والعربية والعبرانية والأرمنية والفارسية، مما أهله بأن يصبح مرجعاً يرجع إليه بما يسمى الآن بالبحث المقارن في اللغات، وانشاء أسس النحو التنظيري(المقارن) في الجنوب من الحاضرة تيهرت، وجد عدد من العلماء في مدينة تاجمون، وتاويلا، والأغواط، وورجلان، عروسة الصحراء، وأكبر حواضر المغرب وأغناها مالاً وعلماً.

أما المدن الشرقيةمن مثل: توزر، ونفطة، وقابس، وجربة، كانت تزخر في العلماء، وكان من أبرزهم(محكم الهواري) وابنه هود، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله، وأبو اليقظان، وعبد الله اللمطي، ومحمد بن بكر، وزكريا بن بكر الغساني، وابراهيم بن عبد الرحمن التنسي، وأبو سهل الفارسي، وأبو يعقوب يوسف بن سيلوس السدراتي، الذي أوصى ابنه فأحسن الوصية فقال:«لايكن ندبك إلى الناس أوكد من ندبك لنفسك، ولايكن غيرك أسبق إلى الخير منك، وكن للناس كالميزان، وكالسيل للأدران، وكالسماء للماء»(٩٩). وهناك مدن كانت حلقة وصل بين علماء المشرق وعلماء الاباضية في مختلف أرجاء الدولة لقربها من الحدود مما سهل على علمائها الرحيل للشرق والاختلاط بعلمائه منها: زواغة، ولبدة، وتاورغا، وسرت، وودان، وفزان ، وزويلة، وغدامس.

أما جبل نفوسة، فقد ضم مئات القرى وعشرات المدن المزدهرة بالعلم والعلماء، كان من أبرزها كياو، وتادلوت، ويفرن، وكان من أبرزها علماء هذه المدن، عالم مدينة جادو، الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينة شروس، والتي تعد العاصمة العلمية في الدولة الرستمية إلى جانب العاصمة السياسية تيهرت، أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني.

وكان لقرب الجبل(١٠٠) من المشرق وحصانته التـي حمته من اعتداء الدول المجاورة له لمدة طويلة مـن الزمن، واستقرار حملة العلم الخمسة فيه لا بـأس بها، قبل انطلاقهم إلى مناطـق المغرب الأخرى، كـان له أثر في تكـوين بـذور علمية نضجت وأينعـت فيما بعد، بفضل ماوجد فيه مـن علماء منهم، أبو عمران موسى بن زكريـا، وأبو عمر الشيلي، وعبد الله بن مانوح، وأبو زكـريا يحيى بن جرناز، وجابر بن سدرمـام، وكباب بن مصلح، وأبو مجبر توزين، الذي قاموا بتأليف موسوعـة اسلامية سميت بـ (ديوان الأشياخ) المكون من خمسة وعشريـن جزءاً،ولا يـزال قسم مـن هذه الأجـزاء مخطوطـاً بوادي ميـزاب جنوب الجزائر(١٠١)، إلى جانب مـؤلفات أخرى أهمها كتاب الايضاح) (١٠٢)، للشيـخ عامر النفوسي المكون من ثلاثة أجزاء، يبحث في الشريعة الاسلامية، وقناطير الخيرات، للشيخ اسماعيل الجيطـالي المكون مـن ثلاثـة أجزاء والشبيـه بكتاب علـوم الديـن للغزالي الـذي يتضمن كثيراً من المعلومـات من الفلسفة الاسلامية، وعلم النفـس، والأخلاق والدين، والأدب، وكتاب (الوضع)(١٠٣) لأبي زكريا الـذي بحث في الشريعة الاسلامية أصولاً وفروعـاً. وهناك العـديد مـن المؤلفات الأخـرى لكثير من العلماء، إلى جـانب المؤلفـات الشرعية وقدوم الدعاة مـن المشرق، كل هذا ساهم مساهمة فعالة في احـداث ثورة فكرية في المغرب كله أخصبها التنافس الفكري فيما بينهم وبين غيرهـم من أتباع المذاهب والفرق الأسلامية الاخرى، ونتج عـن هذا الاخصاب ملاحم فكرية مع السنـة المالكية والمعتزلة والشيعة الفـاطمية، فقـد غلب مـذهب مـالك على افـريقية وسـاد ماعـداه من المذاهـب الأخـرى، إلا أن رجال المذهـب مـن أباضيـة وصفـريـة؛ فقد تسللـوا إلى القيروان وإلى مسجدهـا الجامع، حيث أخذ فقهـاء الاباضية في ممارسـة نشاطهم في أفريقيـة إلى أن تولى القاضي سحنـون بن الفـرات منصب القضاء فيهـا، فحظر عليهـم وبدد حلقـاتهم وأخذ بملاحقتهم(١٠٤)، على خلاف الاباضية الذين رحبوا بفقهاء وعلماء المذاهب الاسلامية الأخرى، وأخذوا في منـاظرتهم، ولم يتعرضوا لأحـد إلا من اتصف بالغلـو والمروق عن الدين، ولما كان المذهب الاباضي أقرب المذاهـب لأهل السنة، فقد تحالف علماء السنة مع علماء الاباضية لمناوءة المذهب الشيعي، وظهر هـذا الائتلاف واضحاً في ثورة أبي يزيد بن مخلد بن كيداد.

أما المعتـزلة والواصليـة، فكانت مضـاربهم بالمغربين الأوسط والأقصى، وبلـغ عدد المقيمين منهم حول الحاضرة تيهرت مـايزيد على ثلاثين ألف من الـواصلية، وعلى الرغم من مـواقفهم السلبيـة من الـدولة الـرستمية فقـد حظوا بتسـامح دينـي إلى أبعد الحدود، فكانت المنـاظرات فيما بينهم لاتنقطع، وكان قطـب الأباضية عبد الله اللمطي لـه مواقف حميدة في جدال مع المعتزلة على نهر مينة خارج الحاضرة.

ويبدو أن المذهب الشيعي وجد طريقه إلى العاصمة تيهرت، ولكن اتباعه كانوا قلة رغم اسهاب المصادر الأباضية في الحديث عن المناظرات التي عقدت بين علمائهم وفقهاء الشيعة خاصة بعد سقوط الدولة سنة ٢٩٧/ ٩٠٩م. وكان من أبرز المناظرين يومذاك نوح بن سعيد بن زنفيل الأباضي الذي ناظر أبا تميم المعز لدين الله الفاطمي، ويستدل من هذه المناظرة على حصافة الشيخ واحترام المعز للعلماء(١٠٥)، ومما لاشك فيه أن المحاورات والمساجلات بين علماء المذهب الأباضي وشيوخ وعلماء الفرق الاسلامية الأخرى، قد أثرت الحياة الثقافية في بلاد المغرب كله، وهذا ماعبر عنه النفوسي بقوله:«...وكثرت الآراء والأقوال وانتحل البحث في المذاهب، وعظم الجدل حول مسألة الأمامة، فقام كل فريق يطلب الاختصاص بها، ويدعي أنه أولى وأحق بها، ويقيم على ذلك الحجج والأدلة»(١٠٦).

وكان لاجتهادات بعض المجتهدين أمثال فرج بن نصر المسمى(بنفاث) وتبني بعض الفقهاء أمثال يزيد بن فندين آراء الامامة المشروطة دور في تطوير الأساليب والمفاهيم الاباضية وسلك علماء المذهب مسلكاً حميداً في مساعدة الطلبة الفقراء، فكانوا ينفقون عليهم من خواص أموالهم، فقد بلغ عدد العلماء في بادية افريقية ممن ينفقون على الطلبة المحتاجين، اثنان وثلاثون عالماً، كان أبرزهم في الانفاق والايثار أبو عبيد(وشق)، وأبو زكريا الذي أنفق جل ماله على طلبته في سنين المسغبة(١٠٧).

وحث العلماء طلبتهم على التحصيل والدراسة، منهم أبو يحيى أحد علماء قابس الذي طلب من طلابه الصعودإلى مكتبة جبل دمر الموجود في مدينة تموسلت إحدى مدن الجبل، والذي قوى من عزيمتهم بقوله:«إن رجعتم إلى أهاليكم جاهلين ولم تدارسوا ماعزمتم عليه من الكتب فتكونوا علماء كنتم كمن ترك الاسلام عمداً»(١٠٨).

ونشط الأئمة ونشط معهم العلماء في ترجمة العلوم من اللغة الفارسية والرومية إلى اللغة العربية، مما أدى إلى تعلم اللغة العربية ليتسنى لكل من أراد الاطلاع على تراث اليونان والرومان والفرس وحكم الهند، فكان لابد له من معرفة اللغة العربية الفصحى، إلى جانب اتخاذها لغة رسمية في الدواوين لأنها لغة القرآن الكريم.

وعمل العلماء على نقلها إلى المناطق النائية عن طريق تدريس العلوم الشرعية، وشجع بعض المشايخ الناس على تعلمها، فقد قال الشيخ أبو زكريا النفوسي أحد مؤلفي ديوان الأشياخ بهذا الخصوص:«أن تعلم حرف من العربية كتعلم ثمانين مسألة من مسائل الفروع وتعلم مسألة من الفروع كعبادة ستين سنة، ومن حمل كتاباً إلى بلد لم يكن فيه فكأنما تصدق بألف حمل دقيقاً على أهل البلد»(١٠٩).

مما دفع طلاب العلم على مختلف مستوياتهم إلى الاعتكاف على دراستها وفهم نحوها ضبطاً لهم عند التحدث بها. لكن رغم ذلك فقد وجدت فجوات في مسيرة التعريب في

هذه الديار، ففي القرى الواقعة في المناطق النائية على رؤوس الجبال، كانت دروس الوعظ والارشاد تلقى باللغة البربرية قصد تعريف سكانها بالعقيدة الاسلامية ممن يجهلون اللغة العربية، إلى جانب تأليف المؤلفات التي كتبت بحروف عربية ذات مدلولات بربرية للاطلاع عليها عند الحاجة، كان من أبرزها كتاب(عقيدة التوحيد) (١١٠). الذ قام بترجمته للغة العربية الشيخ عمر بن جميع والذي يعد من أهم الكتب في علم الكلام.

ونتيجة لقلب الحرف العربي على الحرف البربري، فقد اندفع بعض البربر إلى الحنين للحروف البربرية في أيامنا هذه خاصة في بلاد ميزاب جنوب الجزائر إلى استخدام حرف الزين البربري في النقش، والطرز والنسيج وفي تزيين جبين المرأة والعروس به وهو على الشكل التالي(   )، ويبدو مثلا تغلب الحرف تغلبت الكلمة، فاللهجات البربرية المتداولة في أيامنا هذه في المغرب تأثرت بشكل كبير في اللغة العربية، ويمكننا القول بأنها عربية بشكلها ومضمونها إلى حدما، فيكفيك كي تصبح الكلمة العربية بربرية أن تضيف إلى أولها أل التعريف وإلى أخرها تاء فتصبح بربرية، مثال ذلك الوردة الوردت، وفي جملة عمر اسكن في الدار يحولونها إلى آعَمْرَغ تادرات)(١١١).

وهنا لابد من الحديث عن بعض الأدباء والشعراء الأباضيين، وكان من أبرزهم، بكر بن حماد التاهرتي الذي يعد من فحول الشعراء في المغرب في القرن الثالث للهجرة، والذي ولد في الحاضرة تيهرت سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٥م، ورحل إلى المشرق أيام شبابه والتقى بالشاعر دعبل، وعلي بن الجهم المتوفى سنة٢٩٦هـ/ ٩٠٨م. فأخذ عنهم وتأثر بهم، ورجع إلى المغرب الأوسط—الجزائر— بعد أن تم تحصيله، وأصبح من كبار شعراء الزهد في المغرب مثلما كان أبو العتاهية في المشرق(١١٢). من شعره في الزهد قوله:

لقد جمعت نفسي فصدت وأعرضت وقد مرقت نفسي فطال حروقها.

فياأسفي من جنح ليل يقودها وضوء نهار لايزال يسوقها وأبدى المنايا كل يوم وليلة إذا فتقت لأيستطاع رتوقها ويصبح أقوام على حين غفلة ويأتيك في حين البيات طروقها.

ومن شعره في رثاء ولده:

بكيت على الأحبة إذ تولوا
ولو أني هلكت بكوا عليا

فيا نسلي بقاؤك كان ذخراً
وفقدك قد كوى الأكباد كياً

ومن شعره في وصف برد مدينة تيهرت:

وماأحسن البرد وريعانه وأطرف الشمس بتاهرت.

ومنهم، أحمد بن الفتح بن خزار، وسعد بن أشكل التاهرتي، والإمام أفلح بن عبد الوهاب، والأديب البليغ بن هرمة وغيرهم مما لايتسع المجال لذكرهم وتتبع أشعارهم وأدبهم.

هذا ماقام بـه الأئمة والعلماء ورجال الفكر من جهود طيبـة على مستوى الدولة وعلى مستوى المغرب العـربي من نشر للثقافة الاسـلامية واللغة العربيـة والعمل الدؤوب على تعريب مراكـز الفكر والحض على تعلم اللغة لفهم أسرار العقيدة، ولم يكتفـوا بذلك، بل قاموا بجهود حسنة على المستوى الخارجي مما أدى إلى التلاقح الحضاري والانماء الفكري مابين رسـل الاباضية الممثلين بـالتجار والعاملين على نشر الاسـلام في الديار السـودانية التي يتـاجرون معها، فقد قـام أبو الحسن بـن علي بن يخلف التيمجاري النفـوسي بجهود حسنة في نشر الاسلام في بلاد السـودان سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م وبفضل جهـوده أسلم ملكها بعد أن كان وثنياً، كما قـام عامل نفوسة القاضي عمروس بن فتـح الله بارسال عدد مـن العلماء إلى بلاد زغـاوة فمكثوا عنـدهم مـدة طويلـة حيث طـاب لهم المقام، كما قـام تجارهم بدور إيجابي كبير في نشره في المنـاطق السودانية الواقعة إلى الجنـوب من الصحراء، وكـان عملهم مكمـلاً لعمـل عقبة بـن نافـع، وعبـد الرحمن بـن حبيـب، وعبيد الله بـن الحبحاب الذين عملوا على نشر الاسلام بأطراف السودان فكان عمل التجار دفعاً جديداً له للمزيد من الانتشار في الداخل، حتى استطـاعوا أن يوصلوا مبادىء الدين الحنيف إلى مايسمى اليـوم ببلاد غانة،وغينيا، وفولتـا العليا، وليبيرية، والتشاد، وداهومـي، وساحل العاج، وساحل الذهب(١١٣).

الحياة الاجتماعية:

تعـددت اللهجات واللغـات في المجتمع الـرستمي بتعـدد عناصر تكـوينه فكـان إلى جانـب اللغة العربيـة الفصحى والعامية البـدوية، اللغة الفـارسية، والبربريـة والحبشية، ويظهر هذا واضحاً في الكتـاب الذي أرسله الامام عبد الوهـاب، إلى المتمردين ضد والي جبـل نفوسـة أبي عبيـدة عبد الحميد الجنـاوني بـاللغـات التاليـة: العـربيـة، والبربريـة، والحبشية(١١٤)، لكن معظم المجتمـع الرستمي من البربر سواء كانوا مـن قبائل مكناسة وزناتة البترية، أو من قبائل صنهاجه وزويلـة ومسوفة ولمتونة البرنسيـة، التي اتحدت مع بعضها وكونت جـانب الأفارقة من السودان والعرب الذيـن لجأوا للدولة من المشرق أو من المغرب، وبقايا الروم والفرس واليهود كل هؤلاء كونوا الدولة الرستمية(١١٥).

فابـربر الزنـاتيون كانـت نسبتهم أكثر مـن البربر الكتاميين، فقبـائل زناتة البتريـة من مـاكسين، ورشفانـة ومغراوة، وبنـو راشد، وزقـارة اتخذت مـن السهول الـواقعة مـابين تلمسان وتيهرت مضارب لها، وقد عرف رجالها بركـوب الخيل وكرم الضيافة إلى جانب تميزهـم عن غيرهم بـوجود العرافـة بينهم ممن لـديهم خبرة بالاقتفاء والكيـاسة وضرب الكف(١١٦).

أما سكان جبل نفوسة ودمر، فكان بعضهم يعيش على السلب والنهب، ويسمون بـ(رهانة) وهم جماعة يركبون النجب من الإبل المعروفة بالسرعة والمضي في السير، يغيرون بها على القبائل العربية المجاورة لهم، ويعودون بالغنائم إلى مواضع سكناهم في جبل نفوسة(١١٧) ودمر، لكن البعض منهم وبالأخص من سكان السهول الواقعة مابين تلمسان وتيهرت مارسوا حياة الزراعة مثل قبائل البرانس من صنهاجه إلى جانب رعاية الماشية. وانشأوا العديد من القرى منها على سبيل المثال لاالحصر، قرية الغدير التي مكث فيها الباحث عاماً كاملاً، وقرى عديدة أخرى أنشىء بعضها على قمم الجبال، وبعضها الآخر في السهول والبطاح، إلى جانب المدن مثل، مدينة أوربي(١١٨) المسماة بالبربرية أزقي الواقعة على بوابة الصحراء القريبة من بلاد لمطة ومسوفة والبعيدة عن سجلماسة بمسافة تقدر باثنتي عشرة مرحلة وأكسية أهلها من الصوف المسمى عندهم بـ(القداور)(١١٩).

ويبدو أن نمط العيش أثر في سلوكياتهم، وقلل من التعمق في فهمهم لأصول الشريعة، فبدو جبل نفوسة، اتخذوا من ربط المساجد أمكنة لربط خيولهم، ومخازن لخزن حبوبهم قصد التبرك بها لاالاساءة إليها(١٢٠).

أما بقايا الروم ممن كانوا على دين النصرانية، فقد أسلم بعضهم بحكم اختلاطهم مع المسلمين وحسن اسلامهم مثل، أبو منصور الياس والي جبل نفوسة وأحد شيوخ الدعوة الذي كان من أصل نصراني(١٢١).

أما اليهود، فقد شكلوا على الرغم من قلتهم ثقلاً اقتصادياً كبيراً، لكن قيمتهم الاجتماعية في المجتمع مفقودة خاصة في البوادي، فقد ورد في ترجمة الشيخ أبو ذر أبان بن وسيم النفوسي، أن شيوخ الجبل شكروه لأنه رخص للنساء في ثلاث مسائل أفتى فيها، «الثالثة.. إذا عملت غزلاً قد صبغها اليهودي فسمته راين إن وضوءهن قد انتقض لمسه لأن اليهودي نجس، فقال لهن أيما امرأة مست صباغ اليهودي فليس عليها إلا غسل يديها، وليس عليها إعادة وضوء»(١٢٢). لكن الفرس كانت لهم منزلة تختلف عن غيرهم، فالأئمة يرجعون بأرومتهم إلى العنصر الفارسي حسب ماروى بعض المؤرخين، لذا اعتمدوا على الفرس الموجودين في الدولة، وأطلقوا أياديهم في المجالين الاقتصادي والسياسي بمنح زعمائهم اسمى المناصب منهم، ابن وردة صاحب القيصرية المسماة باسمه، فقد كان له حرس خاص بحرس قيصرته إلى جانب تمتعه بمنصب رئيس الشرطة(١٢٣).

أما العرب الذين هربوا من حكم بني الأغلب أو من الاضطهاد المذهبي في المشرق أو المغرب، فقد عمل بعضهم في التجارة، وبعضهم الآخر كان منضو تحت لواء معين كالواصلية مثلاً، وهي احدى فرق المعتزلة التي استقرت في المنطقة الواقعة في الشمال من تيهرت والممتدة من مستغانم إلى وهران، وفي المنطقة الواقعة إلى الجنوب من مدينة(تيلغمت)، وفي الصحراء وخاصة في مدينة العطفاء الواقعة إلى الجنوب من ميزاب، حيث توجد مقبرة المعتزلة الذي لازال أهلها إلى اليوم يحافظون عليها(١٢٤).

وبالجملة فقد تضافر أبناء المجتمع الرستمي في مساعدة بعضهم بعضاً بما تقتضيه سنن الشريعة من التكافل الاجتماعي، فإلى جانب الخدمات التي يقدمها بيت المال للمستضعفين من الناس، كان أغنياء الناس يقدمون قسطاً من أموالهم صدقة للفقراء والمساكين إلى جانب الزكوات التي يقدمونها بمواعيدها بكل أمانة واخلاص(١٢٥).

ويبدو أن اختلاط العناصر والأجناس المختلفة في المجتمع الرستمي ساعد بعضها بعضاً في تغيير بعض الأنماط المعيشية لبعض الفئات من المجتمع، فالبدو الأقل حضارة تأثروا بغيرهم من العناصر الأكثر تحضراً، فانتقلوا من بساطة العيش إلى الرفاهية، فبنوا القصور والأبنية الفخمة ذات القباب المرتفعة، والحمامات المتقنة، أما الفرس فقد اقتنوا الخيول، وزينوا القصور والبيوت بالستائر المزخرفة، وتنوعت الألبسة، وتعددت الأزياء عندهم وعند غيرهم من الأجناس، وفي هذا يقول ابن الصغير:«...وليس أحد ينزل بها—تيهرت— من الغرباء إلا استوطن معهم، وابتنى بين أظهرهم، لما يرى من رخاء البلد، وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانة على نفسه وماله، حتى لاترى داراً إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين ...»(١٢٦).

ومثلما نجم عن هذا الاختلاط من حسنات نجم عنه سيئات، فقد تفشت الرذيلة وكثر الفسق وشرب الخمر، وكثر اللصوص وقطاع الطرق مما أثار حفيظة الفقهاء، فثاروا على المناكر وحرضوا الأئمة على زوالها وإن بقي آثارها، لكن رغم ذلك فإن الطابع الديني الذي اصطبغ به المجتمع الاباضي كان السمة البارزة فيها، فهنالك الحج الجماعي الذي كان يقوم به أهل جبل نفوسة مصطحبين معهم نساءهم وأولادهم، حتى ولد له في ركب من ركائب الحجيج ثلاثمائة مولود ذكراً، فمابالك بعدد لم يولد له ذكر، ومن لم يولد له أصلاً، ومن ليس معهم نساء(١٢٧).

ويصف الادريسي، نزعة التدين عندهم، مبيناً أن رجالهم ونساءهم يتطهرون كل يوم عند كل صباح، ويتوضئون لكل صلاة، وثياب الجنب لايقربها الطاهر وثياب الطاهر لايقربها الجنب، وهم مضيافون يطعمون الطعام لعابر السبيل، ويقدمونه للفقراء والمساكين، أمناء على أموال غيرهم، محافظين على أعراضهم كمحافظتهم على أعراض حرمهم عادلين في أحكامهم(١٢٨).

الحياة الاقتصادية:

توجهت أنظار الأئمة الرستمية منذ البداية إلى الاهتمام بالزراعة بصفتها المقوم الأساسي للاقتصاد، وتجلى هذا الاهتمام بحسن الاختيار لموقع الحاضرة تيهرت المحاطة بالجبال وبكثرة العيون الطبيعية الموجودة فيها، وخلوها من المستنقعات، ووجود نهري مينة وتاتش اللذان يصبان في وادي شلف، ولاسيما وأن نهر مينة كان يؤدي إلى جانب الخدمات الزراعية، خدمات صناعية بإقامة الإرحاء عليه بسبب جريانه الدائم(١٢٩).

وقد وفق الإمام عبد الرحمن بن رستم باختيار موقعها بعد أن ساوم أصحاب الأرض المقامة عليها في بيعها، لكنهم رفضوا ذلك ثم عادوا واتفقوا معه بأخذ قسط من غلاتها ومايباع في أسواقها كل عام وتم انشاء المدينة سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م، وقام الإمام برسم الموقع الذي اختط فيه مسكنه وأصبح يسمى بمعسكر الجامع ومن حوله دور الحكومة والأسواق وأحاطها بسور له أربعة أبواب، وخصص لكل سوق من أسواقها نوع خاص من البضاعة، فهناك سوق الأقمشة، وسوق النحاس، وسوق الأسلحة، وسوق الصناعة، وكان أهم هذه الأسواق سوق المعصومة الذي هو بمثابة السوق المركزي الآن.

أما عن الأبواب، فكان لكل باب من أبوابها غرض معين يؤديه، فباب المطاحن؛ مخصص لنقل الحبوب وطحنها، وباب الأندلس مخصص للتجار المسافرين للأندلس عن طريق البحر بواسطة مينائها المسمى بمرسى فروخ والذي يمتاز بحصانته مما ساعد على حمايته من الأعداء، وحماية السفن من الأنواء والذي يقابله في الأندلس موانىء شاطبه، وتدمير، ومرسية، وأقلة. وباب الصفا، مخصص للنزهة والرياضة البدنية وغيرها من وسائل الترفيه، وباب المنازل مخصص للفلاحين الذاهبين إلى حقولهم وبساتينهم والعائدين إلى منازلهم بمحاصيلهم، مما أدى إلى تنظيم الحياة فيها(١٣١).

وعني الرستميون بالاستفادة من المياه فشقوا القنوات، ووزعوا جميع أنواع المحاصيل في سهول الحاضرة إلى جانب غرس الأشجار وإقامة البساتين، وعرفت المدينة عند المؤرخين بـ(بلخ المغرب)(١٣٢)، إلى جانب سهول اسرسو في جنوب تيهرت، وسهول وادي شلف والسهول الساحلية، وكل هذه السهول زرعت بالحبوب وأشجار الفاكهة وخاصة السفرجل الذي بلغت شهرته الآفاق، إضافة إلى الواحات المقامة على مياه الأمطار والآبار(١٣٣).

أما الزراعة في جبل نفوسة، فقد اعتمدت على مياه الأمطار، لكن رعي الماشية كان الغالب على معيشة سكانه، وكان لدى الدولة مراع واسعة وخاصة في المناطق المحيطة بالحاضرة، مما جعلها منتجعاً للقبائل الرعوية القاطنة في شمال الصحراء، ووصفها ابن حوقل عند زيارته لها بقوله: «أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين»(١٣٤).

وتفنن الرستميون بالأساليب الزراعية، فكانوا يبنون الأسوار حول حدائقهم وبساتينهم خوفاً من العبث بها أو دخول الحيوانات إليها. وقد يستعيضون عنها بغرز أعمدة في الأرض توصل بحبال للغرض نفسه(١٣٥)، ويبدو أن الزراعة عند الاباضية قد أصيبت بنكسة مثلما أصيب غيرها من المرافق الاقتصادية الأخرى بعد زوال الدولة، بدليل ماأشار إليه الدرجيني في كتابه الطبقات، عن نظام غراسة الأرض في واحات الجريد بقوله:«ومما حدثني به أبي عنه —رحمهما الله— أن أهل قرى تفيوس كانوا يعمرون جنات غاباتهم بالمناصفة فيكون لهم النصف من ثمرتها وللسلطان النصف، وكان كل واحد يحتال فيما يتخلص به من ذلك قبل امتداد يد عامل السلطان إليه»(١٣٦).

وإلى جانب الثروة الزراعية، كانت الدولة تعتمد اعتماداً خاصاً على التجارة، فكان التجار يحملون المنتوجات الصوفية والقطنية وأواني الزجاج، والفخار والخزف ذا البريق المعدني، والملح إلى بلاد السودان لندرته عندهم، فيبيعونه بأثمان مرتفعة ويعودون محملين بالذهب والعاج وجلو دالحيوانات، وكان أهل ورجلان أصحاب القوافل الذاهبة إلى السودان ثم حماة لها، ورحب الأئمة الرستميون وعمالهم بتجار السودان، وفتحوا لهم الأسواق وأحسنوا معاملتهم، وقدموا لهم التسهيلات التجارية فأعفوا بضائعهم وسلعهم من الضرائب والرسوم، وعامل حكام السودان الرعايا الرستميين بالمثل، فرحبوا بسفارات الأئمة وكفلوا الأمان للتجار(١٣٧).

ونشطت حركة السفن بين موانىء مدن تنس، ومستغانم، ووهران، وموانىء الأندلس، فكانت تأتي بالبضائع الأندلسية وتأخذ بالمقابل منتجات البلاد الرستمية، من منسوجات صوفية وغيرها من السلع المجلوبة من بلاد السودان من جلود وعاج(١٣٨).

وحرص الأئمة على ازدهار التجارة بتأمين السبل لحماية الأرواح والأموال، فوضعوا لها الحراس، وانشأوا الأربطة والمنازل وحفروا الآبار، وكان بعض أولادهم يرافقون القوافل لحمايتها، فقد عين الإمام أفلح ابنه أبا حاتم لحراسة القوافل الآتية من المشرق والمحملة بالبضائع والذهب خوفاً من الاعتداء عليها من قبل سفهاء زناتة الضاربين حول طرقها التجارية(١٣٩).

ومارس الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم التجارة وكان من كبار الأغنياء في الدولة، ودليل ذلك قوله:«لو لم أكن إلا أنا وابن جرني وابن زلغين لاغنينا بيت مال المسلمين مما علينا من الحقوق الشرعية»(١٤٠).

ولدينا من الروايات مايؤكد اشتغال أفلح بن عبد الوهاب، وأبي اليقظان(١٤١) محمد بن أفلح، وأبي حاتم يوسف، بممارسة التجارة إلى جانب التجار من أبناء الرعية(١٤٢). وكانت قوافل الدولة تخرج من مدنها في المغربين الأوسط والأدنى إلى الأندلس بالشمال

وإلى مصر والقيروان في الشرق، ويعود الفضل في وصول القوافل البرية والرستمية إلى مصر، إلى قبائل هوارة ونفوسة وغيرها من القبائل الأخرى الموجودة في طرابلس والتي كانت تجوب الصحراء ذاهبة آتية محملة بالسلع التجارية وخاصة قبيلة هوارة التي كانت تقطن في المناطق الشرقية من طرابلس، والتي كانت تتولى رعاية القوافل الرستمية الذاهبة إلى السودان، ويبدو أن استقرارها في الصحراء كان لهذا الغرض، فكانت لها محطات تجارية ومعاملات مع أبناء قومها من هوارة تيهرت والأوراس. وقد نوه الإدريسي بثرائه بقوله: «...وهوارة أغنياء مياسير يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف، والعمائم، والمآزر، وصنوف من الزجاج، والأصداف، والأحجار الكريمة، وضروب من الأفاوية، والعطر وآلات الحديد المصنوع. وما منهم من يسفّر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جملاً كلها موقرة»(١٤٣).

وشاركهم في هذه المهنة الواصلية التي هي فرقة من فرق المعتزلة، وشاع بينهم الغنى واليسار، ورحب الأئمة وولاتهم بتجار السودان، ففتحوا لهم الأسواق وأحسنوا معاملتهم، وقدموا لهم التسهيلات التجارية، فأعفوا بضائعهم من الضرائب والرسوم. ويرجع لويسكي أن سبب إجادة سكان جبل نفوسة للغة الكانم يعود لوجود جماعات من أهل السودان فيه(١٤٤).

وبالجملة فقد اتسع نطاق التجارة بين مدن الدولة، والدول التي تتاجر معها. إما عن طريق تبديل السلع(المقايضة) أو عن طريق الشراء بالنقد، فكانت مدينة وارجلان تزخر بالتجار الذين يتاجرون مع بلاد غانة ونقاوة(هكاره) والذين لهم دراية باستخراج معدن التبر وضربه على شكل دنانير في دار السكة بالحاضرة(١٤٥).

وعرف المجتمع الرستمي بكده ونشاطه، وحسن تقواه والتزامه بتطبيق أوامر الشريعة، فكان الأغنياء من أبناء المجتمع يدفعون زكاتهم إلى بيت المال، وكان عمال النواحي وجباة المال يوزعون هذه الزكاة على فقراء الناحية التي يأخذونها من أغنيائهم، وينوه ابن الصغير في حسن التزامهم بدفع الزكاة وتوزيعها فيقول: «يخرج أهل الصدقات أواني الطعام، ويأتون أهل النعم فيقبضون الواجب لا يُظلمون ولا يظلمون. فالطعام يدفع للفقراء، والشاة والبعير تباع، ويدفع منها عطاء العمال، ومابقي يوزع على الفقراء، فيخصون من في البلد ومن حولها، ويحصى مافي الأهراء من الطعام ويشتري من باقي الصدقة أكسية صوف، وجباب، وفراء، وزيت، ويدفع لأهل كل بيت بقد ر ذلك. وماأن اجتمع من الجزية والخراج وماأشبه ذلك يقطع منه الإمام لنفسه وحشمه، وقضائه، وأهل شرطته، والقائمين بالأمور مايكفيهم في سنتهم. وما فضل صرف في مصالح المسلمين(١٤٦).

وشهدت الدولة ازدهاراً اقتصادياً كبيراً بسبب ماإتسمت به من سياسة التسامح مع أعدائها السياسيين والمذهبيين وترحيبها بالغرباء، الذين وفدوا عليها من كل مكان واستقروا فيها، وفي هذا يقول ابن الصغير:«وأتتهم الوفود الرفاق من كل الأمصار، وأقاصي الأقطار، فقل أحد أن ينزل بها من الغرباء إلا استوطن معهم(١٤٧).

أما عن طوائف اليهود المسمون بـ(الردهانة) والذين كانوا يعيشون في أحياء خاصة بهم—الجيتو— في العاصمة، فقد نالوا من التسامح وحرية العمل الشيء الكثير مما جعلهم يسيطرون على مناشط التجارة فيها.

هذا عن التجارة الخارجية، أما عن التجارة الداخلية، فقد وجد في المدن الاباضية مايسمى اليوم بالمعارض التجارية المحلية، كان من أبرزها مدينة الخضراء الواقعة بالقرب من مدينة مليانه في الاقليم الغربي من الجمهورية الجزائرية، حيث يعقد فيها سوق محلي تعرض فيه مختلف أنواع السلع المجلوبة من القرى المحيطة بها، ومدينة أكرا(١٤٨) المسماة بـ(كرات) الواقعة على نهر شلف القريبة من مدينة الأصنام والتي تمتاز بحصانتها فهي أشبه بقلعة حربية، حيث يعقد فيها سوق محلي كل يوم جمعة لعرض المنتجات الزراعية والمنسوجات المحلية، ومدينة مازونة الواقعة على البحر المتوسط، والتي تقع في الاقليم الغربي من الجزائر، يعقد فيها سوق محلي في يوم معلوم تعرض فيه منتجات الألبان والعسل، وهناك العديد من المدن التي تقوم بما قامت به المدن السالفة الذكر تعقد أسواق محلية فيها. ومن الملاحظ أن هذه العادة مازالت إلى يومنا هذا موجودة في أسواق مدن وقرى المغرب الكبير(١٥٠).

وبالجملة فإن الرخاء الاقتصادي انعكس على تقدم العمران في الدولة وخاصة في الحاضرة تيهرت، وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن الصغير عند اشارته للوفود القادمة من مدينة البصرة للمرة الثانية إلى الحاضرة تيهرت بقصد منح الإمام عبد الرحمن بن رستم كميات من الذهب يستعين بها في تدعيم الدولة الناشئة، فهالهم التطور الهائل الذي طرأ على عمران المدينة ويشير إلى ذلك بقوله:«فرأوا هيئتها قد تبدلت ولاح، عليها رونق المدينة واليسار، وعلت وجوه أهلها سيماء الحضارة والرفاهية، وبدت من محياهم آثار النعمة والغنى، وأزينت المدينة بقصور مشيدة ودور منتظمة...»(١٥١).

ولكن يبدو أن هذا الازدهار قد أصيب بانتكاسة بسبب الحروب التي قامت بينهم وبين الفاطميين، وقضاء الفاطميين على الدولة، وفرض الضرائب الكثيرة على رعاتها، مما أدى إلى قيام الثورات ضدها التي لم تهدأ إلا عندما تخلى الفاطميون عن سياستهم التعسفية، وجنحوا إلى الاعتدال(١٥٢)فيها، إلا أن هذه الأحداث قد تركت طابعاً سلبياً على جميع المواقف الاقتصادية ومن ضمنها التجارة، فقد أشار الدرجيني إلى كيفية التعامل التجاري عند أهل جربه، بأن التبايع عندهم لم يعد بالذهب، لكن بعض الفئات من

المجتمع الاباضي وخاصة قبائل هوارة البربرية بقيت تمارس عملها التجاري بعد زوال الحكم الرستمي مع البلدان السودانية مما أدى إلى انتعاشها وتحسن أحوال المعيشة بين أفرادها، ومن الجدير بالذكر أن الاباضية مازالوا إلى الآن يعتمدون على التجارة ويقومون بممارستها بشكل واسع النطاق في بلاد ميزاب جنوب الجزائر وفي جزيرة جربة بتونس(١٥٣).

أما عن العمارة، فقد كان للازدهار الاقتصادي تأثير كبير على العمارة، حيث تطاول الناس في البنيان، وقاموا بتشييد القصور والمباني الفخمة، مما دعا ابن الصغير إلى التنويه بالنهضة المعمارية أيام الإمام أفلح بقوله:«...شمخ ملكه، وابتنى القصور، واتخذ أبواباً من الحديد...إلى أن يقول فابتنى إبان وحموية القصرين المعروفين بأملاق، وابتنى عبد الواحد قصر، يعرف به اليوم»(١٥٤).

غير أنه لم يتبق من هذه المنشآت الكثيرة التي زخرت بها الحاضرة تيهرت شيء يذكر، فقد اضمحلت عقب سقوط الدولة في يد الفاطميين الذن اتخذوها ثغراً لهم أيام المهدي أبو حميد دواس اللهيصي، ثم جاء من بعده مصالة بن حبوس المكناسي، ولما تولى حميد بن يصلى قام بإعادة بناء القلعة والسور، وظلت مدينة تيهرت تنحدر نحو الهاوية بسبب الحروب الطاحنة التي كانت تدور في ساحتها إلى أن انتهت بتوجيه الضربة القاضية عليها خلال القرن السابع للهجرة.

ويبدو أن الرستميين تأثروا بالتقاليد المعمارية السورية التي برزت بشكل واضح في بناء القصبة ذات الشكل المستطيل، والمتوج بنشز له طابع حربي، أما القصبة فكان يحيط بها من الجهة الشمالية والشرقيةسور صغير، وفي داخلها فناء واسع يحوي القسم الأكبر من القصبة، ويلتصق بجدرانها من الداخل غرف تتفاوت في اتساعها(١٥٥).

وعثر رجال الآثار الفرنسيون أثناء تنقيباتهم الأثرية على مسجد بني في العاصمة تيهرت، تميز بوجود قباب بيضاوية الشكل تلتصق بعضها ببعض، أقيمت فوق بيت الصلاة ووجد في داخل المسجد ثلاثة صفوف من الدعائم الاسطوانية، كما وجد في أحد جدرانه طاقات حفر في داخلها جوفات مقوسة تعلوها أنصاف قباب مسطحة، أحدها مزين بضلوع بارزة كالفصوص تشبه إلى حد كبير جوفات قصر بالعراق، مما يدل دلالة واضحة على مدى تأثر الفن الزخرفي عند الرستميين بالفن العراقي الفارسي، كما عثرت البعثة على بقايا دور في مدينة سدراته الواقعة في الاقليم الشرقي من الجزائر على الحدود التونسية، كانت مزينة بزخارف جصية رائعة تشبه زخارف مدينة سامراء في العراق، قوامها العناصر الهندسية التي تتألف من مربعات وجامات مستديرة وفصوص، والعناصر النباتية التي تقوم على الفروع المموجة التي تتوزع فيما بينها التوريقات(١٥٦).

وبالجملة، فقد تأثر فن العمارة الرستمي بمؤثرات فارسية عراقية سواء كان في انشاء المدن وتخطيطها أو في انشاء المساجد والعمائر والقصور، بينما ظهر الأثر الأندلسي واضحاً في القلاع والحصون التي انتشرت خارج تيهرت ابان الصراع بين القبائل والعناصر المختلفة في العصر الرستمي الأخير(١٥٧).

الخاتمة

بذل الرستميون جهوداً طيبة في نشر الثقافة الاسلامية واللغة العربية في أرجاء المغرب عن طريق الحلقات التدريسية والمناظرة العلمية بين الفرق الاسلامية، كما اهتموا بالمرافق الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة قصد انعاش بلدهم وتحسين الأحوال المعيشية لأفراد مجتمعهم، وشارك الأئمة أفراد الرعية في الاتجار، وهذا الأمر لم يكن محبباً في الاسلام لقوله عليه السلام:«إذا اتجر الراعي هلكت الرعية».

والتزم الرستميون حكاماً ورعية بتطبيق قوانين الشريعة الاسلامية في معاملاتهم التجارية، فكانوا إلى جانب ممارستهم للتجارة يقومون بنشر العقيدة الاسلامية في بلدان الممالك السودانية—وخاصة الوثنية منها— الذين يتاجرون معها.

ورحب الأئمة الرستميون بالوافدين على ديار الدولة من مختلف البقاع، ومنحوهم الأمان على أنفسهم في أجناسها ومذاهبها.

وتميز المجتمع الرستمي بالشجاعة والاقدام في الحروب، والاتقان في فنون القتال، لكنه لم يسخر طاقاته في الجهاد ضد الكفار.

ونعمت الدولة بالأمن صنو العدل إلى أن سيطرت شهوة الحكم على أحكام ودب فيهم الخلاف والنزاع إلى جانب الفتن والحروب مع الأغالبة، مما أدى إلى اضعاف البنية السياسية والعسكرية للدولة التي انعكست على جميع مرافق الحياة فيها.

ففي الوقت الذي تولى أبو اليقظان الحكم سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م، كان الأمير زيادة الله الثالث حاكماً على دولة بني الأغلب، وكانت ظروف الدولتين متشابهة تقريباً، فالإمام أبو اليقظان محمد قام بقتل أخيه أبي حاتم يوسف بن محمد من أجل الوصول إلى الحكم ضارباً صفحاً عن السخط الشديد الذي سببه هذا العمل، كما أقدم زيادة الله الثلث على

قتل المنافسين له في الامارة من أعمامه وقتل أخيه عبد الله الأحول، إضافة إلى الفتن التي قامت في بداية عهده، مما سهل الأمر على الدولة الفاطمية التي قامت باسقاطها في عام واحد(١٥٨) سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م، وتسرب الضعف والانحلال إلى المجتمع الرستمي، فقل نشاط الدعاة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، مما أدى إلى ظهور بعض العوائد الاجتماعية السيئة، فقد حدث أن أحد شيوخ المذهب عاد بعد غياب إلى منطقته، فوجد أهلها قد فسدوا وتغيرت أحوالهم، وليس بينهم ناه ينهاهم عن غيهم، فحاول وعظهم قائلاً: «اني رأيت فيكم ثلاث خصال كلها غير مرضية ولاناه عنها: احداها أن نكاح السر فيكم فاش، فإذا مر أحد منكم برجل وامرأة مجتمعين في موضع التهمة اشمأز قلبه فإن زجرهما على الاجتماع في موضع الريبة قالا إنا متناكحان فكادت أن تظهر فيكم الفاحشة بها ظهرت، والثانية ان أحدكم يطلق عبيده فلا يعولهم ولايمونهم، ويكلفهم معاشهم فيطلقون في أموال الناس على غير رضا أصحاب المال ولا عن اذنهم فيكاد أحدكم أن يكون سارقاً وهو في محرابه جالساً، والثالثة أنكم أظهرتم فيما بينكم التحزب والتفرق، فطائفة منكم يقولون مسجدنا ومسجدكم، وطائفة منكم يقولون حضرتنا وحضرتكم، ويهودينا ويهوديكم، فلم يجدوا جواباً في مجمعهم ذلك لأنهم تواعدوا ليجاوبوه فلما أبطأوا استرابهم فارتحل عنهم من يومه»(١٥٩). لكن هذه المناكر سرعان ماقضي عليها، بفضل جهود الشراة من العلماء والأعيان، الذين دأبوا منذ قيام الدولة وبعد زوالها إلى يومنا هذا في المحافظة على القيم الاسلامية وغرسها في نفوس أبناء المجتمع الاباضي، بتربيتهم التربية الاسلامية الصحيحة، في تحفيظهم القرآن الكريم وتعليمهم أصول الدين الذي يساعدهم على تقويم نفوسهم وحسن معاملتهم مع اخوانهم المسلمين.

نتائج البحث

١—توصل البحث إلى أن التعددية في الآراء كانت مطبقة في الدولة الرستمية.

٢—توصل البحث إلى عدم التمييز بين أبناء الأمة الاسلامية الواحدة، سواء كانوا من أصحاب المذهب أو من دونه مع المحافظة على حقوقهم.

٣—اشترط بالامام العلم في الأمور الشرعية، والالتزام بها، والاعلان عن هذا الالتزام عند تولي الحكم.

٤—استخدم الأئمة سياسة التوازن بين العناصر المختلفة في الدولة، وإثارة الفتنة بينها إن لزم الأمر محافظة على عروشهم.

٥—على الرغم من حرصهم على تطبيق الأحكام الاسلامية، إلا أنهم مالوا إلى المباهج الدنيوية أحياناً، فكان لديهم مواكب ذات أغراض متعددة.

٦—تعاونوا مع أعدائهم التقليديين—الأمويين في الأندلس—ضد الأغالبة الممثلين للعباسيين.

٧—ازدهر الاقتصاد في عهدهم خاصة التجارة حيث برعوا فيها، ومازالوا إلى يومنا هذا يتقنون هذا الفن من فنون الحياة إلى جانب اتقانهم للصناعات التقليدية خاصة صناعة الزرابي، التي مازالت مدينة غرداية تتميز بصناعتها لها عن بقية المدن الأخرى في ا لجزائر.

٨—شهدت البلاد في عهدهم نهضة علمية مباركة خاصة في مجال اللغة والدين، وظهر التعاون الشعبي واضحاً في هذا الميدان في بناء المؤسسات العلمية ومساعدة أبنائها من الطلبة.

٩—حرص رجال الشرطة(المحتسبة) وأعيان الأمة في إزالة المنكر، بتشجيع من الحكام والعلماء الذين كانوا باستمرار يحثون الناس على هذا العمل.

١٠—العمل باستمرار على تدريب الأبناء على القتال، ووجود ميادين للسباق والطعان، ولكن المؤسسة العسكرية كانت مرتبطة بقواعد فقه المذهب أكثر مما هي مرتبطة بالواقع المتغير.

١١—مساعدة أبناء المجتمع لبعضهم البعض مما تقتضيه سنن الشريعة من التكافل الاجتماعي فإلى جانب الخدمات التي يقدمها بيت المال للمستضعفين من الناس، كان الاغنياء يقدمون قسطاً من أموالهم صدقة للفقراء والمساكين إلى جانب الزكوات التي يقدمونها بمواعيدها بكل أمانة واخلاص.

الهوامش

١) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب الاسلامي، ليبية، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانية مطابع دار العودة بيروت، د—ت،ص٤٧—٥٦ .

٢) حملة العلم: أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري و عبد الرحمن ابن رستم الفارسي، عاصم السدراتي، اسماعيل بن درار الغدامسي، وأبو داود القبلي. راجع، الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، ت—ابراهيم طلآي، د—ت، جـ١، ص ٢٠ ، الشماخي، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد، كتاب السير، ت—أحمد بن سعود السيابي، وزارة التراث القومي والثقافة، عُمان، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، جـ١،ص ١١٣ .

٣) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب الاسلامي، ط—القاهرة، ١٩٧٦م، ص ١٢٨ .

٤) الشماخي، السير(سيرة علماء ومشايخ جبل نفوسة)، القاهرة، ط—حجرية، د—ت، ص ١٦٢ .

٥) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب، ط— القاهرة ١٩٦م، ص ٢١٨ .

٦) أصحابنا: يعني من الاباضية، وهي لفظة شائعة الاستعمال عند علماء الاباضية.

٧) أبو زكريا، يحيى بن أبي بكر، كتاب سيرة الأئمة وأخبارهم، ت—اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية—الجزائر، سنة ١٩٣٩م، ص ١٢٥ ، ٨) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب،ص ٢١٨ .

٩) النفوسي، سليمان بن عبد الله الباروني، الازهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية، ط— دار بوسلامة للنشر والتوزيع، تونس ١٩٨٦م، جـ٢، ص ٧٠ ، ١٠ البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ط—باريس١٩١١م، ص ١٤٤ .

١١) يرى المسعودي أن الرستميين من الأشبان الذين اختلف في نسبهم فمنهم من يقول أنهم ملوك فارس الأولى، ومنهم من يذهب إلى أنهم من الأندلس اللذارقة—جميع لذريق—والمسعودي مع هذا الرأي. عن الرأي الأول، راجع، الدرجيني، الطبقات، جـ١، ص٢٠، وعن الثاني، راجع، المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط—دار الأندلس—بيروت ط—٤، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١،جـ١،ص١٨٦ .

١٢) الميلي محمد، الجزائر في مرآة التاريخ، ط—مكتبة البعث قسنطينة— الجزائر ط(١) ١٩٦٥م، ص ٦٠، ديوز محمد علي، تاريخ المغرب الكبير، ط(١) القاهرة ١٩٦٣م، جـ٣، ص ٣٢٠ .

١٣) النفوسي، الازهـار، ص ٤٥١ ، ابن تاويـت— محمد الطنجي، دولـة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفـة معهد الدراسات الاسلامية في مـدريد، مج٥، سنة ١٩٥٧م، ص١١٣ .

١٤) كتب الإمام الـربيع بن حبيب رئيس أهـل الدعوة الاباضيـة يومئذ في عُمان، رداً على الكتاب المرسـل مع الرسولين مـن الإمام عبد الـرحمن بن رستم، جاء فيـه:«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعـد، ياإخواننا قد بلغنا —ماكان مـن قبلكم، وفهمنا من أمر الشرط في الإمـامة، الا يقضي امـرأ دون جماعـة معلومـة، فـالامامـة صحيحـة، والشرط باطـل، ...الخ»راجع ، الشماخي، السير، ص١٢١، ١٢٢ .

١٥) النفوسي ، الازهار ، ص ١٤٣—١٤٧ ، ص ١٣٣ .

١٦) نفـس المرجـع، ص ١٦٣ ، هويكنـز، النظـم الاسلامية في المغـرب في القـرون الوسطى، تعـريب أمين توفيق الطيبـي، الدار البيضاء—ليبية—تـونس سنة ١٩٨٠، ص ٢٤٧ .

١٧) النفوسي، الازهار، ص ١٦٢ .

١٨) نفسه، ص ٢١٤—٢١٩، وعن البيورلدي، نفسه ، ص ١٩٧ .

١٩) نفسه، ص ٢٢٣ .

٢٠) نفسه، ص ١١٤ ، ٢٦٤ .

٢١) الطبري محمد بن جـرير ، تاريخ الأمم والملوك—ط— القـاهرة ١٩٦٣م، جـ٦، ص ٢٧٥ .

٢٢) نفوسـة: بالفتح ثـم الضم والسكون، وسين مهملـة جبال في المغرب تقـع غرب ليبية، ينبت منها الشعير الذي يعد دقيقه من ألـذ الأطعمة، راجع، الحموي، شهاب الدين أبي عبـد الله يـاقـوت بـن عبـد الله البغـدادي، معجـم البلـدان، ط—دار احيـاء التراث العربي— بيروت، جـ٥، ص ٢٩٦ .

٢٣) النفوسي، الازهار، ص ١٥٥ .

٢٤) نفسـه، ص ٨٦ . ابن الصغير المالكـي، سيرة الأئمة الـرستميين، ط — باريـس، ١٩٧٠م، ص ٥٢ .

٢٥) كان من حملته أيام الإمام أفلح العلامـة شبيه الدجي ، راجع، النفوسي، الازهار، ص ١٨١—٢٨٢ .

٢٦) النفوسي، الازهار، ص ١٩٨ .

٢٧) ابن الصغير، السيرة، ص ٢٦—٢٧ .

---

٢٨) من الصعب رسم خريطة محددة للدولة الرستمية، فالمصادر التي بين أيدينا لاتساعدنا على تحديدها بدقة، وقد أشارت مصادر متعددة لحدودها، لكن تعوزها الدقة. راجع، الاصطخري، ابراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي، المسالك والممالك ، القاهرة ١٩٦١م، ص ٢٤ ، البكري، المغرب، ص ١٤٤ .

٢٩) ابن خرذابه، عبد الله ، المسالك والممالك ، ط— ليدن— ١٨٧٢م، ص ٨٨ .

٣٠) مؤلف مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار، ت—سعد زغلول— الاسكندرية سنة ٩٥٨ ، ص ١٧٩ .

٣١) النفوسي، الازهار، ص ١٤٠ .

٣٢) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٥٠٠ .

٣٣) النفوسي، الازهار، ص ١٤٩ .

٣٤) نفسه، ص ٢٣١—٢٣٤،٢٣٧—٢٣٨ .

٣٥) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد، العبر...، ط—بولاق، سنة ١٢٨٤م، جـ٤، ص ٤٣١ .

٣٦) ابن عذاري، أبو عبد الله محمد، البيان المغرب في أخبار المغرب، ط— بيروت، ١٩٥٠م، جـ١، ص ١٥٨ .

٣٧) ابن الداية، المكافأة ، القاهرة سنة ١٩١٤م، ص ٦١، النفوسي، الازهار، ص ٢٥٧—٢٥٨ .

٣٨) الدرجيني أبو العباس أحمد، طبقات الاباضية، جـ١ ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم(١٢٥٦) ح ورقة(٤١).

٣٩) يقول علماء الاباضية:«من ترك معونة إمام العدل، فمنزلته مع المسلمين خسيسة» . راجع، الكندي، أبو بكر أحمد بن عبد الله بن موسى، المصنف، نشر—وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، جـ١، ص ١٢٧ .

٤٠) فاروق عمر، التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين (دراسات نقدية في تفسير التاريخ) دار اقرأ ، بيروت، ط(٢)، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م) ابن خلدون ، العبر، دار العلم ، بيروت، د—ت،جـ٤،ص١٣٠—١٣١ .

٤٢) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٤٧٢ .

٤٣) يستعمل مصطلح غرب افريقية مرادفاً لمصطلح البلاد السودانية ، وذلك لأن الاسلام انتشر في هذه لفترة في حزام السافنا والساحل الصحراوي من غرب افريقية بالاضافة إلى الساحل ويشار إلى هذه المناطق في المصادر الاسلامية بالبلاد السودانية، عن التعريف، راجع، I.U.A. Musa(On THE NATURE of Islamization and Islamic reform movements in Bild assudan up to skoto Jihad Dirasat, The University of Jordan, 1979, No: 1. R 27. n. 1.

٤٤) ابن سعيد، علي بن موسى بن محمد، المغرب في حلي المغرب، ط(٢) القاهرة ١٩٦٤م، جـ١، ص ٥٤٨، اليعقوبي، أحمد أبي يعقوب بن واضح، البلدان، ط—ليدن،١٩٨٢م، ص ٣٥٣ .
٤٥) ابن القوطية، محمد بن عمر بن عبد العزيز بن ابراهيم، تاريخ افتتاح الأندلس—القاهرة، د—ت، ص٩١—٩٢، عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص ٥٧١، ويشهد على وجود الطائفة الأندلسية تسمية أحد أبواب المدينة الأربعة باسم (باب الأندلس) ، راجع ، اليكري، المغرب، ص٦٦، النفوسي، الازهار، ص ٢٧ .
٤٦) إلى جانب أن التعاون بين الأمويين والرستميين كان يرمي إلى خصومة الأغالبة، كذلك كان من أهدافه اضعاف الأدارسة، والحد من انتشار التشيع في الأندلس، راجع، عبدالعزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٥٦٩ ، مكي محمود علي، التشيع في الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية—مدريد، سنة ١٩٥٤م، ص ١٦٤ .
٤٧) النفوسي، الأزهار، ص ١٦٤ .
٤٨) نفسه ، ص ١٦٤ .
٤٩) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٥١٣—٥١٤ .
٥٠) النفوسي، الازهار، ص ٢١٩—٢٢٠ .
٥١) نفسه، ص ٢٠٤ ومابعدها.
٥٣) نفسه، ص ١٦٤ .
٥٤) هم الذين باعوا أنفسهم لله، وهذا ينطبق مع قوله تعالى:(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم...)سوة التوبة، آية ١١١ .
٥٥) النفوسي، الازهار، ص ٢١٠ ومابعدها.
٥٦) نفس المصدر والصفحة.
٥٧) نفسه، ص ٢٥٢ .
٥٨) نفسه، ص ٢١٠ .
٥٩) نفسه، ص ٢٣٩—٢٤٧—٢٥٣ .
٦٠) نفسه، ص ٢٤٧ .
٦١) نفسه، ص ٣١٧ .
٦٣) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٣٢٦ .
٦٤) نفسه، ص ٤١٦—٤١٧ .
٦٥) يشترط أن يكون فيه ستة رجال فصاعد من أهل العلم بأصول الدين، والفقه، ومن أهل الورع والصلاح. راجع، الكرمي أبو سعيد محمد بن سعيد، الاستقامة، وزارة الثقافة والتراث القومي، سلطنة عمان، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ١١٢ .

---

٦٦) خليفات عوض محمد، النظم الاجتماعية والتربوية عند الاباضية في شمال افريقية في مرحلة الكتمان، عمان، سنة ١٩٨٢م، ص ١١٢ .
٦٧) النفوسي، الازهار، ص ١٤٣ .
٦٨) نفسه، ٢٣٩، ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٣٦١ .
٦٩) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ص ٤٢ .
٧٠) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص٣٦١—٣٦٢ .
٧١) النفوسي، الازهار، ص ٢٩٠—١٣٠ .
٧٢) نفسه، ص ٢٧٦ .
٧٣) نفس المرجع والصفحة.
٧٤) نفسه، ص ٢٢٥ .
٧٥) نفسه، ص ١٢٦ .
٧٦) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٢١٣، ٣٦٥ .
٧٧) النفوسي، الازهار، ص ١١٨ .
٧٨) كان من عادتهم حمل السلاح، ووضع السيوف على الأكتاف مثلما يفعل العرب الأولون، أو وضعها على الجنبات، راجع، النفوسي، الازهار، ص ١٢٥ ، وعن الذكورية راجع، ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٣٦٥ .
٧٩) النفوسي، الازهار، ص ٢٣٢ .
٨٠) نفسه، ص ٧٠ .
٨١) نفسه، ص ١٧٢ .
٨٢) نفسه، ص ٢٨٠ ومابعدها.
٨٣) نفسه، ص ٢٧٩ .
٨٤) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب، ص ٢٢٢ .
٨٥) نفس المرجع والصفحة.
٨٦) ديوز ، المغرب الكبير، جـ٣،ص ٣٧٢ ومابعدها.
٨٧) عملاً بقول الخليفة عمر الذي قال:كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في الحرام، راجع، النفوسي، ص ١٩٥ .
٨٨) النفوسي، الازهار، ص ١٠٩ ، ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٣٤٧ .
٨٩) النفوسي، الازهار، ص ٢٦٤ ، أبو زكريا، يحيى بن أبي بكر، كتاب سير الأئمة، وأخبارهم، تحقيق، اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية ، الجزائر، سنة ١٩٧٩م، ص ٨٩ .
٩٠) النفوسي، الأزهار، ص ٣٩٤ .
٩١) نفسه ، ص ٢٨٧ .

٩٢) بهلا، احدى مدن المنطقة الداخلية بسلطنة عُمان، تقع بالقرب من مدينة نزوى وإليها ينتسب ابن بركة، أبو محمد بن عبد الله السليمي البهلي، من علماء الاباضية المشهورين، أنشأ مدينة فيها، أشهر مؤلفاته كتاب الجامع، توفي في القرن الرابع الهجري، راجع، كتاب الجامع، ت—عيسى الباروني، طرابلس، ١٩٧٣، جـ٢،ص أ—ب من المقدمة، ووردت عند ياقوت في كتابه المعجم، جـ٥، ص ٥٦٠ ، بأنها مدينة ساحلية.

٩٣) الكرمي أبو سعيد محمد بن محمد، الاستقامة، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، جـ١،ص٥ .

٩٤) الشماخي، السير، القاهرة، المطبعة البارونية، ١٣٢٠هـ ص ٥٤٥ .

٩٥) نفس المرجع والصفحة.

٩٦) النفوسي، الازهار، ص ٢٨٧ ومابعدها.

٩٧) ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، الميلي، محمد مبارك، الجزائر في مرآة التاريخ، ط—مكتبة البعث قسنطينة— الجزائر ط (١) سنة ١٩٦٥م، ص ٦٣ .

٩٨) ديوز ، المغرب، جـ٣ ، ص ٣٨١ .

٩٩) نفس المرجع، ص ٣٩٢ .

١٠٠) عن علماء الجبل، ديوز، جـ٣، ص ٣٨٦ ، وعن ديوان الأشياخ، راجع نفسه، ص ٣٨٨ .

١٠١) من مؤلفات جبل نفوسة، موسوعة في الشريعة الاسلامية موسومة بـ(ديوان العزابة) ألفها عشرة من العلماء في عشرة أجزاء، ومازالت مخطوطة، في خزائن وادي ميزاب، جنوب الجزائر، عنها، راجع، ديوز ، المغرب، جـ٣، ص ٣٨٩ .

١٠٢) عن كتاب الايضاح ، راجع نفس المرجع والصفحة.

١٠٣) عن كتاب الوضع ، راجع نفس المرجع، ص ٣٩٠ .

١٠٤) المالكي، عبد الله بن أبي عبد الله، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية، جـ١، القاهرة، سنة ١٩٥١، ص ٤٠٩، الدباغ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، تونس، سنة ١٣٢٠هـ جـ٢، ص ١٩٢ .

١٠٥) لما قبض على أبي نوح وجيء به إلى المعز مكبلاً بالأصفاد قال المعز:«إن القيود دخلت في رجلك بالعلم ولاتخرج إلا با لعلم». قال أبو نوح:«عسي الله أن يجعل ذلك كفارة لذنوبي، فغضب المعز». وقال:« أفنحن مسيئون فيك؟». قال أبو نوح:« قلت ليس في ذلك مايدل على اسائتك، ألا ترى أن الله يبتلي عباده، فيصبروا فيؤجروا، وليس في ذلك مايثبت الاساءة لله، فزال غضبه فطلبته العفو»، فعفى... وقربه.

وفي احدى مجالس المعز مع العلماء والفقهاء ومن بينهم أبي نوح، سأل المعز: «ماالدليل أن لهذه الصنعة صانعاً؟ أجاب جلساؤه بأجوبة غير مرضية. فقال أبو نوح: « فرأيت أبا تميم كأنه يريد الجواب». وتأدب أبو نوح وقال: «جوابك مفهوم من سؤالك، لأن الصنعة بنفسها دليل الصانع، ولا صنعة بغير صانع، فاعجب المعز بلباقته». راجع ، الشماخي، ص ٣٥٢، اسماعيل محمود ، الخوارج، ص ٣٣٤ .

١٠٦) النفوسي، الازهار، ص ١١٥ .

١٠٧) نفسه، ص ١٠٢ ومابعدها ، ديوز، المغرب الكبير، جـ٣، ص ٣٩٩ .

١٠٨) ديوز، المغرب، ...، ص ٤٠٣ .

١٠٩) الشماخي، السير، ط—البارونية، ص ٤٠٢ .

١١٠) ديوز، المغرب...، جـ٣، ص ٤١٣ .

١١١) نفسه ، ص ٤١٥ .

١١٢) النفوسي، الازهار، ص ٢٧٦ ، الميلي، الجزائر...، ص ٦٣—٦٤، بونار— رابح، المغرب العربي، تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١م، ص ١٢٠ ومابعدها.

١١٣) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ص ٥١—٥٢، التقى الباحث أثناء إقامته في الجزائر مع أحد علماء الاباضية المعاصرين، فأكد له وجود جماعة منهم في غانة في أيامنا هذه، وأكد هذا القول المستشرق ماسكراي الذي تحدث إليه الشيخ عبد الله أحمد أحد مشائخ الاباضية وأكد له هذه الحقيقة، راجع،

Masqueray E: CHRONIQUES, Abou zakaria, Alger, 1978, p:279

١١٤) النفوسي، الازهار، ص ١٥٣ .

١١٥) اليعقوبي: أحمد بن أبي اليعقوب بن واضح، البلدان، ط— ليدن، ١٩٨٢، ص ٣٥٩ ، محمود اسماعيل، الخوارج...، ص ٢١٣—٢١٨ .

١١٦) الادريسي، الشريف عبد الله، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس المعروف بـ(نزهة المشتاق) ، ط— ليدن، ١٩٦٨م، ص ٨٨ .

١١٧) نفسه، ص ١٢٣ ، وعن النجب، مازال أهل المغرب يسمون هذا النوع من الإبل بالمهري إلى يومنا هذا، مشاهدات الباحث، كذلك أورد هذه التسمية، النفوسي في كتابه الازهار، ص ١٠٩ .

١١٨) تسمى بالبربرية آزقي، وهناك اقليم في عمان يحمل نفس الاسم مع شيء من الحريف يسمى بـ(أزكي) يمتاز بكثرة الأفلاج، عن آزقي، راجع، النفوسي، الأزهار، ص ٥٨ ، وعن آزكي راجع، ولكنسون، الافلاج ووسائل الري في عمان، تعريب—محمد أمين عبد الله، وزارة التراث ، سلطنة عمان، ١٤١٠هـ/ ١٩٨١م، ص ١٢٠ .

١١٩) النفوسي، الازهار، ص ٥٨ .
١٢٠) الجنحاني، حبيب، كتاب طبقات المشائخ، دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي، دار الطليعة بيروت، ط(١). ١٩٨٠م، ص ١٠٨—١١٠٩ ٤١.
١٢٢) نفس المرجع والصفحة.
١٢٣) البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ط—باريس ١٩١١م، ص ٦٨ ، عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، العصر الاسلامي، القاهرة ١٩٦٦م، جـ٢، ص ٥٧٦ ومابعدها .
١٢٤) ديوز، المغرب..، جـ٣، ص ٤٨٠ .
١٢٥) النفوسي، الازهار، ص ٢٤٥ .
١٢٦) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ط—باريس، ١٩٠٧م، ص ١٢—١٣، النفوسي، الازهار، ص ٢٤٥ .
١٢٧) الجنحاني، حبيب، دراسات مغربية، ص ١٠٨—٠٩ .
١٢٨) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ١٢٨ .
١٢٩) نفسه ص ١٤٥، النفوسي، الازهار، ص ١٤ ومابعدها.
١٣٠) النفوسي، الازهار، ص ٣١، ديوز ، المغرب الكبير، جـ٣، ص ١٦٧ .
١٣١) نفس المرجع، ص ٢٧—٢٨، عن مرسى فروخ، راجع، البكري، المغرب... ، ص ٨١، الادريسي، نزهة المشتاق، ص ١٠٠ .
١٣٢) النفوسي، الازهار، ص ٧ .
١٣٣) اسماعيل محمود، الخوارج..، ص ٢١٠ .
١٣٤) ابن حوقل، ابو القاسم، المسالك والممالك ، ط— ليدن، ١٨٧٣م، ص ٨٦ .
١٣٥) النفوسي، الازهار، ص ٢٧٩ .
١٣٦) الجنحاني، كتاب طبقات المشائخ ، دراسات مغربية، ص ١٠٩ .
١٣٧) الادريسي، الشريف عبد الله، صفة أرض المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس، ط—ليدن، ١٩٦٨م، ص ٨—٩، ١١—١٢، ٣٥ .
١٣٨) ابن الدلائي، أحمد بن عمر بن أنس العذري، نصوص من الآندلس من كتاب ترجيح الأخبار وتفريغ الآثار، والمسالك إلى جميع الممالك ، مدريد سنة ١٩٦٥م، ص ١٩ ، عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص ٥٧٦ ومابعدها، أما بما يخص المنسوجات الصوفية، فمازالت النساء في غرداية ببلاد الميزاب يزاولن هذه الصنعة إلى يومنا هذا ، وتعد زرابي غرداية من أجود الزرابي في المغرب كله. مشاهدات الباحث.
١٣٩) النفوسي، الازهار، ص ٢٦٤ .

---

١٤٠) نفسه، ص ١٣٧ .

١٤١) النفوسي، الازهار، ص ٢٦٤ .

١٤٢) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ص ٥٠ .

١٤٣) الادريسي، نـزهــة المشتـاق، ص ١٣٢ ، ديــوز، المغـرب الكبير، جـــ٢، ص ٣٤٨—٣٤٩ .

Lewickit: Etudes Ibadites Nord- Africaines Warszaw, 1955: p, 71 .

١٤٥) الادريسي،نزهة المشتاق ، ص ٨—٩ .

١٤٦) أبو زكريـا يحيى بن أبي بكر، كتاب الـوضع في الفقه الاسلامــي، ط— القاهرة سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، جـ١، ص ١٩٠ .

١٤٧) ابن الصغير، سيرة الأئمة، بايس، ١٩٥٨م، ص ٢٧ .

١٤٨) مؤلف مجهول، الاستبصار في عجـائب الأمصار، الاسكندرية ، سنة ١٩٥٨م، ص ٢٠٢ .

١٤٩) النفوسي، الازهار، ص ٨١ .

١٥٠) نفسه، ص ٦١ .

١٥١) مشاهدات الباحث.

١٥٢) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ط—باريس، سنة١٩٥٨م، ص ١٣ .

١٥٣) الشماخي، السير، ط— حجرية، د—ت، القاهرة، ص ٣٢٠—٣٢٣ .

١٥٤) الجنحاني، كتاب طبقات المشائخ، دراسات مغربية، ص ١٠٩ .

١٥٥) النفوسي، الازهار، ص ١٨١ .

١٥٦) عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص ٥٧٩ ومابعدها.

١٥٧) نفس المرجع والصفحة.

١٥٨) Marçais, G: La BERBE'RIE Musulmane du Moyen AGE, Paris, 1954, p: 166 .

١٥٩) ابن عذاري، البيان المغرب، جـ ١، ص ١٨٣ ، النفوسي ، الازهار، ص ١٩١ .

١٦٠) الجنحاني، دراسات مغربية، ص ١٠٨ .

التنظيم الاداري لديوان العرض (الجند) في عهد الدولة الغزنوية

(٣٨٨هـ/٩٩٨م - ٤٣٢هـ/١٠٤٠م)

اعداد
د. احمد محمد الجوارنة
استاذ مساعد
جامعة اليرموك
قسم التاريخ

مقدمة

تحاول هذه الدراسة ان تكشف للقارىء الكـريم عن طبيعة البناء الاداري والتنظيمي لديوان العرض (الجند) في الدولة الغزنـوية وذلك في عهد السلطانين محمود بن سبكتكين الغزنوي وولده السلطان مسعود بن محمود الغزنوي ، كالبحث عن طبيعة ديوان العرض وتفاعلات القادة السياسيين كالسلاطين والوزراء وغيرهـم مع هذا الديوان ومعرفة نظام السبهسـالارية(قيـادة الجيس الاقليمـي)والكتخدا مـراقب ومشرف القـادة الاقليميين، ومعرفـة نظام الجاسـوسية والمعماة ومـاترتب على ذلـك من غـرس الهيبة والقـوة للاسرة الغزنوية، كذلك دور الحجاب في الحمـلات العسكرية، والاطلاع على دور ديوان الجيش في الحفاظ على وحدة الدولة ومعرفةعلى المخاطر المحدقة بها.

ومن اهداف هذه الدراسـة ان توضح ما لاسلحة الجيش الحربية من أهميـة بالغة الأثر على تطور الدولة الغزنوية ونهضتها.

ديوان العرض (الجند):

يعتبر ديوان العرض من أكثر المؤسسات الادارية التي اخذت من سلاطين الدولة الغزنوية كل اهتمام وعناية، اذ جعلوا كل مقومات الدولة : المالية ، الادارية ، البشرية والسياسية في خدمة هذه المؤسسة، التي حققت نجاحاً كبيراً في ايصالهم لحكم المشرق من العالم الاسلامي ، وتجاوزوا كل العقبات والتحديات التي واجهتهم اثناء شروعهم بتأسيس الدولة الغزنوية على انقاض الدولة السامانية المنهارة ، وطبيعة الحكم لا يتعدى كونه ممارسة للسلوك العسكري الخالص الذي طغى على الجانب السياسي في طيلة العهد الغزنوي في حكمهم للشرق الاسلامي ، والدولة الغزنوية لا تخالف بذلك معظم الدول الاسلامية الاخرى ، اذ كانت القوة العسكرية (الجيش) هي الوسيلة الوحيدة - على الاغلب - التي دفعت بهم الى السلطة والنفوذ ، ولا نشك بان القوة العسكرية كانت من الاهداف العليا لمعظم الدول الاسلامية ، والدولة الغزنوية واحدة منها ، وتؤكد الحملات العسكرية الواسعة النطاق ذلك والتي نهض سلاطين غزنة لها كمحمود ومسعود ، حيث تمكنت من اخضاع اقاليم آسيه الوسطى وايران وافغانستان والهند ، والتي زادت على ثلاثين غزوة او معركة بقيادة السلاطين مباشرة، على الاغلب.

ويعزز هذه التوجهات العسكرية لدى الدولة الغزنوية ، ما احاط بها من ظروف سياسية وعسكرية ، اسفرت عن نشوب صراعات محتدمة في تلك المنطقة بين السلاجقة الاتراك من جهة ، وبين الدولة الغزنوية من جهةثانية، اضف الى ذلك ما يتربص بالدولة من مخاطر جراء السياسة الفاطمية التي سعت الى احتواء الشرق الاسلامي، بما فيه دولة غزنة، لذلك خف السلاطين لتأسيس قوة عسكرية ضاربة في الشرق، لم تقف امام تلك العقبات والمخاطر فحسب ، بل وصلت الى مرحلة تجاوزت فيها كل المحاولات التي هددت سلامة وأمن واستقرار دولة آل سبكتكين وحققت انتصارات متلاحقة واحتوت كل المعضلات التي ظهرت بوجهها.

واذ جعلت الدولة الغزنوية ديوان العرض محط اهتمام مستمر في الابقاء على هيبة الدولة ونفوذها في الشرق، فان الدولة لم تتوان هنيهة عن مساندة المؤسسة العسكرية ودعمها بالاسلحة المتطورة والتجهيزات والمؤن ورفدها بالكفاءات العسكرية، فلم يكن الغزنويون اول من اطلق اسم العرض على ديوان الجند، فقد سبقتهم الى ذلك الدولة العبّاسية . فالخلافة العباسي المأمون (١) (١٩٨هـ ـ ٢١٨هـ/ ٨١٣م ـ ٨٣٣م) ، اول مؤسس لديوان العرض بهذه الصفة ، ويرى شوقي أبو خليل ان الخليفة العباسي الرابع هارون الرشيد(٢)(١٧٠هـ ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦م ـ ٨٠٩م) هو مؤسس هذا الديوان ، وهذا يشير الى ان الدولة العباسية قد سبقت الدولة الغزنوية في وضع ديوان العرض .

ولا يستبعد بان تكون الدولة السامانية،(٣) التي سبقت الغزنويين في حكم الشرق الاسلامي، قد تأثرت مباشرة بما تعاملت معه الدولة العباسية ، في جعله من النظم العسكرية التي يدور رحى الحكم عليها ، وبذلك تكون الدولتان العباسية والسامانية في اواسط آسية وايران ، قد حددتا المعالم الاساسية لديوان العرض، وعليه تتضح امامنا حقيقة ان الدولة الغزنوية في إتخاذها لهذا الاسلوب العسكري ، وجعله اساساً للحكم في الشرق ، انما بتأثير مباشر من الدولتين العباسية ، والسامانية (٤) ، اللتين سبق لآل سبكتكين الخدمة العسكرية في صفوف قواتهما المسلحة .

ونظراً لاهمية العرض في تدريب الجيش وتنظيمه ورفع معنويات الجند، فان السلاطين في دولة غزنة كانوا يتولون الاشراف على عرض الجند بأنفسهم للتأكد من سلامة هذه المؤسسة ومدى قوتها واستعداداتها الحربية والقتالية، ففي معظم المعارك والغزوات التي خاضها الجيش الغزنوي في اواسط آسية والهند ، أشرف السلطان محمود وولده السلطان مسعود بنفسيهما على استعراض الجيش وقيادته ، ويظهر ذلك من قيادتهما لمعركة سومنات في الهند سنة ٤١٦ هـ/ ١٠١٧م (٥) ، التي قادها السلطان محمود بنفسه، ومعركة دندا نقان (٦) التي قادها السلطان مسعود الغزنوي ضد السلاجقة الاتراك سنة ٤٣١هـ/ ١٠٤٠ م والتي هزم فيها الجيش الغزنو.ي. (٧) فنجد ان سلاطين غزنة اتخذوا من ديوان العرض هدفاً سامياً لتحقيق طموحاتهم واحلامهم السياسية التوسعية وهي كما اسلفنا ، المؤسسة التي وقفت وراء نشأة الدولة وتأسيسها على حساب الضعف الذى طغى على ملوك الدولة السامانية ، ووصول الغزنويين الى السلطة ، تم بمساعدة ودعم القوات التي تهيأت لهم من تأليفهم للقبائل الافغانية والتركية الموالية، والتي ارتبطت مصالحها بهم ، كما ان انتقال مركز النفوذ من بخارى الى غزنة ادى الى التوسع في بناء ديوان العرض.

اما علاقة السلاطين بديوان العرض ، فكانت علاقة وثيقة جداً، الى الحد الذي جعل منهم قادة عامين للجيش ، اذ تخضع هذه المؤسسة لاوامرهم وقراراتهم المباشرة ، حريصين يقظين على متابعة الديوان ومراقبة التطور في مؤسساته، فاختاروا أن يتولى منصب ديوان العرض اكثر القيادات العسكرية كفاءة ، واحرصهم على بقاء الدولة الغزنوية ، واكثرهم طاعة واعمقهم ولاءً للأسرة الغزنوية الحاكمة ، حتى ارتبط هذا الديوان بما يتخذه السلاطين من قرارات، سواء في تعيين رؤساء العرض ، والمشرفين عليه او بترتيب دوائره المختلفة.

كذلك مارس وزراء الدولة الغزنوية دوراً بارزاً في الاشراف على ديوان العرض ومتابعة احتياجاته المالية والبشرية (الجند) والاسلحة والذخيرة والمؤن والمرتبات، اضف الى ذلك، ان وزراء الدولة كانوا محط مشورة السلطان في إتخاذ القرارات العسكرية وما

يتعلق بشؤون الحرب من وضع للخطط ورسم للاهداف ، ويشاركهم في ذلك العارض (قائد الجيش)وكبير الحجاب ، لدى البلاط السلطاني. (٨) وتشير بعض المصادر الى تطور هام في ديوان العرض، ويتمثل ذلك في منح السلطان الوزراء سلطات مباشرة على هذه المؤسسة العسكرية ، فشارك الوزراء في الاشراف على ديوان العرض في كثير من الاحيان ، وابدوا اهتماماً واسعاً في الشخصيات المرشحة لتقلد هذا المنصب (قائد الجيش)، بحيث لم يكن هذا الاختيار عشوائياً بل يخضع في الغالب لتمحيص ودراسة متعمقة ، فعندما تم اختيار أبي سهل الزوزني عارضاً للجيش الغزنوي، أشار الوزير احمد حسن الميمندي على رجالات الدولة ليروا رأيهم فيه من خلال مواقفه المسبقة وأعماله وخدماته في الدولة بينما كان السلطان لا يمانع الوزراء في اختيارهم قادة الجيش لثقته المطلقة بهم(٩). ونجد ما تمتع به الوزير احمد حسن الميمندي من حرية مطلقة في اختيار عارض الجيش الغزنوي. فبوساطته تم تعيين أبي الفتح الرازي قائداً للجيش، فهو الذي زين للسلطان محاسنه وكشف عن كفاءته واخلاصه ، وعمق ولائه، فوافق السلطان واصدرمرسوماً بتعيينه عارضاً للجيش الغزنوي وألبسه خلعة رئيس ديوان العرض ، وتمنطق بالمنطقة ذات السبعمائة مثقال ، وأدى له اعيان الدولة ورؤساء الجند احسن فروض الطاعة وكان كما يقول البيهقي - رجلاً قديراً كفؤاً (١٠) . ومما يدل على مكانة الوزراء في هذه الفترة ، عدم اقتصار اعمالهم على اختيار قادة الجيش ورؤساء العسكر فحسب ، بل شاركوا في اعداد الجيوش وتسييرها للفتوحات ، وأحياناً تقع عليهم مسؤولية قيادة الجيش مباشرة كما حصل للوزير احمد عبد الصمد، الذي قاد جيشاً لفتح اصفهان بعد إعداد مالزم من الجند والعمال والاسلحة والفيلة والغلمان، وذلك بأمر من السلطان محمود الغزنوي(١١).

كذلك شارك وزراء االدولة الغزنوية اعيان الدولة ومستشاريها في اعداد القوات المسلحة الاعداد اللائق بمكانتها ، لإرسالها الى مناطق التمرد التي سعت الى الخروج عن طاعة الدولة وسلطانها . ويطلعنا البيهقي على حرص الوزير احمد عبد الصمد في جعل الجيش الغزنوي في اعلى درجات الجاهزية القتالية المتواصلة ودفع مرتبات الجند نقداً ، ونجح الوزير من خلال هذه السياسة في إعادة الأمن والاستقرار لمدنية بلخ التي ثار اهلها بتحريض من التركمان على النظام الغزنوي الحاكم(١٢) . ونلاحظ ايضا ان السلطان لم يكتف فقط باشراف الوزير على الجيش، بل اضطر احياناً الى تقليده قيادة الجيوش في المعارك ، كما حصل للوزير احمد عبد الصمد الذي شن حملة عسكرية شاملة لقمع الثورة في اقليم طخارستان ، ومنحه السلطان سلطات واسعة وجعل امراء الجيش وقادته بما فيه العارض تحت إمرته في هذه الحملة ، وبذلك حقق انتصاراً كبيراً في حملته ، ونشر الامن في طخارستان ، وعملاً بالامر السلطاني ولى اقليم طخارستان الحاجب الكبير بلكاتكين(١٣).

لقد برزت مكانة ديوان العرض من خلال الرعاية الفائقة لمؤسسة الجيش، فنظمت مصالح الجند ، وقام بالاشراف على مؤسسة الجيش الغزنوي، مما شكل عامل تطورونفوذ ونهضة للأسرة الغزنوية في الشرق ، وهذه الأسرة كانت على الدوام سبباً من اسباب تحقيق الانتصارات وخلق عامل الاستقرار في منطقة مليئة بالثورات والتمردات ، متباينة العروق والاجناس في اواسط آسيه (الجمهوريات الاسلامية المستقلة) وايران وافغانستان ثم جنوب آسية (الهند).

ومما تجدر العناية به، ان ديوان العرض أبدى اهتماماً متزايداً في تنظيم الجيش ، فأضحى من المؤسسات التي احتوت على العديد من الدوائر والوظائف الادارية ذات الطابع العسكري الخالص ، كعارض للجيش ، والسبهسالار (القائد الاعلى للجيش الاقليمي) والكتخدا (المراقب الامني للجيش الاقليمي) ، وبريد الجيش ، ونظام المعماة والجاسوسية ، هذه النظم وغيرها سيتناولها البحث إبانة وتوضيحاً.

العارض (صاحب ديوان الجند) :

العارض ، قائد الجيش (رئيس ديوان الجند) علم من اعلام الدولة المتنفذة بل ومن اعظمها مكانة عند السلطان الغزنوي ، اوكل اليه نفقات الجيش وارزاق الجند ، وكان له الحل والعقد والاثبات والاسقاط (١٤) . والحقيقة ان رئاسة ديوان الجند في الدولة الغزنوية لا تختلف من حيث الاهمية والمهام والاعمال والصلاحيات عنها في بقية الدولة الاسلامية الاخرى ، فهي كبيرة الشبه بانظمة الدولة العباسية ، ولا نشك بان الدولة الغزنوية تأثرت الى حد كبير باسلوب العباسيين والسامانيين العسكري والاداري ، ولذلك نجدها تعتمد نفس الشروط والمواصفات في اختيار العارض (١٥) .

والسلطان في الدولة الغزنوية كان القائد الاعلى للجيش ، فتقع عليه مهمة الاشراف المباشر في ادارة هذه المؤسسة ، واختيار من هو أهل لقيادة الجيش ، واقدرهم واخلصهم لتحمل أعباء المسؤولية ونذكر هنا ، ان السلاطين في هذه الدولة ، قادوا الجيوش بانفسهم في معظم المعارك واخطرها التي قامت بها الدولة الغزنوية في الشرق.

كان صاحب ديوان العرض من اكثر الشخصيات حظوة واهمية لدى البلاط السلطاني ، وكان سلاطين غزنة يدركون خطورة هذه المسؤولية، فلذلك كان من يقع عليه تمثيل هذا المنصب الهام ، الاتصاف بمواصفات فريدة لا يمكن توافرها إلا في النخبة من الرجال والقادة ، فجعلوا العلم والمعرفة والكفاءة والقدرة التنظيمية والشجاعة والاقدام، علاوة على الانتماء المتجذر والولاء المطلق الصريح للاسرة الحاكمة ، من الشروط التي ينبغي ان تلازم شخصية من يتولى ديوان العرض ، لان مصير الدولة معقودة بيده وبقاء هيبة الملك وسيادة الأسرة الغزنوية مرتبط بوفائهم واخلاصهم ومن هنا، ندرك اهمية منصب ديوان العرض، خصوصاً عندما نطلع على المهام الكبيرة والمسؤوليات الكثيرة التي انيطت به :

١ ــ التدخل في حسم المعضلات وحل القضايا الخطرة ذات المساس المباشر على استقرار الدولة وأمنها(١٦).

٢ ـ المشاركة في خوض المعارك الحاسمة والمصيرية ، وقيادة المعارك بنفسه في غيبة السلطان ، كما حدث مع العارض الرازي في حرب السلاحقة في مرو(١٧).

٣ ـ الاضطلاع بمهام ترشيح الامراء لولاية العهد ، كما فعل العارض ابو القاسم كثير عندما رشح الامير محمد بن محمود الغزنوي خليفة لابيه على عرض الدولة الغزنوية(١٨).

٤ ـ المشورة في تعيين حجاب الدولة ، لاسيما حجاب السلطان ، وإبداء الرأي في تعيين الوزراء ، ونشير هنا الى دور العارض الزوزني باعادة الوزير احمد حسن الميمندي لمنصب الوزارة(١٩).

٥ ــ الاشرف على تسيير الجيوش نحو المناطق والثغور ، والاشراف على قيادات الاقاليم الاخرى(٢٠).

٦ ـ إعتبار العارض المرجع الاول في كل شأن يتعلق بامر الدولة ، إذ امسك بناصية الامور ، ونظم الجيش ورتب شؤونه الادارية وعمل على اثبات اسماء الجند واعطياتهم واختيار الاكفاء والاقدر على القتال والحرب(٢١)، فكانت اكثر خلوات السلطان مع العارض ، لانه وحده كان يصرف الامور وينهي المعاملات ويقر المصادرات(٢٢) .

٧ ــ استقبال الرسل والوفود الاجنبية بصحبة السلطان ، لا سيما رسل الخلافة العباسية ، ورسل القادة والزعماء الاتراك في اواسط آسية ، والمشاركة في معظم الاحتفالات والمآتم التي كانت تقام للأعيان والاكابر في الدولة نيابة عن السلطان(٢٣).

٨ ـ واحياناً يقوم بمهام واعمال صاحب ديوان الانشاء ، كما حصل مع العارض الزوزني عندما قام باعمال هذا الديوان بعد وفاة نصر بن مشكان على ان يبقى البيهقي (المؤرخ) نائباً عنه وخليفة له (٢٤).

عطفاً على ماسبق، يتبين ان المهام والمسؤوليات التي مارسها عارض الدولة الغزنوية ، عكست مكانته واهميته كقائد للجيش ، وابرزته ايضاً كشخصية بالغة الخطورة في نجاح سياسة الدولة الداخلية والخارجية . لهذا حرص سلاطين غزنة ، على ان يكون العارض قديراً وخبيراً وشجاعاً إضافة الى ولائه المطلق للأسرة الحاكمة ، وندرك هنا ، معنى ان تحتفل اجهزة الدولة بقادة ورؤساء ديوان العرض حيث احيطوا بهالة عظمية من الاحترام والتقدير وجعلتهم يمتازون على سائر الموظفين في الدولة ، ويكشف المؤرخ البيهقي الذي عاصر الدولة الغزنوية فترة طويلة من الزمن ، عن الاحتفالات الكبيرة التي كان يدعو اليها السلاطين بمناسبة تعيين وتنصيب العارض ، فيورد في هذا المضمون

« لما تم تعيين أبي سهل الزوزني لديوان العرض ، كـان السلطان قد أشار عليه بالتقدم نحوه ، حيث قبل الـزوزني الارض ثم انصرف، فذهب به اثنان مـن الحجاب احدهما من داخل السراي (القصر) والأخـر من خـارجها الى خـزانه الملابـس ، حيث ألبسـوه خلعة فـاخرة للغـاية اعـدت له ليـلاً ، من جملتهـا منطقة ذهبيـة بسبعمائة مثقال . ثـم مثل امـام السلطـان وادى التحية والاحترام فقـال لـه السلطان : «بـورك لـك، أذهـب الى الوزيـر ولتعمل بمشورتـه في تنظيم امور الجند، فانـه من اهم الاعمال» ، فقال ابـو سهل :« سمعاً وطاعـة» ، وقبل الارض وذهـب رأسا الى ديـوان الخواجة (الـوزير) ثـم رجع الى داره ، فسارع اليه جميع الاكابر والاعيان والحشم والموالي وحملوا اليه مالاً كثيراً»(٢٥).

لم تحتفل الـدولة الغزنويـة بابي سهل الـزوزني كعارض للجيش فحسب ، بـل جعلت الدولة ذلك عرفاً رسمياً ، فاحتفلت كـذلك بابي القاسم كثير عارض الجند ايام السلطان محمود الغزنـوي ، والعارض ابو الفتح الـرازي . ويلاحظ ان الخلعة التـي تمنح للعارض واحدة، عبارة عـن منطقة ذهبية بسبعمائة مثقال (٢٦)، اضف الى ذلك ان الـدولة منحت العارض القاباً مختلفة ، فاحياناً كان ينعت بالوزير(٢٧) ، واحياناً اخرى بالخواجة (٢٨) ، وهي السائدة والشائعة ايام الغزنويين.

السبهسالارية : (قائد الجيش الاقليمي):

نلاحظ انه مع توسع الدولة الغزنـوية وامتداد نفوذها في اواسط آسية والهند ، قد دفع بسلاطين غـزنة الى وضـع نظام عسكـري متين، للمحافظـة على استقرار وأمـن الاقاليـم التابعة للـدولة ، وضمان ابقاء تلك الاقـاليم المترامية ، تديـن بالولاء والطاعـة . ولتحقيق هذا الهدف البعيـد ، باشرت الدولـة الغزنويـة بتطبيق نظـام السبهسالارية ، كقيـادة عليا للجيش في الاقاليم والولايات التابعة لحاضرة الدولة في غزنة . ويبدو ان هذا الضرب من انظمة المؤسسة العسكرية لم يكـن فريداً ، والدولة الغزنوية ليسـت اول الدول الاسلامية تطبيقاً وتنفيذاً لهذا النظام ، بل وقعت دولة آل سبكتكين تحت تأثير الدولة السامانية التي كان يخدمهـا الامير سبكتكين مؤسـس الدولة الغـزنويـة. على ان قيادة الجيـش الاقليمي كانت احيـاناً من مهام ولاة المنـاطق والاقاليم ، لكنهـا عند الغزنويين في الأغلـب وظيفة عسكرية مستقلة تمامـاً عن سلطة ولاة الاقاليم ، فعين لها سلاطين غـزنة قادة متخصصين في الشؤون الحربية، يقومون على رعاية المؤسسة العسكرية والامنية وترتيب شؤون الجند.

ومن خلال قراءتنالرواية المؤرخ الجوزجاني، نلاحظ ان الامير سبكتكين كان قد خدم سبهسالاراً في الجيش الساماني الى جانب مهمته كأمير ،فقد اختاره الملك الساماني منصور الثاني (٩٩٧ ـ ٩٩٩) اميراً وسيهسالاراً على غزنة وما يتبعها من اراضين وذلك في العشرين من نيسان سنة ٩٧٧ م (٢٩) ،وكذلك عين ولده الامير محمود قائداً للجيش الاقليمي على اقليم خراسان سنة ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠م(٣٠) . يوم كان في خدمة الدولة السامانية، التي اسندت اليه مهمة القضاء على أبي علي سيمجور الذي اظهر عصيانه وتمرده على الدولة السامانية ، واشاع في نخشب (من اعمال خراسان) الفساد والظلم ، ولتحقيق ذلك امرّه الملك الساماني سيهسالارية خراسان ومن يومها، لقب محمود بسيف الدولة (٣١).

ندرك من خلال الخدمة التي قدمها سبكتكين وولده محمود، سواء في اقليم غزنة ام في خراسان ، أنها اكسبتهم خبرات واسعة في معرفة النظم والمعارف العسكرية ، وتعمقت لديهم طرق المعرفة الحربية والثقافة الامنية ، هذه التجربة جاءت وليدة كفاح ونضال وشجاعة فائقة بدت ملامحها تظهر من خلال السياسة التي انتهجها محمود الغزنوي ميدانياً، في قضائه على الدولة السيمجورية التي حاولت جاهدة الخروج على السامانيين من خلال إثارة الكثير من الازمات أمامهاوخلاص الدولة السامانية من ذلك ، وعلى يد الامير محمود ، تحققت شهرته ، واصبح ذا شأن عظيم في خراسان . وهنا يشير المؤرخ البيهقي الى ان حرص الامير محمود وتعلقه بمدينة غزنة(امارة والده) حثّه وشجّعته على ارسال كل صاحب خبرة او معرفة بصناعة او حرفة من نساء ورجال خراسان الى مدينة غزنة ، فكان العالم الشهير ابو صالح التبّاني احد هؤلاء(٣٢).

تلك التجربة العسكرية والادارية التي اكتسبها الامير محمود ووالده من قبل ، وذلك قبل تأسيس الدولة ، شكلت بذلك عاملاً هاماً من عوامل نجاح الغزنويين في الاستيلاء على ارث السامانيين بكل سهولة ويسر ، سيما اذا عرفنا حالة الضعف السياسي والاداري الذي كانت تعيشه الدولة السامانية في اواخر عهدها في حكم الشرق ، ونفاذ ارادة آل سبكتكين في اقليم خراسان وغزنة، وهما من الاقاليم الهامة التي تبعت للسامانية في السابق، وتجدر الاشارة في هذا السياق ، الى ان الدولة الغزنوية بعدما قضت على السامانية، عملت على تنظيم الاقاليم والسيطرة عليها من خلال المؤسسة الادارية المتمثلة بالولاة والمؤسسة العسكرية المتمثلة بالسيهسالار ، فكانت الولايات والاقاليم كالهند ، والعراق العجمي ، والري وبلخ وطخارستان ، وخراسان ، وخوارزم ، اضافة الى افغانستان (غزنة) مقر الحكم الغزنوي ، قد ضبطت شؤونها ومواردها ، وضمنت ولاءها وطاعتها من خلال تعيين قيادات عسكرية اقليمية او مايعرف بالسيهسالار .

الهند :

نلاحظ في الاعوام (٣٩١هـ - ١٠٠٠م) و (٣٩٢هـ - ١٠٠١م)و (٣٩٦هـ - ١٠٠٥م) و ٣٩٨هـ - ١٠٠٧م) (٣٣) وغيرها ان السلطان محمود الغزنوي قاد حملاته العسكرية الواسعة النطاق على الهند لضمها الى الحكم الغزنوي ، يدفعه الى ذلك بواعث كثيرة منها ، ضعف الكيان السياسي للهند ، والباعث الديني الذي اراد من خلاله محمود نشر الاسلام في الهند بعدما ضعف شأن العرب في اقليم السند والملتان وبواعث اقتصادية اذ كانت الهند تشكل مصدراً هاماً من مصادر الاثراء المادي لما تتمتع به من خبرات كثيرة . فتحولت الهند الى ولاية اسلامية للمرة الاولى . ولاهمية الهند الاقتصادية ، سارعت الدولة الغزنوية الى تنظيمها من خلال تعيين حكام اداريين وقادة عسكريين فيها ، فاقامت اريارق الحاجب الغزنوي حاكماً وسيهسالاراً على الهند ، وكان هذا القائد من غلمان السلطان محمود ، اذ خدم في بلاطه سنوات، حتى امرّه محمود على جيش الهند ، وادى واجبه بقمع الثورات والقوى الهندية المناوئة ، الا انه استبد بالامور مما دفع بالسلطان الى ان يطلبه للمثول في بلاطه في غزنة، لكن وفاة محمود الغزنوي منحت اريارق الحاجب فرصة الاستمرار بحكم الهند، حتى جاء مسعود سلطاناً جديداً ، وقبض عليه سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١م وأودعه مكبلاً في قلعة غزنة.(٣٤) ويعلل البيهقي سبب غضب الدولة على حاكم الهند ، لأنه بدأ ينفذ عصياناً مسلحاً وسفك دماء برئية من المسلمين وغيرهم ، وقام بقهر الناس وزرع في قلوب اتباعه الخوف والذعر ، وارهقهم بالضرائب وجمع الاموال الخاصة به. (٣٥) ثم وقع اختيار الدولة على القائد احمد نيالتيكين ليتولى امارة الهند وقيادة الجيش فيها ، حيث فوض السلطان جميع امور الهند لامره ، مما دفع بهذا القائد الى القيام بحملات عسكرية واسعة في ارجاء الهند قاصداً ، اعزاز جانب الدولة الغزنوية وترسيخ هيبتها في النفوس ، وكسب شهرة ومودة لدى سلاطين غزنة .فاخضع مدينة بنارس من ولاية الكنج ، وهي من المدن التي ظلت في منأى عن الفتوحات الاسلامية ، فأثرى الجند في هذه الغزوة ، اذ حصلوا فيها على اموال طائلة.(٣٦) وقد اثار هذا الانتصار والتفوق العسكري اللذان ابداهما احمد نيالتيكين نزعة نحو العصيان والتمرد على سلاطين غزنة، (٣٧) مما أوغر صدر السلطان مسعود الغزنوي الى ا التخلص منه بشتى الطرق والوسائل ، واستمرت جهود الدولة باقصى درجاتها للقضاء عليه فقتل بعدما راهن على الاستقلال عن سلطة غزنة ، واحتفلت الدولة بهذه المناسبة احتفالاً كبيراً ، حيث دقت الطبول ونفخت الابواق ووزعت الخلع والهدايا على الناس كافة فرحاً وابتهاجاً في التخلص من عدو هدد أمن الدولة وسيادتها على الهند(٣٨).

العراق العجمي والري:

كان السيهسالار تاش فراش ابرز القادة العسكريين الذين انيطت بهم مهمة الجيش الاقليمي في العراق العجمي وبلاد الري والجبل، واعتبر من الشخصيات المقربة للسلطان محمود الغزنوي (٣٩) ، وهو السبب الذي اقنع السلطان مسعود بن محمود ليؤدي اعمال هذا المنصب، مضافاً الى ذلك الاعمال الكبيرة والناجحة في توطيد الامن والاستقرار في نواحي الري. ولقد خاطبه السلطان حينما وقع اختياره عليه لقيادة الجيش الاقليمي في الري والجبل: انك كلما ازددت اخلاصاً في خدمتنا، امرنا لك بازدياد المنزلة والجاه والرعاية ، فقبل تاش فراش الارض وقال: ما كان العبد مستحقاً هذه المرتبة وهذا الجاه، وقد كان من اقل العبيد فتفضل عليه مولاي بما يقتضيه جلاله ، وسأبذل قصارى جهدي طالباً التوفيق من الله عز وجل(٤٠). واحتفاء بتوجه تاش فراش الى العراق العجمي، قرعت الطبول والكوسات ونفرت الابواق (٤١) والحق به اربعة الاف فارس استطاع بهم السيطرة على الري والجبل بعدما قضى على آمال ابن كاكو وجعله واتباعه من كل الاطراف يذعنون اليه ولسلطان الدولة، بالطاعة والولاء (٤٢). وظل منظماً لهذا الاقليم محافظاً على امنه وولائه حتى وفاته سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧

طخارستان وبلخ:

من الاقاليم التي استقطبت اهتمام سلاطين غزنة ، ولاسيما قربها من قبائل التركمان والسلاجقة، الذين يوقدون الفتنة وينسجون المؤامرات بوجه الدولة الغزنوية سنين طويلة ، لذلك فقد اسندت الدولة قيادة جيش هذه الاقاليم لاكثر قادة الدولة العسكريين كفاءة وشجاعة وخبرة ، فكان اشهرهم علي داية الذي عينه الوزير احمد حسن الميمندي (٤٤). فألبس خلعة امارة الجيش سنة ٤٢٣هـ/ ١٨٣١م (٤٥)، متقلداً ولاية وامارة الجيش بعد مقتل سيهسالار ترمز وطخارستان القائد بكتكين الذي شغل هذا المنصب ايام السلطان محمود الغزنوي ، حيث كانت نيسابور وروستاق من اعماله ايضاً(٤٦). وقد ساهم علي داية في القضاء على السلاجقة في سرخس وعلى التركمان في ختلان، وكان سبباً في قمع تحركاتهم والسيطرة على بلادهم.

خراسان:

يعتبر هذا الاقليم من اكثر واهم الاقاليم التي خضعت للحكم الغزنوي من ناحية موقعه الجغرافي الاستراتيجي الهام وكثرة موارده الاقتصادية والزراعية ، إذ يقع بين ايران وافغانستان وتركمانستان، مما جعله يشكل اهمية بالغة ليصبح ثغراً ترتبط به سلامة الدولة الغزنوية وامنها الداخلي والاقليمي، وقد اعتبرت الدولة الغزنوية بسط النفوذ على هذا الاقليم يعني لها بداية السيادة المطلقة على الشرق، ولذلك فقد تولى السلطان محمود الغزنوي سيهسالارية اقليم خراسان سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م. قبل ان يعتلي عرش الدولة الغزنوية ، كذلك برزت قيادات عسكرية هامة لعبت دوراً كبيراً في اضفاء السيادة الاسلامية للدولة الغزنوية على الشرق، كالقائد العسكري« الغازي الحاجب» الذي اثبت مقدرته وبراعته في تنظيم جيش خراسان ، وعمل على نشر الامن والاستقرار في هذا الاقليم الذي غلب عليه طابع التمرد والعصيان ضد الدول التي تعاقبت على سيادته (٤٧)، فكانت تلك السياسة الناجحة التي ابداها الحاجب الغازي مدعاة لبروز شخصيته وشهرتها ، مما جعله من القادة المقربين للسلطان محمود الغزنوي، الا ان وشاة القصر أوغروا صدر السلطان وتسببوا في القضاء عليه(٤٨).

خوارزم:

لاتقل همية اقليم خوارزم عن بقية الاقاليم الاخرى التي خضعت لسلطان الدولة الغزنوية ، ان لم يكن اكثرها اهمية، فهو ثغر الدولة الشمالي، واخطر الثغور التي خلقت صعاباً وازمات حادة في وجه الدولة، فقد ذكر القلقشندي في انه يحيط بهذا الاقليم من الغرب بلاد الترك، وجنوباً خراسان ومن الشرق بلاد ما وراء النهر،ومن الشمال بلاد الترك ايضاً(٤٩).

انتدب السلطان محمود الغزنوي الامير التركي التونتاش والياً على هذا الاقليم الى جانب منصب قيادة الجيش الاقليمي، وذلك بعد خضوع خوارزم للسيطرة الغزنوية (٥٠) وكان التونتاش على درجة عالية من الشجاعة والاقدام وله باع طويل في فنون الجيش والادارة ، مما جعل السلطان محمود يعتمد عليه اعتماداً كلياً في معظم غزواته العسكرية التي جردها على بلاد الهند واواسط آسية، فعينه اميراً للحجاب قبل ان يتولى امارة خوارزم وقيادة جيوشها ، ومن حينها لقبه السلطان بخوارزم شاه(٥١)، فكان لنجاح التونتاش في السيطرة على اقاليم عديدة في الشرق، واخلاصه المطلق وولائه الصريح للاسرة الغزنوية ولسلطانها محمود الغزنوي ، سبباً في ان يحتفظ به السلطان

مسعود والياً وقائداً عسكرياً على اقليم خوارزم. فقد امر مسعود الغزنوي بمنحه خلعة فاخرة جداً اعظم مما كان في عهد السلطان محمود (٥٢)، من خلال الحرص الكبير على المؤسسة العسكرية متمثلة بديوان العرض والسيهسالارية. الذي ابداه سلاطين غزنة، تظهر اهمية هذه المناصب في نجاح معظم السياسات التوسعية للدولة واعتمادها بشكل جذري على كفاءة وبراعة من يقوم بهذه المهام، من هنا ندرك المرتكزات الاساسية التي جعلها سلاطين غزنة شروطاً في غاية الاهمية لاختيار من يمثلون القيادات العسكرية في الاقاليم. فإلى جانب قوة العلاقة ومتانتها التي ربطت السلطان بهم (٥٣)، فانهم كانوا ينظرون الى اكثرهم خدمة للدولة كالعمل في الجيش ومشاركة الحملات العسكرية في الاقاليم(٥٤)،فانهم ايضاً جعلوا الكفاءة والشجاعة والشهامة شروطاً ينبغي ان تتوفر في شخص السيهسالار . لأنه سيؤدي مهاماً كبيرة ينوب في معظمها عن السلطان ، كحماية الثغور ومحاربة الخارجين والعصاة، والحفاظ على موارد الدولة المالية المتمثلة في الخراج الذي كان عماد اقتصاد الدولة الغزنوية، اضف الى ذلك تكليف بعضهم ــ كسيهسالار خراسان والعراق ــ بمراسم استقبال وتوديع رسل الخليفة العباسي القادر بالله ، كما حصل مع الحاجب الغازي سيسهالار خراسان سنة ٤٢١ هـ/ ١٠٣٠م (٥٦).

كانت شخصية السيسهالار من الاهمية ما جعل (الدركاه) البلاط السلطاني يحتفي بها احتفاءً رسمياً، وجعل لذلك طقوساً ومراسم، خاصة بهم، وخلعاً مميزة اشتملت على:

« منطقة ذهبية وقبعة ذات ركنين وسرج ذهبي بألف مثقال وعشرون غلاماً ومائة الف درهم وستة افيال فحول وثلاثة اناثاً، وعشر بذلات خاصة وكوسات وراية »

وجرت العادة عند سلاطين غزنة عقب الباس السيهسالار ، خلعة قيادة الجيش الأقليمي ، احضار القائد الى الدركاه (البلاط)، حيث يقابل السلطان، ويخاطبه بقوله:

« بورك لك ولنا، ان هذه الخلعة خلعة سيهسالارية (كذا) وانك تعلم ان لنا خداماً كثيرين...وانما وقع اختيارنا عليك لتشريفك بهذا المنصب الجليل لأنك خدمت في (بلاد كذا) وكنت قائدنا ، فكلما ازددت اخلاصاً في خدمتنا أمرنا لك بازدياد المنزلة والجاه والرعاية» بينما يقوم السيهسالار فوراً ويقبل الارض جرياً على عادة المراسيم المتبعة في الدولة ، ويقف مخاطباً السلطان.

« ما كان العبد مستحقاً هذه المرتبة وهذا الجاه، وقد كان من أقل العبيد، فتفضل علي مولاي بما يقتضيه جلاله ، وسأبذل قصارى جهدي طالباً التوفيق من الله عز وجل»، ثم تقرع الطبول عندما يسير السيهسالار الى الاقليم الذي يتولى قيادة الجيش فيه، وتدق الكوسات النحاسية وترتفع اصوات الابواق(٥٨).

الكتخدا:

كان الحرص الشديد على أمن الدولة الغزنوية واستقرار مؤسستها العسكرية ، إضافة الى ما ينسج لها من مؤامرات ويخيطون من دسائس من قبل السلاجقة والتركمان ، عاملاً رئيسياً دفع بسلاطين غزنة الى وضع نظام عسكري غاية في الدقة والاحكام، يعرف هذا النظام « بالكتخدا»، الذي يتولى مهام الاشراف الامني على قطاعات الجيش ومراقبة احوال الجند وارزاقهم، كما وله الامر المطلق على قيادات الاقاليم العسكرية المتمثلة بالسيهسالار. فما من قائد عسكري لأي اقليم من اقاليم الدولة الا وألحق به كتخدا بصفته المسؤول عن تحركات القادة والجنود، اذ هي العين التي تبصر وتنفذ هذه المهام بامر رسمي من السلطان. وقد أوضح ذلك المؤرخ البيهقي الذي قال: ان الكتخدا كان يراقب (السيهسالار) وهو الموكل بالشؤون الخاصة لمن يلحق به من السيهسالارية ، ويكون صاحب الحل والعقد والخفض والرفع والامر والنهي» (٥٩) ولم يجد سلاطين غزنة بدأ من اتخاذ هذا النظام اساساً من اساسيات الضبط الامني والعسكري لمؤسسات الجيش ، وادرك معظمهم ان الامور لن تستقيم في الاقاليم ما لم يمارس الكتخدا مهامه ويراقب الاوضاع عن كثب (٦٠)، وذلك بسبب حالة الاقاليم العامة التي ابدى الكثيرون من سكانها تمرداً وعصياناً على نظام الدولة الغزنوية القائم. ولولا حنكة هؤلاء السلاطين وبراعتهم القيادية لكانت عاملاً يقوض اركان الدولة ويحجم نفوذها على اكثر الاقاليم ، بالاضافة الى تمرد بعض الولاة ، والقادة العسكريين على سيادة الدولة، فاصبحت وظيفة الكتخدا ضرورة حتمية فرضتها طبيعة الظروف التي تمر بها الدولة الغزنوية ، وذلك للحفاظ ما امكن على وحدة الجيش الغزنوي، ولضمان ولاء الاقاليم والاطراف للاسرة الغزنوية ، لاسيما تلك الاقاليم التي شكلت اهمية سياسية واقتصادية كبرى، كالهند ، وخراسان ، وخوارزم، التي فيها كانت ولادة القوة الاقتصادية والعسكرية للدولة، حتى اصبح الكتخدا من اكثر الشخصيات اهمية لدى السلطان، ورمزاً من رموز الدولة الذي ارسى دعائم قوتها وانتشار هيبتها في الشرق. وكان سلاطين غزنة حريصين على اختيار الثقات والاكفاء وعلى العناصر القيادية البارزة لتنفيذ مثل هذا الدور الخطير ، حتى انهم لم يدعوا ابناءهم ، ولاة المناطق وحكام الاقاليم، من دون مراقبة. فقد الحق السلطان مسعود الغزنوي الكتخدا ابو سهل الزرزوني سنة ٤٢٤ هـ/ ٢٠٣٣ م للأمير سعيد بن مسعود، وامره السلطان ان يكون صاحب الحل والعقد والخفض والرفع والامر والنهي بيده، وأمر ولده الامتثال والانصياع لنهج الكتخدا وارشاداته (٦١). وتقلد أبو سعيد سهل منصب كتخدا وصاحبَ ديوان العرض فترة للأمير نصر بن سبكتكين، شقيق السلطان محمود، وقد عهد السلطان محمود اليه بعد ان توفي الأمير نصر، بالقيام على

شؤون ضياع غزنة كلها، وقد كان هذا العمل من حيث اهميته يعدل عمل صاحب الديوان في غزنة. واستمر ابو سعيد في هذه الخدمة مدة طويلة، الى ان توفي السلطان محمود ، فاسند اليه السلطان مسعود عمل صاحب ديوان العرض بالاضافة الى عمله في مباشرة الضياع السلطانية. وقد ظل خمسة عشر عاماً في مراقبة هذه الشؤون الى ان امر السلطان يوماً بمحاسبته محاسبة المستوفين فبلغت الاموال سبعة عشر الف الف درهم (٦٢). وممن تقلد وظيفة الكتخدا، طاهر الكاتب، كتخدا الجند في الري، الحق بسيهسالارية تاش فراش سنة ٣٢٤ هـ/ ١٠٣٣م (٦٣)، وابو الفتح مسعود، كتخدا الامير مودود بن مسعود(٦٤)، وعبدوس، كتخدا العسكر في خوارزم عند التونتاش(٦٥)، وسعيد الصراف، كتخدا الحاجب الغازي قائد الجيش في هراة وبلخ (٦٦)، واحمد عبد الصمد ،كتخدا علي داية سيهسالار طخارستان وبلخ (٦٧)، وابو الحسن الشيرازي، كتخدا الجيش في سيهسالارية احمد نيالتكين في الهند (٦٨).

نجحت الدولة الغزنوية بتطبيق هذا النظام، فقد حرص معظم من تولوا هذا المنصب على حماية واستقرار البلاد، ومارسوا سلطات واسعة للوصول الى ذلك الهدف، الا ان خطورة واهمية هذا المنصب البالغتين دفعتا ببعض الكتخداه الى ممارسة شتى ضروب القمع والارهاب، فانعكس سلباً على مصالح الدولة. فمنهم من لجأ بتنفيذ تلك السياسة الطائشة ويثري ثراءاً فاحشاً على حساب الجيش والدولة. ففي سنة ٤٢٤ هـ/ ١٠٣٣ م، جاءت الكتب تترى من الري بان طاهر الكاتب، كتخدا الري ونواحيها قد انغمس في اللهو والشراب والمجون ، وبلغ من تهتكه انه اخذ ينشر الورد في موسمه يوماً بشكل لم يعهد عن غيره من السلاطين . فقد كانت الدراهم والدنانير مبثوثة بين اوراق الورد وبلغ من السخف ـ كما يقول البيهقي ـ غايته حيث أمر باحضار اواني الشرب الذهبية والفضية وربطت بحبال من حرير وتمنطق بها كأنها منطقة ، ووضع على رأسه تاجاً نسج من الياسمين والورد الجوري .حتى ان قائد الجيش اقتدى به في اللهو والطرب(٦٩). وقد خشي السلطان مسعود ان تفقد الدولة هيبتها في خراسان نتيجة هذه الاعمال الخراقاء، التي بدأت من تأثير الكتخدا طاهر الكاتب، مما دفع بالسلطان الى احضاره الى مدينة غزنة، حتى لاتبلغ اخباره الاعداء، ولو انها بلغتهم وعرفوا ان التخدا المشرف على الاعمال والاموال والتدبير يعيش على هذا النحو من الفساد لن تبقى هيبة للحكم (٧٠). وقام السلطان بعزله واستبدله بابي سهل الحمدوي، لانه صاحب كفاية وحنكة وذو شهامة وله تجربة في خدمة الدولة فقال السلطان مخاطباً ابا سهل:

« إنا قد عجمنا عودك في كل ما عهدنا به اليك فوجدناك شهماً وكفؤً واهلاً للاعتماد عليك، وان اعمال الري وما والاها من اهم الاعمال ، ولا يتأتي من طاهر الكاتب القيام بها. وقص عليه احواله، ثم قال له: « إنا قد اخترناك بدلاً منه ، فانصرف وتأهب للسير

وستأمر بما ينبغي»،... فقبل ابوسهل الارض وقال:« قد كنت اود ان استمر بالخدمة في البلاط ولكن لا رأي للخدم وانما الأمر لمولاي، فإن يأذن لي السلطان فإني اجلس للتشور مع الوزير ابي نصر واكتب شروط العهد، واطلب كل ما ينبغي، فانه حسبما سمعت، قد تأزمت الاحوال هناك، وكتب ابو سهل الحمدوي شروط العهد كاملة في كل باب (وكان يجيد الكتاب) وعرض ابو نصر العهد، فاجاب السلطان بخطه قائلاً:

« اولاً ينبغي ان يكون لابي سهل هناك جاه عريض.

ثانياً: عليه أن يكون ذا مهابة وأبهة وذا تبصر تام».

ثم امر السلطان بان تعد له خلعة مما يعد للوزراء، اذ كان فيها المنطقة (الكمر) والمهر عشرة غلمان من فرسان الترك ومائة الف درهم ومائة ثوب، وامر بان يخاطب بالشيخ العميد(٧١). وقد بلغت مظاهر الاحتفاء بالكتخدا حدا أظهرت لاعيان الدولة ووزرائها وكبار قادتها العسكريين عظمة الكتخدا ومدى حاجة السلطان لخدماته. ففي يوم الثلاثاء لست خلت من جمادى الثاني سنة ٤٢٤ هـ/ ١٠٣٣م لبس ابو سهل الحمدوي الخلعة بعد الاستقبال، ودنا من السلطان وقبل الارض وقدم له عقداً من الجوهر واجلسوه، فقال السلطان:« بورك فيك». واعطاه خاتماً عليه اسم السلطان، وقال:« هذا خاتم ملك العراق (العراق العجمي والري) وضعناه في يدك، فأنت خليفتنا في تلك الديار والأمر لك من بعد أمرنا في الجيش والرعية في كل ما يؤول لصالح البلاد والعباد، فسر في عملك بجنان ثابت، فقال ابو سهل:

« سمعاً وطاعةً وسوف أبذل قصارى الجهد ملتمساً من الله التوفيق للوفاء بهذه الثقة الغالية»، ثم قبل الارض وانصرف الى بيته حيث وافاه العظماء جميعاً وادوا حق قدره (٧٢)، ثم أمر السلطان بتعيين والده الامير سعيد سيهسالاراً على الري والعراق العجمي ويكون الحمدوي كتخداه(٧٣).

الجاسوسية والمعماة:

تنبه سلاطين غزنة الى ضرورة احتواء الدولة الغزنوية بأقاليمها الواسعة واهتماماتها الكثيرة في الشرق وتوثيق عرى الوحدة السياسية لتلك الاقاليم، التي خضعت لسلطانهم في اواسط آسية والهند، بوضع نظام أمني تمثل بنظام الجاسوسية والمعماة، الذي أشرف على تنظيمه ومتابعة نشاطاته المتشعبة السلطان والعارض. وهذا اكسب العاملين في هذا الجهاز الامني اهمية فائقة. من خلال تحركاتها ونشاطاتها التي شملت كل الاقاليم، كالهند، وافغانستان، وخراسان، وخوارزم والعراق العجمي والري وبلاد ما وراء النهر، فتمكنت الدول من ضبط حالة الامن، لاسيما في الثغور التي كانت تخترق من قبل الثوار

والمتمردين ، كاقليم خراسان وخوارزم، في حين لم تكن الدولة الغزنوية لتنفرد في تطبيق هذا النظام، بل ساد ذلك زمن الخلفاء العباسيين، الذين جعلوا من نظام التجسس خير وسيلة لمعاقبة ومطاردة الخارجين على سيادة الدولة(٧٤)، مما تسبب في شيوع الرهبة والخوف في صفوف المواطنين وبناء هيبة الدولة المترهلة. ولايستبعد ان تكون الدولة الغزنوية قد وقعت تحت تأثير النمط السياسي العباسي، وجعلته مؤسسة لتدعيم سلطانهم ونفوذهم في الشرق.

كان نظام الجاسوسية دقيقاً لدى الدولة الغزنوية ، وكان يرتبط بالبلاط السلطاني وديوان العرض برباط وثيق، فقد أوضح المؤرخ البيهقي في تاريخه الى اي حد كان نظام الجواسيس دقيقاً ايام السلطان مسعود الغزنوي، فيحدثنا ان السلطان مسعود حرص على بث رجاله وعيونه بين السواس الذين صحبوارسول الخليفة العباسي، متنكرين لينهوا كل ما يروه ويشاهدوه، قلّ ذلك ام كثر الى الحضرة السلطانية، ويؤكد ان السلطان مسعود كان آية في مثل هذه الامور(٧٥).

من هنا، لاحظ وزير الدولة السلجوقية نظام الملك الطوسي(ت ٤٨٥ هـ)، قوة نظام الجاسوسية لدى الدولة الغزنوية وتطوره ، فحداه ذلك الى اسداء الارشاد والنصح للسلاطين السلاجقة لينهجوا نهج الغزنوية في تطبيق نظام التجسس والمعماة، الذي افاد السلاجقة فائدة كبيرة ، ليصبح مؤسسة قوية، دعمت النظام وساهمت في سيطرته على الشرق، وأشار كذلك الى الاسلوب الذي تعاملت به الأسرة الغزنوية في توزيع الجواسيس نحو الاقاليم ، كأن يقوموا ببث العيون في كل الاطراف في زي التجار والسياح والمتصوفة وبائعي الادوية والدراويش(٧٧)، والاسكافية(٧٨)، وذلك لنقل كل ما يسمعونه من اخبار الى السلطة، لتلافي أي طارىء جديد في حينه، فما اكثر ـ يقول الطوسي ـ ما كان الولاة والمستقطعون والعمال والامراء يضمرون للملك خلافاً وعصياناً ويتربصون به الدوائر سراً، لكن الجواسيس كانوا يكشفون ذلك ويخبرون الملك به، فيأخذ للأمر اهبته ويدفعه إلى نحر المتربصين الماكرين . وتظهر لنا الروايات التاريخية التي اوردها المؤرخ البيهقي، الذي عاصر السلطان محمود وولده مسعود وخدم في بلاطهم، ان سبب تكثيف الدولة الغزنوية لنشاط الجواسيس هي ظاهرة العداء التي قادها طغرل بك السلجوقي، الذي حاول سنة ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨م زعزعة استقرار الدولة من خلال اثارة الفتن والاضطرابات في وجه الاسرة الغزنوية ، فكان نظام الجاسوسية اداة خطيرة وبالغة الاهمية في الكشف عن نوايا السلاجقة ومعرفة اهدافهم ومخططاتهم وتحركاتهم. كذلك نجحت الدولة في معرفة القدرة القتالية للسلاجقة اضافة الى معرفة الممتلكات والمؤن وتعداد الجيش(٨٠). كذلك كانت الدولة الغزنوية تستغل جواسيس الاطراف والامراء لصالحها، فقد استطاع (ابو نصر مشكان) صاحب ديوان الانشاء، ان يوظف

جاسوساً ،بغرا خان السلجوقي، لخدمة مصالح الدولة الغزنوية ، إذ أمر الجاسوس السلجوقي بمهمة الى الهند في مدينة لاهور على ان يخفي نفسه بصناعة الاحذية وتصليحها، وكانت الدولة تمنحه اموالاً وامتعة كثيرة مقابل ذلك(٨١).

لم تكتف الدولة الغزنوية ببث ونشر العيون في الاطراف فحسب، بل اتخذت نموذجاً متطوراً في هذه المؤسسة ، فغدت تتعامل مع عملائها وعمالها بواسطة المعماة (الشيفرة)؛ اذ كان لكل معماة رموز يصطلح عليها حتى لاتعرف الا لمن يهمهم الامر، فبرع بكتابة المعماة وتحليل رموزها الكتاب الذين تولوا او شغلوا منصب ديوان البريد، سواء في العاصمة غزنة او في الاقاليم الأخرى. كذلك كان (ابو نصر مشكان) آية في معرفة المعماة وفك رموزها. ويؤكد البيهقي انه قل من لهم مثل قدرته فيها (يقصد كتابة المعماة وحل رموزها). فقد كان اكفأ وأكتب اهل زمانه(٨٢).ويشير البيهقي ايضاً الى ان السلطان مسعود الغزنوي كانت له مقدرة على كتابة المعماة، (٨٣) ومن خلال قراءتنا لنصوص تاريخ البيهقي، فاننا ندرك ان أبا الفضل، صاحب التاريخ وتلميذ ابي نصر مشكان كان خبيراً بكتابة المعماة ورموزها، وكتابته رسالة معماة للوزير احمد عبد الصمد، والتي يشير فيها الى رغبة السلطان قضاء الشتاء في الهند والتي جاء فيها: « ان هذا السلطان قد ذهل من أمر لم يقع ولن يثني العنان حتى يبلغ لاهور ، وقد بعث بالكتب سراً ليعدوا له العدة ، ويبدو انه لن يلبث في لاهور، هذا ولم يبق أحد الحرم في غزنة، وليس بها شيء من الخزائن، وقد أسقطَ في أيدي هؤلاء الاولياء والحشم المقيمين هنا، وهم جميعاً في حيرة من أمرهم، وكلهم مَعلق امره على الوزير ، فالغوث الغوث ليتدارك سريعاً هذا التصرف الاخرق، وليكتب له بصراحة فانه على بضعة منازل منا، ويستطيع ان يوضح الرأي لعله يرجع عن تفكيره السقيم(٨٤).»

وعلى الرغم من اهتمامات البيهقي وخبرته في كتابة المعماة، الا انه لم يبلغنا عن اشكال تلك الرموز بشكل صريح، بل اكتفى بنقل ترجماتها. وقد وردت تلك الترجمات كثيراً في مناسبات عديدة، نذكر منها نموذجاً آخراً على سبيل الايضاح لا الحصر، فقد ذكر البيهقي ان « اميرك البيهقي» صاحب بريد الجيش في خوارزم بعث برسالة معماة الى السلطان يبلغه فيها عن حرب الدولة مع التركمان جاء فيها:

« ان خوارزم شاه عندما شاهد جيش السلطان استولى عليه الذعر لأنه حسبه من تعبئة القائد علي تكين ، فأعد عدته واسترجع السفن من وسط جيحون ، لكن كتخداه احمد عبد الصمد أزال ما في قلبه من الهلع وقوى عزيمته ، ومع هذا كله فان خوارزم شاه يبدو مذهولاً، وقد ذهبت اليه مرات لأهدي روعه، ولعل العاقبة تكون خيراً، إذ ان المصير يبدو الآن مظلماً(٨٥).»

وغالباً ما كانت ترسل المعماة بواسطة خشب مجوف، يغطوا به رسائل صغيرة ، ثم يحكمون وضعها ويسدون الفراغ بنشارة الخشب ويلونوا قطعة الخشب بحيث يصعب تمييزها(٨٦).

بريد الجيش:

كانت حاجة الجيش الدائمة الى معرفة الاخبار عن العدو وعدد جيشه وتسليحه والطرق التي يسلكها والخطط التي يضعها، قدحدت بالغزنويين الى العناية بامور البريد. فازدادت اهمية البريد من الناحية الحربية، ونظم البريد العسكري تنظيماً دقيقاً حتى بلغ أقصى درجات رقيه وتطوره ايام السلطانين محمود الغزنوي وولده السلطان مسعود بن محمود. وقد ساهمت الظروف المحيطة بالدولة الغزنوية، لاسيما تلك التي ظهرت من جانب السلاجقة والتركمان في الاقاليم الشمالية، الى وضع بريد خاص بالجيش، لمواكبة التطورات وملاحقة العصاة ومتابعة تحركاتهم من منطقة الى أخرى.

وقد ارتبط بريد الجيش بالسلطان والوزير وعارض الجند وقائد الجيش الاقليمي، مما اضفى عليه اهمية كبيرة فاقت العديد من الدواوين والمراكز الادارية الاخرى. لذلك لم يكن سلاطين الدولة الغزنوية ولا وزراؤهم وقادة جيشهم يختارون لهذه المهمة الا من كان ثقة، واسع الاطلاع، وله خبرات عديدة منها: ـ

١ ـ القدرة على توظيف الحيل والخديعة في كتابة الرسائل حتى لاتعرف اهدافها اذا وقعت بيد الاعداء.

٢ ـ الالمام التام بكتابة الرسائل والمعماة (الشفرة) ومعرفة رموزها وحلها.

٣ ـ معرفة الطرق والمنافذ لاسيما طرق الاعداء ومناطق تواجدهم وتحركاتهم.

٤ ـ ان يكون ماهراً في القتال حتى لايكون عرضة للقتل او السلب بسهولة ويسر.

٥ ـ الذكاء والقوة(٨٧).

ومن خلال قراءتنا لتاريخ البيهقي، نجده قد حفل باسماء الشخصيات التي تولت هذا المنصب الهام، ونذكر هنا بعض ابرز الاسماء التي مارست مهام بريد الجيش في الدولة الغزنوية، وكان لها أبلغ الأثر في الحفاظ على احوال الاقاليم والجيوش واطلاع القيادات العليا المركزية في عاصمة الدولة غزنة في حينها، نذكر منهم على سبيل المثال لاالحصر: أبو سهل الهمذاني، الذي عينه الوزير احمد عبد الصمد بأمر من السلطان مسعود الغزنوي، إذ الحق بالجيش الذي قاده السيهسالار على دايه في حربه مع السلاجقة الاتراك(٨٨)، وأبو الحسن دلشاد، الذي حاز على ثقة السلطان والوزير والعارض، لما كان يتمتع به من قدرات ومواهب في معرفة الاخبار وتقصي الحقائق والحصول على المعلومات الاستخبارية الخفية؛ إذ انتدب سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥م، ليتولى بريد الجيش في معركة آمل ضد السلاجقة الاتراك(٨٩)، وأبو سعيد الصراف صاحب بريد الجيش في معركة دندانقان في خراسان، والتي قادها كبير الحجاب سوباشي وتقلد في نفس الوقت كتخدا السوباشي (٩٠)، وعين الفقيه أبا بكر المبشر، صاحب بريد الجيش بامر من السلطان،

التحق بجيش الوزير احمد عبد الصمد الذي قاد حملة عسكرية نحو طخارستان وبلخ بسبب ما كان من ثورة نواحي ختلان، وأمر بأن يكتب للسلطان كل يوم بما يراه الوزير خيراً لصالح المملكة (٩١). وكذلك، اميرك البيهقي صاحب بريد الجيش، الذي قاده التونتاش في خوارزم، وكانوا قد اقاموا على طريق بلخ مراقباً للبريد لمنع تسرب الأخبار اليها (٩٢)، في حين جرت العادة أيام سلاطين الدولة الغزنوية ان يوضع البريد في كيس له حلقة وتختم باختام كثيرة (٩٣).

الحجابة :

لم تشأ الدولة الغزنوية ان تتخذ من الحجابة وظيفة ادارية هامة مقتفية بذلك اثر الخلفاء العباسيين والامويين وغيرهم، واذا كانت الحجابة عند الامويين قد مورست لحماية الخلفاء من القتل وشر الناس، وكذلك الحال عند العباسيين(٩٤)، فإن نظام الحجابة لدى الاسرة الغزنوية تجاوز هذه المهام والاهداف، فشمل وظائف عديدة، كان أبرزها اهتمام الحجاب بشأن الجيش والاهتمام بسلامة وأمن السلاطين. فلم تقتصر اعمال الحاجب على حماية السلاطين فحسب، بل اصبح هناك حجاب للوزراء وحجاب للولاة وقادة الجيش الاقليمي وحجاب القلاع (الكوتوال). واعتبرت الحجابة من الاعمال الهامة في البلاط السلطاني. فالحاجب موظف كبير يشبه كبير الامناء وقائد الحرس السلطاني في ايامنا هذه. والسبب وراء وضع الحجابة ضمن تنظيمات الجيش الادارية ذات العلاقة بديوان العرض، هو ممارسة حجاب الدولة الغزنوية قيادات الجيش في اكثر من موقع، الى جانب مراقبة الحرس والجند، واعدادهم في كثير من الأوقات للحملات العسكرية ، وللاحتفالات الرسمية والخاصة، وقد ظهر في تاريخ الاسرة الغزنوية التي حكمت الشرق العديد من الأسماء اللامعة في الحراسة السلطانية وحماية الامراء والاعيان والوزراء والقادة (٩٥)، وكان لهم اكبر الاثر في تهيئة الظروف المناسبة للسلطان وغيره لممارسة اعمالهم بكل دقة وأمان.

والحاصل ، ان الحجاب ، الى جانب توفير الامن والحماية والرعاية للسلطان وعائلته وللاعيان ، فانهم يقومون بمهام كثيرة جاءت على النحو التالي:

١ ـ الاشراف على مراسيم العيد وذلك باعداد الساحات الكبيرة على شكل دائرة واسعة تحشر فيها الحيوانات للصيد من كل مكان، ويأتي السلطان فيصطادها(٩٦).

٢ ـ شارك الحجاب في الحروب والمعارك التي كانت من سمات العهد الغزنوي البارزة، فقد شارك الحاجب التونتاش حاجب السلطان مسعود في حرب السلاجقة في مرو، وكان التونتاش قبل ذلك نقيب الفرسان لدى السلطان محمود الغزنوي، عندما كان مسعود حاكم الري، وكان الحاجب سوباشي يقود أهل السلاح والفرسان العرب وغيرهم (٩٧).

٣ ـ اضطلع بعض الحجاب كعلي قريب، بدور بارز في رسم سياسة الدولة الغزنوية، فقد كانت له يد في تعيين الامير محمد بن محمود الغزنوي سلطاناً على الدولة، على ان يتولى كبير الحجاب اعظم امناء الدولة وله تدبير شؤون الملك، ثم أمر باعتقال الامير محمد ودعا الى تولية الامير مسعود بدلاً منه، وتليت الخطبة باسم السلطان الجديد وأقيم حفل عظيم باشراف كبير الحجاب(٩٨).

٤ ـ الاشتراك في العروض العسكرية واعداد ما يلزم من الخيول والفيلة والجمال، فقد اعدّ كبير الحجاب بلكاتكين بأمر من السلطان مسعود الغزنوي، الفاً وستمائة وسبعين فيلاً بين ذكر وانثى، وذلك لاقامة عرض عسكري في مدينة كابل (٩٩).

٥ ـ شارك الحجاب في مواكب السلطان الرسمية ، سواء أكانت بمناسبات الاحتفال بالاعياد او بعزاء أو باستقبال رسل الخليفة العباسي، وكانوا يحضرون اجتماعات السلطان مع رسول الخليفة العباسي(١٠٠).

٦ ـ موقع استشارة السلطان في كثير من الاعمال والمهام الرسمية الهامة، فكثيراً ما كان يستشار الحاجب في تعيين الوزراء والولاة والعارض وقادة الجيوش(١٠١) .كما ويمنحهم الخلع.

٧ ـ كان يتسلم الغنائم من القادة العسكريين ، ويتسلم الهدايا والخلع والمناشير من رسل الخليفة العباسي(١٠٢).

٨ ـ الاشراف على طعام وشراب السلطان والأمراء(١٠٣).

إن اعتماد الدولة على الحجاب في المهام العسكرية ،عكست مكانة وقدرة هؤلاء الحجاب في ممارسة نشاطات عسكرية خطيرة. فقد قاد ـ كما سبق واشرنا الى ذلك ـ كبير الحجاب سوباشي سنة ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥ م الجيش الغزنوي ضد السلاجقة الاتراك على رأس عشرة آلاف فارس وخمسة الاف راجل الى خراسان ، في موقعة دندانقان التي انهزم فيها الجيش الغزنوي سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م ، وكانت من اخطر المعارك التي يخوضها الغزنويون ، وتسببت باضعاف هيبتهم (١٠٤). كذلك كان الحاجب ارسلان جاذب، قائداً لجيش السلطان محمود، وكان والياً على طوس وخراسان (١٠٥)، وقد نجح في اجلاء التركمان عن خراسان(١٠٦). أما مظاهر التكريم والاحتفاء بهؤلاء الحجاب فكانت من سمات العصر الغزنوي البارزة ، كشفت لنا عن اهمية هؤلاء داخل اجهزة الدولة بادارتها المختلفة ، ومثال ذلك، فقد اعدت سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣٠م خلعة فاخرة لكبير الحجاب بلكاتكين ، كان من جملتها:

« الكوس والرايات العريضة والشارات والغلمان واكياس النقود والكساوي غير المخيطة ، يرتدي خلعة سوداء وقلنسوة ذات الركنين ومنطقة من ذهب»(١٠٧)، ثم يذهب الى البلاط السلطاني ليؤدي فروض الطاعة والولاء تمشياً مع المراسيم المعهودة عند

الغزنويين، بعدها يعود الى داره حيث يقدم له الأكابر والأعيان هدايا كثيرة جداً(١٠٨)، ومنحت الدولة القاباً مختلفة للحجاب ، فمنهم من نعت بالأمير، كما حصل مع كبير الحجاب علي قريب، ايام السلطان محمود الغزنوي(١٠٩)، اما الغالبية العظمى فقد منحوا لقب الخواجة ـ وهو من الالقاب البارزة السائدة ايام الغزنويين، إذ كانت تمنح ايضاً للوزراء وللعارض ولصاحب ديوان الانشاء (١١٠)، وكانت الشجاعة والذكاء وقوة الشخصية والاخلاص من اهم الصفات التي حرص سلاطين غزنة على توفرها بمن يتولى هذا المنصب الهام(١١١).

« أسلحة الجيش الغزنوي»

اولا: الأسلحة الهجومية :

١ ـ سلاح الفرسان

حظي سلاح الفرسان برعاية مميزة لدى سلاطين الدولة الغزنوية، كما عملت الدولة على دعم هذا القطاع العسكري بامهر الفرسان واقوى الخيول ،لخوض المعارك الكثيرة التي قادها سلاطين الدولة، حتى لنجد من خلال دراستنا لاوضاع الجيش الغزنوي، ان هذا السلاح كان ركيزة الجيش في معظم المعارك التي وقعت في عهد السلطان محمود وولده مسعود.

وإذا ما حاول الباحث معرفة تعداد هذا القطاع، فانه سيجد صعوبة كبيرة في تحديد عدد هذا السلاح، علماً بان المؤرخ البيهقي، الذي عاصر السلطان محمود ومسعود، لم يكشف النقاب عن حجم وتعداد سلاح الفرسان، ولاحتى غيره ممن أرخ للدولة الغزنوية، فانهم غالباً ما يظهرون عظمة الجيش الغزنوي وقدرته على مجابهة الاخطار ، لاسيما براعة سلاح الفرسان . لذلك تجدر الاشارة هنا الى استعراض بعض الروايات التي حاولت أظهار جانب القوة للفرسان في هذه الدولة. فقد ذكر صاحب تاريخ نيسابور : ان الله يسر له ـ اي للسلطان محمود ـ من الاسباب والامور العسكرية والجنود والهيبة والحشمة في القلوب ما لم يره أحد(١١٢) . ونلاحظ اهتمام المؤرخ الانجليزي الفنستون (Ellphinstone) بسلاح الخيول والفرسان ليقرر في كتابه تاريخ الهند في العهد الاسلامي، ان الخيول العربية بلغت خمسة الاف حصان عربي في سلاح الفرسان في عهد السلطان محمود الغزنوي.(١١٣) وقاد العرب ايضاً اربعة الاف فارس سنة ٤٢٦ هـ/ ١٠٣٤م في المعركة التي خاضها السلطان مسعود الغزنوي في موقعة آمل.(١١٤) واعتبر الفنستون، بالاضافة الى المؤرخ الهندي محمد حبيب، ان الجيش النظامي في سلاح الفرسان ، وذلك قبل وفاة السلطان محمود بست سنوات ، بلغ اربعة وخمسين الف فارس من خيرة الفرسان، واضافا ان هذا القطاع لم يقف عند هذا العدد بل تضاعف في مناسبات عديدة(١١٥).

من جانب آخر، رأى المؤرخ مير (Meyer)انه في سنة ١٠١٨ م، زحف السلطان محمود الغزنوي من مدينـة غزنة وبصحبته حوالي مائة الف فارس حـاصر بهم قلعة ماثورا(Ma-thura)الهندية ، وبهم وبيسالتهم حطم معظم الاصنـام والمعابد الهندوسية في تلك المدينة. (١١٦) ورغم مبالغة مير في هذا العـدد الذي لم يـوثق مصادره، الا ان ذلـك يظهر المدى الكبير الذي اصبح به سلاح الفرسان.

تعددت واجبـات الفرسان والخيالـة في جيش الدولة الغـزنوية ، وتمثل ذلـك في حماية الجيش اثنـاء التنقل والمبيت ومـراقبة الطرق والسيطـرة على حركة المواصـلات والهجوم والاغارة على العـدو والمطاردة ومـلاحقة الاعـداء ومحاربة الكمائن(١١٧) وهـذا يعكس اهمية قطاعات الفرسـان بالنسبة للدولة. فلقد كانت عامـل حسم للكثير من المعارك التي قادها سلاطين الدولة الغزنوية.

٢ ـ سلاح المشاة:

وهو مـن الاسلحة التي لم تقل اهميـة عن سلاح الفـرسان ، ويؤلف هـذا القطاع قسماً كبيراً من الجيش. فالى جانـب مساندتهم للفرسان ، فانه كان يقـع عليهم مهمة الاصطدام المباشر مـع جيش الاعداء . امـا بنية سلاح المشـاة، فكانـت خليطة من اجنـاس متعددة ، وذلك بحكـم تعدد البلـدان والاقاليـم التي آلت لحكـم الدولـة الغزنـوية ، فكـان منهم الاتراك والافغان والعرب والهنود والايرانيون والديالمة والاوزبك(١١٨).

ونستطيع مـن خلال دراستنا لابرز معـارك الدولة الغزنـوية في العهدين المذكـورين، وهما معركـة سومنـات ٤١٦هـ/ ١٠١٧م بقيـادة السلطان محمـود الغزنـوي، ومعركـة دندانقان٤٣١ هـ/ ١٠٤٠م بقيادة السلطان مسعـود الغزنوي ، نستطيع استخلاص عدة الدولة من سلاح المشـاة على وجه تقريبي علماً بان الدولة لم تكن تمنـح هذا السلاح نفس الاهتمام لسـلاح الفرسـان . فمعظم المؤرخين الـذين تنـاولوا العهـد الغزنـوي بالبحـث والـدراسة، لم يظهـروا حقيقة رقميـة واضحة لقـوات المشاة، كما كـان حالهم ازاء سـلاح الفرسان ، فـاكتفوا بالاشارة الى عظمـة الجيش من الفرسـان والرجالة(١١٩). ولعـل ما ذكره المؤرخون عـن قلة المشاة عند الغـزنويين انما كان يعبر عن استكثـار السلطان محمود ومسعود لـلأتراك في الجيش والذيـن شكلوا بغالبيتهـم قطاعات سلاح الفـرسان ، وربما يكون العدد الذي ذكـره المؤرخ الانجليزي الفنستون (Ellphinstone) عن المشاة في الجيش الغـزنوي والذي بلـغ عشرين الف، لـدليل على اهتمام الـدولة الغزنـوية الكبير في سلاح الفرسان.

---

٣ ـ سلاح الفيلة:

استحدث هـذا السلاح لدى الدولـة الغزنوية بسبـب الظروف التي اتاحـت لهم غزو واجتياح الهند الشمالية والوسطى، واعتبرت هذه الـدولة صاحبة السبق في هذا المضمار في تاريخ الحضـارة العربية الاسلاميـة، فهي بذلك تكون قـد حققت تطوراً هامـاً من روافد الحضارة الاسلامية.

اعتمد سلاطين غزنـة في بناء هذا السلاح على غنائم الحروب، سواء ما يتـم عن طريق الغنائم او المصالحة. وقـد خلص المؤرخ الهندي محمد حبيـب الى ان المجموع الكلي للفيلة في جيش السلطان محود تجاوز الألفين وخمسمائة فيل. (١٢٠) وذكـر البيهقي، ان السلطان مسعود الغزنوي استعـرض في مدينة كابل سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١ م الافيـال فكانت الف وستمائة وسبعون فيلاً بين ذكر وانثى(١٢١).

اما مهام الفيلـة، فمتعددة الاغراض ، فكانـت تحمل بالكوس النحـاسية لتستعمل في ارض المعركـة، وذلك لخلق هيبة للجيـش وارعاب الاعداء، ولارغام الفيلـة على الحركة السريعة في ميـادين القتـال(١٢٢) ومن مهـامها كـذلك،حـراسة مـوكب السلطـان اثناء تحركاته سواء في العـرض العسكري او اثناء القتال، واستخدمت لنقـل المشاة والاسلحة والذخيرة(١٢٣).

٤ ـ الجمّالة:

حاز سـلاح الجمّالة على رعايـة سلاطين الدولة، وارتقـى ليصبح سلاحـاً ضرورياً في عمليات الاسناد ونقـل الاسلحة الثقيلة والاعلاف والغذاء ومستلزمـات العسكر، ففي معركـة السلطان محمـود الغزنـوي الشهيرة على بلاد الهنـد « سومـانت» سنة ٤١٦هـ/ ١٠١٤م، اسند السلطان مهام نقل الميرة والاسلحة والذخـائر للإبل ، حيث بلغ مجموعها عشرين الف جمل (١٢٤) .كما حرك السلطان مسعـود في موقعة آمل ٤٢٦ هـ/ ١٠٣٤ م خمسمائة جمل تحمل الذخائر (١٢٥).

٥ ـ غلمان السراي(القصر):

وهي مـن القطاعات الـرئيسية التي انشـأها سـلاطين الدولة الغـزنوية والتـي لاتقل بدورها عـن اهمية باقي الاسلحة ، اذ كـان غلمان البلاط السلطاني يشكلون فرقـة ضاربة متمرسة على القتال ومدربة تدريباً خاصاً، وهي اشبـه ما تكون بفرقة المغاوير الذين اتقنوا كافة الاسـاليب القتالية، فكـانوا ينتدبون لحسـم المواقف الصعبة واشدهـا خطورة . ففي العام ٤١١ هــ/ ١٠٢٠ م والذي حاصر فيه السلطـان محمودبلاد الغور،وبعـد استبسال قبائل الغور وصمـودها بوجه الجيـش الغزنوي ، امر السلطـان غلمان السراي ان يتقدموا الصفوف ويضربوا العدو بسهامهم حتى تمت الغلبة لهم على الغور(١٢٦).

٦ ـ الاسلحة:

حرصت الدولة الغزنوية على تسليح الجيش تسليحاً قوياً يتناسب مع طموحاتهم واهدافهم التوسعية في منطقة الشرق. فقاموا على توفير كافة انواع الاسلحة المتعارف عليها يومذاك، فكانت السيوف والرماح والسهام والمنجنيق والخناجر والدبابيس والسلالم وحبال الاوهاق والكوس النحاسية والابواق والطبول والجواشن والدروع والسلالم والاثقال والحجارة(١٢٧).

ثانياً: الاسلحة الدفاعية والوقائية:

١ ـ القلاع والحصون

فرضت طبيعةالبلاد وانتشارها على الدولة الغزنوية ان تعمد الى بناء القلاع والحصون لحماية الثغور ،واعتبرت من التحصينات الوقائية والدفاعية الثابتة التي خضعت لسيطرة الدولة، كالهند وخراسان ، وافغانستان، ونيسابور ، وبلاد ما وراء النهر.(١٢٨) وتم استخدام هذه القلاع كمستودعات للأسلحة وآلات الحروب واصطبلات الخيول والحبال وحفظ المال والألبسة والمؤن والاعلاف(١٢٩).

٢ ـ الكمائن

مارست الدولة هذا السلوك الحربي في معظم المعارك التي وقعت في عهد السلطانين المذكورين (محمود ومسعود) ،وكان اكثر تطبيقاً وشيوعاً في عهد السلطان محمود الغزنوي . وعلى سبيل المثال لا الحصر قام السلطان محمود بتطبيق مبدأ الكمين مع السيمجورين شمال افغانستان سنة ٣٨٥ هـ / ٩٩٥م ،بعدما تعرض جيشه للابادة، فاجأ الاعداء بكمين على رأس قوات جديدة تمتّعت بالراحة من الفرسان الشجعان المختارين، وانزلوا الضربات القاضية بقائد الاعداء والجأوه على الفرار(١٣٠).

٣ ـ التعبئة والمصاف

يمكننا تقسيم نظام التعبئة لدى الجيش الغزنوي على النحو التالي:

أ ـ الكر والفر، وغالباً ما استعمله سلاح الفرسان ب ـ نظام المصاف (الزحف). ج ـ نظام الخميس (التعبئة).

الخاتمة:

هذه الدراسة اعتنت بمعرفة البناء الاداري والتنظيمي لديوان العرض في الدولة الاسلامية الغزنوية التي حكمت : الهند وافغانستان وايران، وخوارزم وطخارستان وبلاد ماوراء النهر، أوضحت أهمية هذا الديوان من خلال الامور التالية:

---

١ ـ كان ديوان العرض في الدولة الغزنوية قطب الرحى الذي دارت حوله هيبة ونفوذ الدولة في الشرق، وشكل اساساً من اساسيات المحافظة على الاسرة الغزنوية مدة طويلة ومؤثرة في حكم المشرق الاسلامي.

٢ ـ نلاحظ اهتمام الدولة الواسع في توظيف امكانيات الدولة السياسية والاقتصادية والمالية للحفاظ على قوة المؤسسة العسكرية من خلال الدعم المطلق لديوان العرض، وبذلك تكون الدولة الغزنوية عسكرية من الطراز الاول.

٣ ـ كان تطبيق الدولة لنظام عسكري خاص في فتح الاقاليم والذي عُرِفَ بالسيهسالار ، اكبر الاثر في ضبط الاقاليم جميعها وربطها بحكومة مركزية قوية في عاصمة الدولة، مدينة غزنة.

٤ ـ حالت الدولة بين القادة العسكريين والولاة في الاقاليم وبين الخروج والتمر دعلى سيادة الدولة الغزنوية، من خلال الحاق مراقب أمني عام لهؤلاء المسؤولين الذي منع اكثر القادة من عصيان الدولة، وتمثل ذلك بوظيفة (الكتخدا)

٥ ـ تطور نظام الجاسوسية والمعماة التي بلغت في الدولة الغزنوية مرحلة فاقت بدقتها وتنظيمها الكثير من الدول الاسلامية المعاصرة والتي ساعدت الاسرة الغزنوية في السيطرة المطلقة على اواسط آسية والهند . اضف الى ذلك براعة الدولة في تطبيق نظام المعماة (الشفرة) ،الذي كان له بالغ الاثر على مراقبة الاحداث ومتابعة التطورات والعمل بسرعة على معالجتها.

٦ ـ الحاق ديوان بريد للجيش بمعظم الاقاليم والمعارك التي خاضها الجيش ، مما ميز العهد الغزنوي عن بقية العهود الاسلامية باستثناء الدولة العباسية . اذ عمل هذا الديوان على ايصال المعلومات الى السلطان واطلاعه اولاً باول عن احوال الاقليم والجيش وسير المعركة واحوال الاعداء واستعداداتهم.

٧ ـ يظهر ان نظام الجندية لدى الغزنويين قد تأثر كثيراً بنظم الدولة العباسية والدولة السامانية.

٨ ـ كشفت لنا عن حرص شديد لدى سلاطين الدولة الغزنوية على امتلاك قطاعات حربية غاية في الاهمية والتطور، كالفرسان والمشاة والفيلة والجمالة وغلمان السراي، ساهمت جميعها في دعم مسيرة الدولة.

٩ ـ كما تعاملت بمؤسساتها الحربية مع المتطور من السلاح في عصرهم.

١٠ ـ واخيراً ، كانت طبيعة البناء الاداري لديوان العرض، والعناية والرعاية الفائقتين التي اولاها سلاطين غزنة لهذا الديوان ، عظيم الاثر في تحقيق كل الانتصارات العسكرية التي خاضها الجيش الغزنوي في الشرق وسبباً في انتشار نفوذهم.

«الهوامش»

١ ـ السلومي، عبد العزيز عبد الله. ديوان الجند، نشأته وتطوره في الدولة الاسلامية حتى عصر المأمون، مكة المكرمة(١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م)، ص ٢٢٠.

٢ ـ شوقي ابو خليل، هارون الرشيد امير الخلفاء، (دار الفكر، الطبعة الاولى، ١٩٧٣م)، ص ٨٣ ـ السلومي، ص ٢٢٠.

٣ ـ تنسب الدولة السامانية (٢٦١ هـ ــ ٣٨٩هـ) الى أسرة فارسية عريقة في المجد، يرجع اصلها الى بهرام جور، وقد نال السامانيون حظوة كبيرة عند الخليفة المأمون ، فولاهم بلاد ما وراء النهر ورفع من شأنهم ، وقد أسس دولتهم نصر الاول بن أحمد الساماني(٢٦١ هـ / ٨٧٤م) وتعاقب على حكم هذه الاسرة الاسلامية عشرة ملوك اولهم نصر الاول وآخرهم عبد الملك الثاني بن نوح الثاني (٣٨٨هـ / ٩٩٩م). وكان زوالها على يد الدولة الغزنوية . واشتهرت الأسرة السامانية بتشجيع العلوم والآداب واصبحت بخارى عاصمة الدولة مركزاً اسلامية لنشر الثقافة والمعرفة ، للمزيد من المعلومات حول الاسرة السامانية راجع:

Maulana Minhaguddi Abu Aumor Al - guzgani.(D. 658 A.LL)

- Tabagat - 1 - Nasiri, AGENERAL History of muhammadan dynasties of Asia from , A.H.194(A.D810)) to A.H658(A.D.1260) and the irruption of the infidel (mughals into Islam), tr. from original persian manusript, by Major Raverty IIvols . (New Dilhi, 1970)vol. II, PP. 29 - 54.

- Lane - poole - Muhammadan Dynasties, (Lahore, 1976)pp. 132 - 133.

ـ د. حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي، ج ٣ ص ٧١ ـ ٨٢، (القاهرة، ١٩٦٥م).

٤ ـ Tripathi, R.P.Some Aspects of muslim administration, (Allah abad 1978) p.210

٥ ـ Pandey, early medieval India, (Allah abad 1969)pp.27 - 28.، السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى،ج ٥ ص ٣١٨.

٦ ـ داندا نقان: بلدة عند مرو، وهي على مرحلتين من مرو مما يلي سرخس، وهي من اكثر البلاد انتاجاً للحرير ـ (ابي الفداء ، تقويم البلدان ص ٤٥٩ (باريس ١٨٤٠).

٧ ـ البيهقي ، (ت ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧م)، محمد بن الحسن ، تاريخ البيهقي، نقله عن الفارسية الى العربية الدكتور يحيى الخشاب والاستاذ صادق نشأت (بيروت ١٩٨٢)، ص ٦٦٣ ـ ٦٧٢، الحسيني(ت بعد ٦٢٢هـ) صدر الدين ابو الحسن ، زبدة التواريخ، اخبار الامراء والملوك السلجوقية ، تحقيق الدكتور محمد نور الدين (بيروت ١٩٨٦)ص ٤٥.

٨ ـ تاريخ البيهقي، ص ٧١٠.
٩ ـ البيهقي، ص ١٦٦.
١٠ ـ نفس المصدر، ص ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨.
١١ ـ المصدر السابق، ص ٤١٧ ـ ٤١٨.
١٢ ـ نفس المصدر، ص ٤١٩١٤٨.
١٣ ـ البيهقي، ص ٣٥٠، ٤٢٧ ، ٤٢٨.
١٤ ـ البيهقي، ص ٥٣٦.
١٥ ـ الماوردي، يقول الماوردي ان شرط جواز اثبات الجند بما فيهم صاحب الديوان فيراعى فيه خمسة أوصاف: ١ ـ الحرية ـ ٢ـ الاسلام ٣ ـ السلامة من الآفات ـ ٤ ـ ان يكون فيه اقدام على الحرب ومعرفة القتال ـ ٥ ـ البلوغ فان الصبي من جملة الذراري والأتباع. الماوردي علي بن محمد بن حبيب (ت . ٤٥٠ه/ ١٠٥٨م) الاحكام السلطانية (القاهرة ١٣٩٤ه) ص ٢٠١، ٢٠٢.
١٦ ـ البيهقي ص ٣٨، ٣٩، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧.
١٧ ـ I.H.Qureshi, Muslim Administration under the sultanate of DELHI, (4th edition , Karachi, 1959) p8137
١٨ ـ البيهقي، ص ١٠.
١٩ ـ البيهقي، ص ٤٩، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣.
٢٠ ـ البيهقي، ص ٢٦، ٥٣٦، ٥٣٧.
٢١ ـ Quershi, p.137 العتبي، (ت ٤٢٨ ه / ١٠٣٦م) ابو نصر محمد بن عبد الجبار، تاريخ يميني، جزءان (القاهرة ١٩٨٦م) ج ٢ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.
٢٢ ـ البيهقي، ص ١٥٨، ٢٩٦.
٢٣ ـ المصدر السابق، ص ٥٤٩، ٦٦٠.
٢٤ ـ نفس المصدر ، ص ٦٦١.
٢٥ ـ نفس المصدر ، ص ١٦٩.
٢٦ ـ نفس المصدر ، ص ٣٥٧.
٢٧ـ البيهقي، ص ٢٥.
٢٨ ـ البيهقي، ص ٥٣٦.
٢٩ ـ الجوزجاني، طبقات ناصري، ط١ ص ٧٣ ـ ٧٤ / زبدة التواريخ ، ص ٢٦ ـ ٢٧.
٣٠ ـ البيهقي، ص ٢١٤.
٣١ ـ نفس المصدر، ص ٢١٥ ـ ٢١٦.
٣٢ ـ نفس المصدر، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

٣٣ـ العتبي ج ١ ص ٣٦١.

AL - Badaoni, Abdul AL- Qadir Mulukshah (D.1004 A.LL - Muntaklab - ut - Tawarikh, tr.from persian into English, vol. I, by S.A. Ranking, vol. ii.by w. h.Lowe, and vol.II, by sir Haig . (lst. ed. Karachi 1968)(Calcutla. 1884, 1924) vol p 17

٣٤ـ الندوي، نزهة الخواطر، ج١ص ٧٩ ـ ٨٠.

٣٥ـ البيهقي، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

٣٦ـ نفس المصدر ، ص ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧.

٣٧ـ نفس المصدر ، ص ٤٢٥ ، ٤٢٦، ٤٢٧.

٣٨ـ االبيهقي، ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠، نزهة الخواطر ، ج١ ص ٧٧ـ ٧٨.

٣٩ـ الندوي، عبد الحي الحسني، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، (حيدر اباد، الدكن، الهند، ١٣٥٠ه/ ١٩٣١م) ج١ ، ص ٧٩ ـ ٨٠.

٤٠ ـ البيهقي ص ٢٩٢.

٤١ ـ نفس المصدر، ص ٣٠٨.

٤٢ ـ نفس المصدر، ص ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٧٨.

٤٣ ـ نفس المصدر، ص ٥٨١.

٤٤ ـ البيهقي، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧.

٤٥ ـ نفس المصدر، ص ٣٦٢.

٤٦ ـ ص ٢٩٠.

٤٧ ـ ص ١٤٦.

٤٨ ـ زبدة التواريخ، ص ٤٣.

٤٩ ـ القلقشندي، أحمد بن علي القاهري الشافعي (ت ٨٢١ ه) صبح الاعشى في صناعة الانشاء، ١٤ جزءاً(دار الكتب المصرية، القاهرة ، ١٩٢٢م) ج ٤ ص ٤٥٣.

٥٠ ـ منتخب التواريخ، ج ١ ص ٢٣.

٥١ ـ الطوسي، نظام الملك (ت ٤٨٥ ه/ ١٠٥٨م) سياسة نامة أو سير الملوك، ترجمه الى العربية الدكتور يوسف بكار (الدوحة ١٩٨٧م) ص ٢٩٣.

٥٢ ـ البيهقي، ص ٨٦، ٨٧، ٨٨.

٥٣ ـ البيهقي، ص ٢٩١.

٥٤ ـ نفس المصدر ، ص ٢٩٠.

٥٥ ـ نفس المصدر، ص ٤٢٥.

٥٦ ـ اتبعت الدولة الغزنوية سياسة فيها من التقديس والتوقير ما يتناسب مع رسل الخلفاء العباسيين؛ فيروي البيهقي وهو مؤرخ معاصر شاهد الاحداث، انه عند وصول رسول الخليفة العباسي القادر بالله سنة ٤٢١ هـ/ ١٠٣٠م .أمر السلطان مسعود الغزنوي استدعاء الرسول الى الحضرة على ان يكون موكبه حافلاً بكل مظاهر العظمة ، فقال ابو سهل الزوزني (العارض):

إن كل ما هو خاص بالجيش والبلاط والديوان واهل المناصب وغيره فهو مما يقوم بشؤونه السيهسالار، ثم أمر مسعود باستعداء السيهسالار الحاجب الغازي قائد خراسان وقال له:

نأمر ان يقدم رسول الخليفة مع ما أتى به من منشور وخلعة وككرامات ونعوت وان تصل اخبار هذه الحفلات وذلك التكريم مسامع الناس في سائر البلاد، وينبغي ان توعز للجيش ليجعل نفسه في هذه الليلة على اتم ما يمكن من الابهة والنظام... وفي اليوم الثاني، جاء السيهسالار غازي الى الدركاه (البلاط) يصحبه موكب الجيش وأمر كافة المقدمين ان يقفوا صفين مما يلي الدركاه (البيهقي ص ٤٤) بخيولهم وأعلامهم، وكانت الاعلام تمتد الى مسافة بعيدة من ابواب قصر شادياخ، وقد وقف غلمان الخاصة والخدم في داخل الحديقة صفين من أمام صفة التاج حتى الدركاه، في تمام اسلحتهم وملابسهم المختلفة الالوان والاشكال، وكان معهم اهل المراتب، وكانت البغال قد سبقت لحمل الخلعة من نيسابور... وعندما وصل الموكل بالضيافة الى الرسول اركبه جنبه وكان قد ارتدى السواد، واعطى اللواء لفارس ليسير به في أثر الرسول، ومن خلفهما بغال تحمل الصناديق المحتوية على خلع امير المؤمنين ومعها عشرة خيول ، وكان بينهما جوادان يزدانان بسرجين ونعال ذهبية، اما الثمانية الأخرى فكانت مسرجة بسروج من الديباج والاطلس، وكان طريق الرسول مزداناً بأبهى الزينات وكان الناس ينثرون عليه الدراهم والدنانير الى ان بلغ صفوف الفرسان فعلت اصوات الطبول والابواق وهتاف الجماعات ... وكانوا يمرون بالرسول والاعيان بين صفي الجند، والمقدمون من الجانبين ينثرون عليه النثار حتى بلغ السرير وكان الامير مسعود متربعاً عليه، ثم سار الرسول في هيئة مهيبة فتقدم الى السلطان وقبل يده، ثم وضع المنشور والرسالة على السرير فقبلهما مسعود الغزنوي (تاريخ البيهقي، ص ٤٥) وامر السلطان بان يكتب الى هراة وبوشنك وطوس وسرخس ونسا وباورد وبادغيس وكنج روستان بهذه البشائر التي منحها من مجلس الخلافة، فنسخت صوراً من المنشور والرسالة أبرزوا فيها الالقاب التي يدعى بها هذا السلطان الجليل ويخطب بها على المنابر وكانت النعوت السلطانية (تاريخ البيهقي ص ٤٦) كما يلي: ناصر دين الله، حافظ عباد الله، المنتصر من اعداء الله، ظهر خليفة الله أمير المؤمنين(البيهقي، ص ٤٧).

٥٧ ـ تاريخ البيهقي، ص ٢٩١.

٥٨ ـ البيهقي، ص ٢٩٢ ـ ٣٠٨.

٥٩ ـ نفس المصدر، ص ٤١٥.

٦٠ ـ نفس المصدر، ص ٣١١.

٦١ ـ نفس المصدر، ص ٤١٥.

٦٢ ـ نفس المصدر ، ص ١٣٦.
٦٣ ـ البيهقي، ص ٣٥٩، ٤١٠.
٦٤ ـ نفس المصدر، ص ٧٢٣.
٦٥ ـ نفس المصدر، ص ٣٥٨.
٦٦ ـ نفس المصدر، ص ٥١ ـ ١٦١.
٦٧ ـ البيهقي ٣٦٣.
٦٨ ـ نفس المصدر ص ٤٢٥.
٦٩ ـ البيهقي، ص ٤١٠ ـ ٤١١.
٧٠ ـ نفس المصدر، ص ٤١١.
٧١ ـ نفس المصدر، ص ٤١٣.
٧٢ ـ نفس المصدر، ص ٤١٥.
٧٣ ـ نفس المصدر، ص ٤١٧.
٧٤ ـ بالغت الدولة العباسية في هذا العصر مبالغة كبيرة في استخدام العيون والجواسيس، والتوصل بكل وسيلة الى كشف اسرار اعدائهم ومعرفة نواياهم، مستخدمين في ذلك الرجال والنساء والغلمان من مختلف طبقات المجتمع ، اذ كانوا يسافرون الى مختلف الاقاليم متنكرين على هيئة تجار او اطباء او طلبة علم او غلمان أو جوار ، ليتمكنوا من التغلغل في الاماكن التي بعثوا اليها (د. خالد الجنابي، تنظيمات الجيش في العصر العباسي ٨٣٣م ـ ٩٤٥م، ص ١٢٤ بغداد، ١٩٨٩م) ودليل ما قاله ابن اللقطي في وصف اهتمام الدولة العربية الاسلامية في استخدام الجواسيس فيقول: وما اعتنت دولة بتحصين الاسرار والمبالغة في حفظها كالدولة العربية الاسلامية، فان لها من هذا الباب عجائب (الفخري في الآداب السلطانية، ص ٦١) ولم تكن هذه المبالغة في استخدام الجواسيس ناشئة عن مجرد رغبة او ميل لدى العباسيين للقيام بهذا العمل، بل يؤكد د . الجنابي، انما دفعهم الى ذلك عوامل عديدة، منها ، اولاً، وجود الامبراطورية البيزنطية التي تعدّ المنافس القوي للدولة العربية الاسلامية ، ثانياً: الدول الاسلامية وولايات الاطراف المحيطة بالدولة العربية الاسلامية ، ثالثاً: الحركات والفتن الداخلية التي كان لها الاثر الكبير في انتشار استخدام الجواسيس(الجنابي، خالد جاسم، تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني، (٢١٨ ــ ٣٣٤هـ/ ٨٣٣م ــ ٩٤٥م)؛ (بغداد، الطبعة الاولى ١٩٨٩)، ص ١٢٤ ـ ١٢٥.
٧٥ ـ البيهقي ـ ص ٣٢٤.
٧٦ ـ نظام الملك الطوسي، سياسة نامة، ص ١٠٢ ـ ١٠٣.
٧٧ ـ الطوسي، ص ١١١.

----

٧٨ ـ البيهقي، ص ٥٧٢.
٧٩ ـ الطوسي، ص ١١.
٨٠ ـ البيهقي، ص ٦٢٤.
٨١ ـ البيهقي ص ٥٧٣.
٨٢ ـ البيهقي، ص ٧٢٠.
٨٣ ـ البيهقي ٧٢١.
٨٤ ـ البيهقي، ٧٢٧.
٨٥ ـ البيهقي، ص ٣٦٣.
٨٦ ـ البيهقي ، ص ٥٧٤.
٨٧ ـ تاريخ البيهقي (ص ٣٧٧ ، ٤٨٥ ، ٧٠٩).
٨٨ ـ نفس المصدر ص ٦٤٨.
٨٩ ـ نفس المصدر ، ص ٤٨٥.
٩٠ ـ أيضاً، ص ٦٣٦.
٩١ ـ البيهقي، ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨.
٩٢ ـ نفس المصدر، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣، للاطلاع على فحوى الرسائل التي كان يبعثها أميرك البيهقي صاحب بريد الجيش راجع تاريخ البيهقي (ص ، ٣٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٣٧٥).
٩٣ ـ المصدر السابق، ص ٧١٦.
٩٤ ـ يقول ابن خلدون في مقدمته عن الحاجب والحجابة: « وأما مدافعة ذوي الحاجات عن ابوابهم (يقصد الملوك) فكان محظوراً بالشريعة، فلم يفعلوه، فلما انتقلت الخلافة الى الملك وجاءت رسوم السلطان والقابه، ان اول شيء بدىء به في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور بما كانوا يخشون على انفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم، كما وقع لعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم، مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم عن المهمات ، فاتخذوا من يقوم بذلك وسموه الحاجب». . ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ (بيروت ١٩٧٩م).
٩٥ ـ اورد البيهقي في تاريخه اسماء الحجاب الذين تقلدوا هذا المنصب في عهد الدولة الغزنوية نذكر منهم ، الحاجب على قريب، والحاجب التونتاش، والحاجب بلكا تكين والحاجب بكتكين ، والحاجب سوباشي، والبتكين، والحاجب ارسلان جاذب وابو نصر الحاجب وقدر الحاجب. تاريخ البيهقي، ص ١ ، ٥ ، ٤ ، ٩ ، ٦٨ ، ٩٤ ، ٣١٢ ، ٣١٧ ، ٤٧٢ ، ٤٧٥ ، ٧٦٣).

٩٦ ـ البيهقي، ص ٣٠١.

٩٧ ـ البيهقـي، ص (٥٠٥، ٦٦٩، ٦٧٨). تـولى الحاجـب بكتغـدي قـائداً لغلمان السراي (القصر) في حملـة الجيش على مـدينة نسـا سنة ٤٢٦ هـ/ ١٠٣٥م، البيهقـي، ص ٥١٧.

٩٨ ـ نفس المصدر، ص (١، ٢، ٥، ٧).

٩٩ـ نفس المصدر، ص ٣١٠ـ ٣١٢.

١٠٠ ـ نفس المصدر، ص ٣١٩ـ ٣٢١.

١٠١ ـ ايضاً، ٣٨٨ـ ٣٨٩.

١٠٢ ـ ص ٤٦٨.

١٠٣ ـ ص ٣١٢.

١٠٤ ـ زبدة التواريخ، ص (٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ـ ٤٥).

١٠٥ ـ زبدة التورايخ، ص ٢٧.

١٠٦ ـ نفس المصدر، ص ٦٨.

١٠٧ ـ البيهقي ص ١٧٠.

١٠٨ ـ نفس المصدر، ١٧١.

١٠٩ ـ نفس المصدر، ص ١ .

١١٠ ـ نفس المصدر، ص ٥٦٢.

١١١ـ نفس المصدر، ص ١٧١.

١١٢ ـ عبـد الغافر الفـارسي، تاريخ نيسـابور والمنتخب مـن السياق، طبعة قـم ايران ١٤٠٣هـ ص، ٦٨٠.

١١٣ـ Ellphinstone, 1889,p. ٣٤٩.

١١٤ ـ البيهقي، ص ٤٨١.

١١٥ـ {Mohammad Habib Sultan Mahmoud Of Ghaznin, Lahore, 1928, P 45}

{Ellphlinstone, History Of India, London 1889, P.349}

١١٦ ـ {Meyer, South - Asia. A short History Of The Sub - Continent , Neww Jersy P81}، ١٩٦٧.

---

١١٧ ـ الهرثمي، ١٩٣٩ ص ٥١.

١١٨ ـ الطوسي: ١٩٨٧: ص ١٤٠.

١١٩ السبكي، ج ٥ ص ٣١٨ / ابن خلكان، ١٩٤٨م: ج ٤ ص ٢٦٥ / البيهقي، ٦٦٣.

١٢٠ ـ Habib,p (٤٥).

١٢١ ـ البيهقي، ٣١١ ـ ٣١٢.

١٢٢ ـ البيهقي، ٦٦٥.

١٢٣ ـ البيهقي، ٦٦٤.

١٢٤ ـ الكامل، ج٩، ٤١٦ ـ ٤١٧ .

١٢٥ ـ البيهقي، ص ٤٧٨ .

١٢٦ ـ البيهقي، ص ١٤٣ .

١٢٧ ـ البيهقي، ص ص ١٢٣، ٣٦٦، ٥٠٠ الخ...

١٢٨ ـ البيهقي، ص ٤٢، ومابعدها.

١٢٩ ـ البيهقي، ٦٤٦ .

١٣٠ ـ البيهقي، ٢٢٢، ٢٢٣ .

أثر تجارة المحاصيل الزراعية على نشوء الطرق التجارية في غور الاردن
(درب القفول)

منذ بداية العصر العباسي حتى نهاية العصر العثماني

د. جمعة محمود كريم
جامعة مؤتة
كلية الاداب / قسم السياحة والآثار
الكرك/ مؤتة
الاردن

تعنى هذه الدراسة بدرب القفول المار عبر غور الاردن الشمالي[1]. واثر تجارة المحاصيل الزراعية على نشوئه في العصور الاسلامية الوسيطة والمتأخرة (منذ القرن العاشر الميلادي وحتى ١٩٤٨م). وبالرغم من ان ذكر هذه الطريق التجارية جاء في فترة زمنية متأخرة؛ وذلك ما بعد القرن السادس عشر الميلادي، الا أن هدف هذا البحث هو تتبع اصول واهمية هذه الطريق منذ بداية العصر الاسلامي الوسيط، معتمداً في ذلك على:

١- المصادر التاريخية والجغرافية.

٢- ملاحظات الرحالة المسلمين والعرب والرحالة الاوروبيين الذين زاروا غور الاردن منذ بداية القرن التاسع الميلادي.

٣- نتائج المسوحات الأثرية السابقة في غور الاردن الشمالي.

٤- نتائج الحفريات الأثرية السابقة في غور الاردن الشمالي.

٥- نتائج الحفريات الأثرية الاخيرة في موقع ذراع الخان.

تفيدنا المصادر التاريخية والجغرافية ان ازدهار غور الاردن الزراعي قد استمر خلال العصر العباسي (١٣٢-٦٥٦هـ/ ٧٥٠-١٢٥٨م). فيذكر الاصطخري[2] وابن الفقيه[3] كثرة العيون والاودية الجارية في غور الأردن، وإزدهار زراعة النخيل فيه. كما يصفه ابن حوقل[4] بأنه بقعة جميلة تكثر فيها زراعة أشجار النخيل والازهار. ويحدد المقدسي،[5] في القرن العاشر الميلادي مزروعات كل مدينة من مدن غور الاردن. فاشتهرت منطقة اريحا، بزراعة النيلة والنخيل والموز وقصب السكر، أما منطقة بيسان، فقد اشتهرت بزراعة النخيل والارز. وقد سجل الادريسي،[6] أن اشجار النخيل والنيلة قد زرعت بكثرة في جنوب غور الاردن أيضاً.

ونتيجة لاستمرارية ازدهار غور الاردن زراعياً خلال العصر العباسي، فقد نشأت فيه مجموعة من القرى الزراعية، التي تحيط بالمدن الإدارية[7]. ونذكر من هذه المدن الادارية، الواقعة في شرقي غور الاردن، مدينة طبقة فحل، الواقعة في شمال غور الاردن، وعمتا[9] (قرية أبو عبيدة حالياً)، الواقعةفي وسط غور الأردن، وزُغَرْ (أو صُغرْ) (قرية الصافي حالياً)، الواقعة للجنوب من البحر الميت.

وبالـرغم من أن المصادر التـاريخية والجغرافيـة لم تحدد لناأسماء وأماكن وجـود القرى الزراعية، والعائدة للعصر العبـاسي في غور الاردن، إلا أنه يمكننا حالياً مـن رصدها على خارطة غـور، وذلك من خلال نتائج المسـوحات الأثرية الأخيرة التـي جرت في المنطقة. فقد تمكنت بعثة مسـح غور الأردن عامي ١٩٧٥ و١٩٧٦م من تسجيل ستـة عشر موقعاً أثـريـاً(١٠)، تمثل ما نسبته ١٤,٧٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في المنطقة الممتدة من العدسيـة شمالاً والبحر الميت جنوباً، وقـد التقط عن سطحها مخلفات حضـارية تعود للعصر العباسي/ الفـاطمي. كما تمكـن الباحث مـن التعرف على مخلفـات حضاريـة تعود للعصر العباسي في مـوقع واحـد، يمثل مـا نسبته ١٤,٧٪ مـن المجموع العـام للمواقـع المسجلـة في منطقـة سليخـات)(١١). وأمكن التعرف على المخلفات الحضارية العائدة للعصر العباسي/ الفاطمي في ثـلاثة مواقع تمثل قرى زراعيـة بمنطقة جسر الشيخ حسين، الواقعة في غور الأردن الشمالي(١٢).

كما اشتهر غور الاردن باستخراجه لمعادن هامة، إلى جانب المنتوجات الزراعية السابقة الذكـر، نذكر منها الملـح والقار المستخرج من البحـر الميت(١٣). وقد مثلت المنتوجات الزراعية، العماد الاقتصـادي لقرى ومدن غور الاردن في العصر العباسي/ الفـاطمي. ذكر المقدسي أهـم صادرات مدن غـور الأردن في القرن العـاشر الميلادي؛ فصُدرت النيلـة من أريحا، وصُدرت النيلـة والتمور والعصير المستخـرج من قصب السكـر من زُغـر (صُغَر) وبيسان، وصُدر الرز مـن بيسان أيضاً(١٤). ويبدو أن مادة السكر المستخرجة من قصب السكر قد مثلّت أهـم صادرات غور الاردن، وذلك منذ القرن العـاشر وحتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي(١٥).

يرى هارتمان اعتماداً على ما أورده ابن خرداذبة، وابن قدامة، واليعقوبي، والمقدسي، أن الطريق المارة عبر فيق، فطبريـا، فبيسان، فمرج ابن عامر، هي الطرق التجـارية الأساسية التي كـانت تصـل خلال العصر العباسي بين دمشـق والقاهـرة. كما يذكـر المقدسي(١٧) طريقاً تجارياً أخرى تمر عبر غور الأردن الجنوبي، وتمتـد هذه الطريق من القدس الى اريحا، وبيت الرام (الرامه حالياً)، وعمان، ومآب أو الزرقاء، واذرعات (درعا حالياً) ومن ثم الى مدينة دمشق.

إن وفرة الإنتاج الزراعي لقرى غـور الأردن في العصر العباسي، وكثرة مدنه الإدارية، كطبريا، وبيسـان، وطبقة فحـل، وعمتا، واريحا، وزغـر، تقودنـا للاعتقـاد بوجـود طرق تجارية، تـربط بين هـذه الحواضر من نـاحية، وبين الطريـق الرئيسـة الواصلـة بين دمشق والقاهرة، من نـاحية أخرى. يبدو أن المصادر التاريخية والجغرافيـة لاتسعفنا في رصد هذه الطرق التجارية الواصلـة الى الطريق الأساسي السابق الذكر، ولـذا كان لابد من الإعتماد على المعطيات الأثرية، ما تسنى ذلك، لتتبع الطريق الفرعية.

يبدو أن البعثة الأثـرية الأسترالية العاملـة في مدينة طبقة فحـل، قد تنبهت أخيراً لهذه الملاحظة، حيـث أجرى فرانك كـوكي (Koucky,F)[١٨] مسحاً أثرياً للمنطقة المحيطة بمدينـة طبقة فحل، بغرض رصـد طرق المواصلات الـواصلة اليها من مختلـف الجهات. ولقد اعتمـد كوكي في رصـده للطرق الواصلة الى مـدينة طبقة فحـل من الجهة الغـربية، مسبقاً على المعابر الرئيسة (مخاضات) الطبيعيـة لنهر الأردن. وعلى ذلك يرى هذا الباحث أن هناك طريقين يصلان طبقـة فحل ببيسان، يمر الأول عبر الحمة، وخربـة الشيخ محمد، ومن ثم إلى نيسان، أماالطريق الثاني فيمر عبر بلدة المشارع، وتل غنام، وتل الشيخ داوود، وكفر روبين، وبيسـان. كما رصدت طرق أخرى تقـود من طبقة فحل الى المنطقـة الشرقية باتجاه عجلـون وجرش. وبناءً على دراسـة الشقف الفخاريـة الظاهرة على سطـح المواقع الأثريـة المارة بها هذه الطـرق الفرعية، والـواصلة بين مدينتين طبقـة فحل وبيسـان، فقد أرخت للفترات الكلاسكية والإسلامية المبكـرة (العصر الأموي)، والإسلامية الوسيطة (العصر الأيوبي/ المملوكي).

ويرى الباحـث أن كوكي قد أخطـأ في رصد الطريق الـواصل بين مدينتي طبقـة فحل وبيسان، وذلك اعتماداً على نتائج حفـرياته الأثرية الأخيرة في موقع تل قـدسية الواقع بين مـدينتي طبقـة فحـل وبيسان. ويمثـل هـذاالموقع حلقـة وصـل أساسيـة بين المدينتين في الفترات الكلاسيكيـة والإسلاميـة، حيث عثر في الموقـع على سويات أثـرية تعـود لجميع الفترات الســالفـة الــذكــر[١٩]. ومما يؤكد هذه الرؤية أيضاً، هو العثور على الشواهد الحجريـة، والعائدة للعصر الروماني، الـدالة على الطرق التجاريـة المارة عبر غور الأردن، والـواصلـة بين مـدينتـي طبقــة فحـل وبيسـان، في مــواقـع طـواحين السكـر، وتـل الأربعين[٢٠]، الواقعة على بعد ٨٠٠ متر للشرق من تل قدسية، وعلى ذلك يمكن تتبع الطريق الواصلة بين مدينتي طبقة فحـل وبيسان، وذلك حسب المعطيات الأثرية،كما يلي: طبقة فحل، طواحين السكر، تل الأربعين، تل قدسية، جسر الشيخ حسين، وبيسان.

كشفت الحفريـات الأثرية في موقـع طبقة الفحل عن منشـآت معمارية كبيرة ومخلفات أثـرية أخـرى تعود للعصر العبـاسي الفاطمـي. ويـرجح الأثـاريون القـائمون على هـذه الحفـريـات أن هـذه المنشآت المعماريـة أستخـدمـت لأغـراض عـامة كـأسـواق تجاريـة أوخـــــان[٢١]. وكشفت الحفريات الأثرية في موقع تل قدسية، رغم صغَر المساحة المحفـورة، عـــن مخلفـات حضــاريـة ضمـــن طبقـات أثــريــة تعـَـود للعصر العبــاسي/ الفـــاطمـــي[٢٢]. كما عُثر على مثيل لهذه المخلفات الأثرية في موقع قم الأثري[٢٣]، الواقع على المرتفعات الشرقية بين مدينتي اربد والشونة الشمالية.

كما أمكن التعرف على مخلفات أثرية تعود للعصر العباسي/ الفاطمي على سطح عدد من المواقع في منطقة وادي العرب[٢٤]، الواصل بين المرتفعات الشرقية، في شمال الأردن، وغور الأردن، قرب الشونة الشمالية. إن المعطيات الأثرية الآتية من هذه المواقع تدفع للأعتقاد بوجود خط تجاري آخر يمر عبر غور الأردن في العصر العباسي، يوصل بين الطريق الرئيسي المار عبر طبريا وبيسان، الى حوران، مخزن القمح والحبوب، كما وصفت من قبل المقدسي[٢٥] في القرن العاشر الميلادي. ويُعتقد بأن هذا الخط التجاري يمر عبر بيسان، وتل قدسية، ووادي العرب، وقم، واربد، والكسوة، ودمشق. ولعل الحفريات الأثرية في شمال الأردن، تسعفنا في المستقبل في تتبع أدق لمراحل هذا الخط التجاري، والذي يمثل أصل الطرق التجارية والمدعوة لاحقاً بإسم درب «القفول».

تمكن الصليبيون منذ بداية القرن الثاني عشر الميلادي من احتلال فلسطين وأجزاء من جنوب الأردن، وأسست فيها مجموعة من الحصون العسكرية[٢٦]، كما أنشأ الصليبيون عدداً من القلاع العسكرية على الطريق التجارية الأساسية، والواصلة بين حاضرتي الخلافة الإسلامية، دمشق والقاهرة، والمارة عبر غور الأردن الشمالي. نذكر من هذه القلاع، قلعة طبريا، وقلعة بيسان، وقلعة الطور. ونتج عن هذا الحتلال أن قطعت طريق الإتصال المباشر بين دمشق والقاهرة، المارة عبر الجزء الشمالي من غور الأردن[٢٨]. فاستخدمت طرق أخرى أكثر مشقة وأبعد مسافة، لتمر عبر صحراء سيناءجنوب فلسطين، وجنوب الأردن، ومن ثم عبر شرق الأردن ومحاذاة المنطقة الصحراوية الى دمشق. ومن هذه الطرق «درب البدرية» التي كانت تمر عبر جنوب فلسطين، موصلة الى وادي موسى، ثم عبر شرق الأردن الى دمشق[٢٩]. واستعمل هذه الطريق السلطان المملوكي بيبرس عام ١٢٧٦م للوصول الى البتراء والكرك، وحددت أهم المحطات الواقعة عليه. كما استخدمت طريق أخرى أقصر مسافة من الأولى، ولكنها أكثر خطراً، وهي الطريق المارة عبر جنوب فلسطين الى غور الصافي أو غور دامية، وثم عبر شرق الأردن الى دمشق[٣٢].

ويبدو أن المدن الإدارية العائدة للعصر العباسي/ الفاطمي، والواقعة في غور الأردن كطبريا، وبيسان، وطبقة فحل، واريحا، قد تقلصت الى أن اصبحت قرى صغيرة في القرن الثاني عشر الميلادي[٣٣]، وظهرت، بدلاً منها، مدن جديدة في القرن الثالث عشر الميلادي، مثل القصير (الشونة الشمالية)، وعمتا (قرية أبو عبيدة حالياً)، وبيت الرام (قرية الرامة حالياً) ودير الخصيان (موقع غير معروف لكنه يقع في غور البلقاء)[٢٣]. ويبدو أن المدن الإدارية العائدة للعصر العباسي/ الفاطمي، والواقعة في غور الأردن، قد أصابها الدمار والهجران، نتيجة لوقوعها على الطرق الحربية بين الأيوبين والصليبين. كما يبدو أن بناء قلعة الربض عام ١١٨٤م قد وفر الامن والإستقرار للقرى الزراعية الواقعة في وسط غور الأردن، لتظهر مدينة عمتا (أبو عبيدة) كحاضرة غور الأردن الأساسية في القرن الثالث عشر الميلادي[٣٤].

شهد غور الأردن، إزدهاراً اقتصادياً نظراً لإنتعاش الزراعة الصناعية، المتمثلة بزراعة قصب السكر في غور الاردن(٣٥)، ومرور طرق المواصلات الرئيسة بين دمشق والقاهرة عبر الجزء الشمالي من غور الأردن، مماساعد على نقل المنتوجات الزراعية والصناعية من غور الأردن الى مراكز التمدن، خلال العصر المملوكي، ازدهاراً زراعياً ونمواً سكانياً وخلال العصر الأيوبي/ المملوكي، شهد غور الأردن كثافة سكانية عالية. ويبدو أن زراعة قصب السكر تتطلب جهوداً بشرية مدربة وكبيرة العدد، ولذلك فقد جلب الأمراء الأيوبّيون والمماليك أعداداً بشرية كبيرة(٣٧) (يُعتقد بأن غالبيتها جاءت من شمال افريقية) للإشتغال بحقول قصب السكر وبناء الطواحين اللازمة لصناعة السكر والآنية الفخارية اللازمة لتصنيع السكر، تلك التي سماها النويري بالأباليج(٣٨). وتؤيد نتائج المسوحات والحفريات الأثرية التي جرت في غور الأردن ازدهاره وكثرة قراه الزراعية، والعائدة للعصر الأيوبي/ المملوكي (انظر الخارطة رقم(١). فقد سجلت بعثة مسح غور الأردن في عام ١٩٧٥ و١٩٧٦م مائة وتسعة عشر موقعاً(٣٩)، تمثل ما نسبته ١, ٥٣٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في غور الأردن، وقد ظهرت على سطحها مخلفات حضارية عائدة للعصر الأيوبي/ المملوكي. وقد وصفت ثلاث وثلاثين موقعاً من هذه المواقع على أن غالبية المخلفات الحضارية الظاهرة على سطحها تعود للعصر الأيوبي/ المملوكي. كما وصفت بعض هذه المواقع، كقرى زراعية، وأخرى خصصت لأغراض تصنيع السكر(٤٠). أما في منطقة جسر الشيخ حسين، فقد عثِر على المخلفات الحضارية العائدة للعصر الأيوبي/ المملوكي في ستة مواقع، وقد قُسِّمت هذه المواقع أيضاً الى قسمين، أُستخدم الأول منها كقرى زراعية، وأُستخدم الثاني كمراكز لتصنيع السكر من قصب السكر، وذلك من خلال العثور على كميات كبيرة من الشقف الفخارية التي تخص أواني تصنيع السكر أو العثور على إنشاءات معمارية أُستخدمت كمعاصر لقصب السكر(٤١). كما أُمكن أيضاً وضع التصنيف السابق للمواقع الأثرية التي حملت على سطحها مخلفات حضارية عائدة للعصر الأيوبي / المملوكي في منطقة سليخات(٤٢). وقدّر الباحث حمارنة، عدد طواحين السكر، والعائدة للعصر الأيوبي/ المملوكي، في غور الأردن بحوالي ٣٠ طاحونة(٤٣). وقامت الباحثة أبو دلو، بدراسة وتوثيق بعضها والواقعة في شمال ووسط غور

ونظرا لاهمية غور الاردن الاقتصادية في العصر المملوكي فقد قسم الى اربع ولايات هي : الغور الامجدي ، والغور التقوي ، وغور بيسان ، وغور قصير بن معين (الشونة الشمالية)(٤٨) . ويضيف ابن شداد (٤٩) ان الغور هو ضمن ولاية دمشق وقسم الى غور طبريا والسواد . ولقد وزعت هذه الاقسام بين الامراء المماليك الحربيين كاقطاع حربي ، ومثال ذلك منح السلطات المملوكي بيبرس كامل منطقة القصير (الشونة الشمالية) للامير عز الدين الاتابك الفخري (٥٠).

ويبدو ان النشاط الزراعي والصناعي لقرى ومدن غور الاردن ، في العصر الايوبي / المملوكي ، قد وفر مادة كبيرة للمتاجرة بها كما ان نظام الاقطاع الحربي في العصر الايوبي / المملوكي قد وفر الأمن والاستقرار في المنطقة ويبدو ان هذه الامور من ابرز العوامل التي ساعدت على نشاط الطرق التجارية المارة عبر غور الأردن . ومما يؤكد هذه الرؤية التوزيع المكاني للمواقع الاثرية ، والتي ظهر على سطحها مخلفات حضارية تعود للعصر الايوبي / المملوكي . حيث تركز وجود هذه المواقع بالقرب من الطرق التجارية المارة عبر غور الاردن ، كطريق بيسان ، الشونة الشمالية — زحر — اربد — او طريق اريحا ، الكفرين ، عمان (٥١).

ويبدو ان النشاط الزراعي والصناعي لقرى ومدن غور الاردن في العصر الايوبي / المملوكي ، بالاضافة الى مرور طرق التجارة الرئيسية عبره ، قد عكس اثرهما على تسمية بعض المواقع ، فمثلاً نلاحظ تغير اسم قصير معين الدين الذي ظهر في الفترة الايوبية الى اسم الشونة الشمالية في العصر المملوكي ، والتي يقابلها في جنوب غور الاردن ، الشونة الجنوبية ، وتدل الدراسة اللغوية الدلالية لموقع الشونة انه استخدم كمركز لتجميع او تخزين المنتوجات الزراعية كالحبوب ، والصناعية كالسكر (٥٢) ، استعداداً لتصديرها الى المراكز الحضرية الكبيرة كدمشق والقاهرة ومما يعزز ذلك ، وقوع كل من الشونة الشمالية والشونة الجنوبية على طرق تجارية. كما ان اصول هذه التسمية «الشونة» والتي جاءت من اللغة القبطية (٥٣)، تدل بشكل واضح على استخدام مصطلحات جديدة في غور الاردن آتية مع نفوذ الامراء المماليك في المنطقة . وبذلك فان النشاط الزراعي والصناعي لقرى غور الاردن في العصر المملوكي ، كان من اهم العوامل التي أدت الى انتعاش الطرق التجارية المارة عبره .

ويبدو ان الطريق التجارية المباشرة بين القاهرة ودمشق قد انتعشت مرة اخرى مع زوال الخطر الصليبي عن وسط فلسطين . كما يستدل من تتبع المحطات الرئيسية الواقعة عليه ، ان هذه الطريق قد تحول مسارها من مرتفعات الجولان الى شمال الاردن . فانشأ السلطان المملوكي بيبرس سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م على هذه الطريق مجموعة مراكز، دعيت باسم محطات البريد (٥٤)، ومع ان الهدف من انشاء هذه الطريق كان

عسكرياً اكثر منه تجارياً الا انها ساعدت في حماية التجار من الاعتداءات، وفي رسم الطريق التجارية لاحقاً، ومن هذه المحطات ما تطور ليصبح خاناً على هذه الطريق، التي دعيت في نهاية العصر المملوكي وخلال العصر العثماني باسم درب القفول. نذكر من هذه المحطات بيسان، والمجامع وزحر، والطيبة، واربد (٥٥) ويرى هارتمان، (٥٦) ان السلطان المملوكي بيبرس، اسس محطات البريد الى الجنوب والشرق من مناطق النفوذ الصليبي، والذين حتى فترة تأسيس خط البريد، يسيطرون على مدن الساحل الفلسطيني ومنطقة الجليل وبناء على ذلك يرى متمان (٥٧) ان محطات البريد هذه لم تنشأ على الطريق الروماني، وانما اسست على طريق مباشر بين اربد وبيسان عبر غور الاردن، ويرى هذا الباحث أيضاً، ان من بين المحطات الواقعة على طريق البريد في غور الاردن، جسر الشيخ حسين، وتل الاربعين، ووقاص، والقصير (الشونة الشمالية)، ومن ثم الى اربد بمحاذاة وادي العرب. وانتقلت هذه الطريق لاحقاً في نهاية القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر الى الشمال قليلاً حيث حدد القلقشندي (٥٨) معالمها بذكره للمحطات التجارية الواقعة عليها، نذكر منها: عيون التجار، الجسر (جسر الجامع) والقصير (الشونة الشمالية)، وزحر العقبة (وتسمى ايضاً زحر النصارى) واربد (انظر الخارطة رقم ١، الطريق رقم ٢). ويبدو ان انتقال الطريق التجاري للشمال قليلاً لتمر عبر زحر العقبة بدلا من الطيبة، كان سببه زوال الخطر الصليبي خلال هذه الفترة من ناحية، ولتلافي الصعاب الناتجة عن مرور هذه الطريق عبر اراضي جبلية وعرة من ناحية ثانية.

ولتسهيل المرور عبر نهر الاردن، اقيمت عليه في الفترة المملوكية عدة جسور ففي سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م امر السلطان بيبرس ببناء جسر على نهر الاردن في منطقة دامية (٥٩) وبذلك نشط الخط التجاري المار عبر جنوب غور الاردن والواصل الى عمان ومن ثم الى دمشق عبر درعا. وأمر السلطان برقوق سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م ببناء جسر اخر على نهر الأردن في المنطقة الواقعة بين الشونة الشمالية وبيسان (٦٠) وذكر العمري مجموعة جسور على نهر الاردن وتقع جميعها في غور الأردن الشمالي، منها يعقوب الصنبرة، والعادلي، وسامات المقارن، وجسر شامة (٦١)، وتمكنت بعثة مسح غور الاردن عام ١٩٧٥م من رصد بعض من هذه الجسور المدمرة، منها بقايا جسر اعتقد انه يعود للعصر المملوكي، يقع على الطرف الجنوبي الشرقي لموقع مقام الشيخ حسين، (الموقع رقم ٤٢)(٦٢) والواقع بين تل قدسية وبيسان.

وحدد القلقشندي وابن تغري بردي المحطات التجارية الواقعة على الطريق الموصل بين القاهرة ودمشق في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، ، نذكر منها في غور الاردن بيسان والجامع والقصير، (٦٣) ولقد اهتم السلاطين والامراء

المماليك بهذا الخط التجاري وذلك لانـه يمثل الخط التجـاري المباشر والـواصل بين حاضرتي السلطنـة المملوكية ، دمشق والقـاهرة . فقد اسس هـذا الخط التجاري الاخير واعتنى بـه الامير الدمشقي سيـف الدين تنكـنز وكان ذلك سنـة ٧٤١ هـ/ ١٣٤٠م (٦٤) كما انشئت عليـه الى جانـت مجموعـة مـن السـور محطات تجاريـة عـديـدة (خانات)(٦٥) .نـذكر من هذه الخانات في غور الاردن ، خـان الاحمر في منطقة بيسان ، الذي بناه الوالي الـدمشقي سلار سنـة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م (٦٦) وذراع الخان ، الـواقع على بعد ٥ر١ كم للجنوب الشرقي من مدينة الشونة الشمالية (٦٧).

شهد غور الأردن خـاصة ، وجنوب بلاد الشـام عامة ، في النصف الثـاني من القرن الرابـع عشر والقرن الخامس عشر الميلاديين ، مجمـوعة عوامل سلبيـة ، ادت الى ظهور تغييرات اساسيـة في انماط الإستيطان والانتاج الـزراعي ، نذكـر منها، ضعف الـدولة المملوكية عسكرياً واقتصادياً أدى الى قلّـة حماية المزارعين من غارات القبائل البدوية ، وزيـادة في نسبة الضرائب المدفـوعـة على الانتاج الـزراعـي (٦٨) الامر الـذي ادى الى هجرة القرى الـزراعية . كما ان الطواعين والحميات والاوبئة اثـرت بشكل مباشر على التعداد السكاني في بلاد الشـام عامة ، وغور الاردن خاصة حيـث ادت هذه الاوبئة التي حـدثت ما بين ١٣٤٧/ ١٥١٦م الى انقـاص التعداد السكاني في هـذه المنطقة الى الثلث . ويشير الى ذلـك صراحة المقـريزي ، حيـث سجل هـذا المؤرخ ان الاوبئة التـي حدثت سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٨٢م ، ادت الى افناء سكان الغور وعكا ، وصفد ، والقدس ، ونابلـس والكرك والبـدو كما أهلك الطـاعون ، الـذي حدث في سنـة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م الحيوانـات البرية في غـور الاردن ويذكـر المقريـزي وابن تغـري بردى ان الاسـود ، والحمر الوحشية ، والـذئاب ، والخنازير ، والارانب البرية ، عثر عليهـا مطعونة ايضاً ، ويبـدو ان هـذه الاوبئـة ادت الى انخفـاض كبير في عـدد المشتغلين في حقـول قصب السكر ، كما قلت الماشية المدربة في حـرث الارض وادارة الطواحين مما ادى الى توقف انتاج السكر في غور الاردن في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي .

ومما يـدعم هـذه الرؤيـة ، ان وظيفة شـادّ السكر التـي كانـت موجـودة في القرن الـرابـع عشر الميـلادي في غـور الاردن قـد قلت اهميتهـا في القـرن الخامـس عشر الميلادي، لتـدمج مـع وظيفة ناظـر الخاص (ناظـر الاملاك السلطـانية) (٧٣) كما ان استعراض سريـع للمنتوجـات الزراعيـة لقرى غـور الاردن والعائدة لنهـاية القـرن السادس عشر الميلادي ، والمسجلـة في سجلات الدولة العثمانيـة تشير بشكل واضح الى عدم ذكر زراعـة قصب السكر ضمن تلـك المنتوجات (٧٤). كما ان تصديـر مادة السكر وهو الانتاج الرئيسي لقرى غـور الاردن في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين الى اوروبا قد توقف (٥٧). وبـدلاً من ذلك اخذت منطقة الشرق تستورده من قبرص وصقلية في القرن الخامس عشر الميلادي (٧٦).

كما شهدت منطقة جنوب بلاد الشام خلال القرن الخامس عشر الميلادي نشاطاً ملحوظاً لتحرك القبائل البدوية التي اخذت توسع اماكن تواجدها باتجاه المناطق الزراعية . كما اخذت هذه القبائل البدوية تهدد طرق التجارة والحج المارة عبر جنوب بلاد الشام (٧٧).ويبدو ان القبائل البدوية قد احكمت سيطرتها على مناطق واسعة من جنوب بلاد الشام في القرن الخامس عشر الميلادي ، حيث يسجل المؤرخ ابن طولون تسيير حملات عسكرية لحاكم مدينة دمشق المملوكي ضد القبائل البدوية المتواجدة في حوران والزرقاء وشمال غور الاردن. ويشير المقريزي بشكل مباشر ، ان القبائل البدوية هاجمت غور الاردن في عام ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩ م ووصلت الى القصير (الشونة الشمالية) حيت قتلت عددا من العمال المشتغلين بتصنيع السكر ، ونهبت ما عثرت عليه من هذه المادة وهددت طرق المواصلات التجارية الواصلة بين دمشق والقاهرة (٧٩).

ويبدو ان انخفاض التعداد السكاني الناتج عن الطواعين والاوبئة المتكررة وفقدان الامن ، وزيادة الضرائب على مزارعي غور الاردن في العصر المملوكي المتأخر كانت من اهم الاسباب التي ادت الى ما يلي : اولاً تغير في اقتصاد قرى غور الاردن من اقتصاد تجاري يقوم اساساً على الزراعة الصناعية (زراعة قصب السكر) الى زراعة الاكتفاء الذاتي ، وثانياً ظهور تحول في سير خطوط الطرق التجارية المارة عبر شمال غور الاردن. ويبدو ان فقدان الامن على الطريق المارة عبر شمال الاردن، والتغيير الذي حل في طبيعة الانتاج الزراعي والصناعي في مناطق مرور هذه الطرق (شمال غور الاردن وحوران) الذي لم يعد انتاجاً تجارياً كانت من اهم العوامل التي ادت الى تغيير مسار الطريق الرئيسي الواصل بين دمشق والقاهرة حيث يعتقد هارتمان ان الخط التجاري المار عبر بيسان فالمجامع فزحر ، فاربد استبدل بخط تجاري اخر في الفترة الواقعة بين ١٤٧٠ — ١٧٠٠ م وكانت الطريق التجارية الجديدة تمر بهضبة الجولان عبر فيق ، وجسر بنات يعقوب ، وصفد (٨٠). كما ان طريق الحج التجارية الواصلة بين القدس واريحا وعمان قد تبدل مسارها هي الاخرى خلال هذه الفترة لتتخذ مساراً يتجه نحو الجنوب من البحر الميت (٨١).

صاحب الحكم العثماني لمنطقة جنوب بلاد الشام في القرن السادس عشر الميلادي بعض الاستقرار ، وشكلت المنتوجات الزراعية عماد اقتصاد قرى الاردن (٨٢)، وبالمقابل شهدت فلسطين زيادة سكانية واستقرار امني ومدني (٨٣) ومن اجل حماية طريق الحج الواصل بين دمشق ومكة ، والمار عبر شرقي الاردن ، انشأت الدولة العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين سلسلة من الحصون العسكرية نذكر منها ضبعة والقطرانة والحسا والعنزة ومعان وفاصوعة،

والمدورة (٨٤). وساعد وجود مثل هذه القلاع على حماية التجار والحجاج ، كما شجع على الاستقرار في المناطق الداخلية من الاردن والاشتغال بالزراعة (٨٥). وبناءً على دراسة سجلات ضرائب الدولة العثمانية والعائدة لنهاية القرن السادس عشر الميلادي رصدت ست عشرة قرية في غور الاردن وقد مثل انتاجها الزراعي كالقمح والشعير والنيلة عمادها الاقتصادي (٨٦) ولكن يبدو ان تأثير سيطرة القبائل البدوية على غور الاردن منذ نهاية العصر المملوكي ، قد استمر ايضا في نهاية القرن السادس عشر الميلادي ، ويستدل على ذلك من خلال وصف سجلات ضرائب الدولة العثمانية لبعض قرى غور الاردن كالمخيبة وبيت رامة (الرامة) وحمة جور (حمة الغور) على انها خربة ومهجورة (٨٧) . ولعل نمط الاستيطان في بعض قرى غور الاردن خلال القرن السادس عشر الميلادي قد تحول من مستقر دائم الى نصف مستقر حيث يظهر ان تربية الماشية اخذت تشكل جزءاً هاماً من اقتصاد قرى غور الاردن خلال هذه الفترة (٨٨) .

ويبدو ان الطريق التجارية الجديدة المارة عبر هضبة الجولان، جسر بنات يعقوب وصفد ،كانت هامة للدولة العثمانية ، وذلك لأنها تمثل الطريق الرئيسة والواصلة بين القسطنطينية (العاصمة) ، ودمشق والقاهرة ،و لذلك اقيمت عليها مجموعة من المحطات التجارية ومحطات البريد ، نذكر منها خان التجار، بالقرب من بحيرة طبريا (٨٩). ويبدو ان السير على هذه الطريق في نهاية القرن السادس عشر الميلادي لم يكن آمناً ايضاً، اذ تذكر لنا بعض الوثائق العثمانية ان اهم محطة على هذه الطريق ، خان عيون التجار ، اصبحت مكاناً لالتقاء اللصوص والبدو (٩٠). ولذلك اسست على هذه الطريق قلاع عسكرية نذكر منها قلعة خان التجار بالقرب من مدينة طبريا ، والتي بناها حاكم مدينة دمشق ، سنان باشا عام ١٥٨١ م(٩١) واكد هذا الامر الرحالة العربي، عبد الغني النابلسي ، الذي بدأ رحلته من دمشق الى القدس في يوم الاثنين في ١٧ جمادى الثانية سنة ١١٠١ هـ/ آذار سنة ١٦٩٠م، عبر داريا وخان الشيخ وقرية سعسع ، والقنيطرة وجسر بنات يعقوب وجب يوسف وخان المنية وخان التجار ، وقرية الناعوة وقرية جلمة، وجنين ذ وعرابة ، ونابلس وعورتا ، وجماعين . ومردا وعقبة اللبن والبيرة والشيخ جراح ، والقدس. وذكر هذا الرحالة ان كثيراً من الخانات التي صادفها في طريقه كانت خالية او خربة، خاصة تلك المتواجدة في منطقة طبرية وان الطريق في منطقة الحولة في غاية الخطورة (٩٢).

ويبدو ان سياسة القادة الادارين المحليين في فلسطين كظاهر العمر (١٧٥٠ — ١٧٧٥م) واحمد الجزار (١٧٧٧ — ١٨٠٤م) في حماية القرى الزراعية الواقعة في شمال وسط فلسطين هي الاخرى قد اكدت تواجد القبائل البدوية كالسردية والصقر ، وصخور الغور في شمال غور الاردن (٩٣). الا ان نفوذ هذه القبائل قد وصل الى وسط فلسطين في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي (٩٤) .

ويظهر ان الطريق التجارية الفرعية المارة عبر شمال غور الاردن في الفترة الممتدة بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر الميلادي، كانت غير آمنة ولذلك لم تذكر من قبل المؤرخين والرحالة. ويشير بعض الرحالة صراحةً ان الطريق القديمة والمباشرة الواصلة بين دمشق والقدس عبر شمال الاردن كانت خطرة ولذلك استخدمت الطريق المارة عبر الجولان، وجسر بنات يعقوب، والجليل (٩٥). وعلى الرغم من ذلك فان هنالك دلالات واضحة على ان جميع طرق المواصلات المارة عبر الجولان وفلسطين خطرة ايضاً، وان انتقال التجار والحجاج، والرحالة من محطة الى اخرى يتم بحراسة القوات العسكرية العثمانية (٩٦). كما وصف الرحالة عبد الغني النابلسي، الذي زار القدس في عام ١٦٩٠م محطة خان عيون التجار على انها محطة رئيسة على درب القفول. الا ان الحالة الامنية في هذه المنطقة — طبريا — هي في غاية الخطورة، وان الوقف المجاور لهذه المحطة مدمر وان الطعام في هذه المنطقة قليل، ومن اراد الموت فليأت لهذا المكان (٩٧). كما وصف الرحالة الاوروبي ساندرسون الذي زار فلسطين عام ١٦٠١م هذه الحالة الامنية السيئة ايضاً(٩٨).

يعتبر الرحالة عبد الغني النابلسي اول من اشار الى تسمية درب القفول، الواصل بين محطة عيون التجار فالجامع، فالشونة الشمالية فزحر فاربد (انظر الخارطة رقم ١ الطريق رقم ٢). كما ذكر هذه الطريق، بنفس التسمية في القرن التاسع عشر الميلادي الرحالة الاوربي شوماخر (٩٩). ويبدو ان الطريق الواصلة بين محطة عيون التجار وجسر المجامع يتفرع الى فرعين الاول يتجه نحو الحمة وام قيس واربد وتدعى هذه الطريق باسم درب الحوارنة (١٠٠) (انظر الخارطة رقم ١ الطريق رقم ٣). اما الفرع الثاني فيتجه من عيون التجار فجسر الجامع فالشونة الشمالية، فزحر، فاربد، وتدعى هذه الطريق باسم درب القفول. ويبدو ان الطريق الاول درب الحوارنة كان أكثر شهرةً واستعمالاً من الطريق الثانية، في العصر العثماني المبكر (القرن السادس عشر — القرن الثامن عشر الميلادي). ومما يدل على ذلك تأسيس اسواق تجارية على هذا الدرب في القرن السادس عشر الميلادي، نذكر منها سوق حبراص(١٠١). كما اسست على هذه الطريق محطة مكوس لجمع الضرائب المستحقة على المسافرين والتجار. ولقد اسست هذه المحطة في مدينة ام قيس الاثرية والتي اخذت اسمها هذا نسبة الى ضريبة المكوس بدلاً من اسمها القديم جدر (١٠٢). كما سلك هذه الطريق بعض الرحالة الاوروبين في القرن التاسع عشر الميلادي للوصول الى منطقة اربد مثل بيركهاردت (١٠٣). ومن خلال تتبع المواقع التي ذكرها هذا الرحالة بين جسر المجامع واربد، يمكننا تتبع اهم المحطات الواقعة عليه وهي: ام قيس، وآبيلا (حرثا) وعين تراب، وحبراص، واربد.

ويجدر بالقوافل التجارية الآتية من سهول حوران ومنطقة عجلون والمحملة بالحبوب، ان تسلك طريق الحوارنة الى الطريق الاساسي المار بفلسطين نحو القاهرة ودمشق والموانىء الفلسطينية وذلك لوجود محطة مكوس (ام قيس) بينما تسلك هذه القوافل في طريق عودتها درب القفول وذلك لسهولته وعدم حاجتها لدفع ضريبة المكوس ، ويعتقد بان هذه الطريق ، اعتماداً على الدراسة اللغوية الدلالية ، سميت بدرب القفول ، لان التاجر يقفل راجعاً عبرها من حيث أتى .

وبالرغم من عدم ذكر اسم درب القفول في المصادر الكتابية العائدة للقرن السادس عشر الميلادي الا ان هناك دلائل لغوية واثرية تشير الى استخدامه في العصر العثماني ، رغم خطورة السير عليه. وقد اسست الدولة العثمانية محطات ثابتة على طرق التجارة ، يدفع فيها المسافرون والتجار، ضرائب حماية تدعى باج غفر »، وان الدراسة اللغوية الدلالية لوادي الغفر ، الواقع على درب القفول ، قبل الوصول الى مدينة اربد من الناحية الغربية مباشرة (١٠٤) تدل على ان محطة باج غفر كانت موجودة في هذا الوادي . وان هذا الوادي اخذ اسمه «وادي الغفر» المتداول حالياً ، في الفترة العثمانية نسبة الى اسم هذه الضريبة (١٠٥) كما تشير المكتشفات الاثرية في منطقة درب القفول على ان هذه المنطقة قد استمر الإستيطان فيها من العصر المملوكي الى العصر العثماني ، حيث امكن التعرف على محطات حضارية عائدة للعصر العثماني في عدة مواقع •في منطقة وادي العرب المحاذي لدرب القفول من الناحية الشمالية ، بالاضافة الى تسجيل عدد من الطواحين عليه والتي كانت تستخدم لطحن الحبوب (١٠٦) .كما عثر على عدد من الطواحين في موقع قم تعود للعصر العثماني (١٠٧).

وكمحاولة من الدولة العثمانية لاحكام سيطرتها على غور الاردن في القرن الثامن عشر الميلادي، فقد قسم اداريا الى ثلاثة أقسام : الاول ويشمل المنطقة الشمالية من غور الاردن (المنطقة الممتدة من نهر اليرموك شمالاً الى وادي الجرم جنوباً) ويتبع عمل بيسان وثم المنطقة الوسطى (ويشمل المنطقة الممتدة من وادي الجرم شمالاً الى نهر الزرقاء شمالاً الى البحر الميت جنوباً) ويتبع عمل البلقاء ونابلس (١٠٨) ، ولكن لم يقف الكاتب على اي دليل اثري او وثائقي يدل على وجود استقرار قروي ثابت في غور الاردن خلال هذه الفترة واستمر هذا الحال في بداية القرن التاسع عشر الميلادي ، حيث بالرغم من اصلاحات ابراهيم باشا (١٨٣١ — ١٨٤١ م) الادارية والزراعية في منطقتي الحولة وبيسان (١٠٩). لم تظهر قرى زراعية ثابتة في غور الاردن ويبدو ان من اهم الاسباب المؤدية الى ذلك هو تعاظم قوة القبائل البدوية المستقرة في غور الاردن حيث انها ثارت ضد ابراهيم باشا (١١٠) وافشلت مشاريعه وزادت قوة القبائل البدوية بعد رحيل ابراهيم باشا عن بلاد الشام في عام ١٨٤١ . حيث هاجمت القرى الزراعية في منطقة عجلون وحوران وهددت طرق التجارة (١١١).

وعلى ذلك يعتقد كارمون (١١٢) ان الطريق التجارية المارة عبر شمال غور الاردن «درب القفول» كانت غير مستعملة في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلادي وبدلاً منها استخدمت الطريق المارة عبر جسر المجامع، فالحمة فأم قيس، فأربد (درب الحوارنة).

ويبدو ان حالة الفوضى التي شهدتها جنوب بلاد الشام عامة، والأردن خاصة بعد رحيل قوات ابراهيم باشا عن بلاد الشام، دفعت الحكومة العثمانية الى ارسال قواتها العسكرية للسيطرة عليها وبشكل عملي. واستطاعت هذه القوات من السيطرة على الأردن من شماله الى جنوبه ما بين عام ١٨٥٠ وعام ١٨٩٣ (١١٨) وتمكنت هذه القوات بمساعدة القرويين من منطقة عجلون من الحاق هزيمة كبيرة بالقبائل البدوية (صخور الغور وعرب السعدية) المتمركزة في شمال غور الاردن (١١٤) ومع هذا الانتصار العثماني ظهر استقرار عام في المنطقة، وساعد على تثبيت هذا الاستقرار انشاء سكة حديد الحجاز المارة عبر شرقي الاردن (١١٥).

وظهر في القرن التاسع عشر الميلادي حاجة ماسة للحبوب في الأسواق الأوروبية (١١٦) وكنتيجة لهذه الحاجة ولإستتباب الامن في المنطقة، زرعت مساحات واسعة من سهول حوران والغور، بالحبوب (١١٧). ونتيجة لارتفاع درجة الحرارة في الغور فان الحبوب المزروعة فيه تنضج قبل تلك المزروعة في سهول حوران، وبالتالي يحصل مزارعو الأغوار على أسعار مرتفعة (١١٨). ولقد نشأ عن هذا النشاط الزراعي ان اخذت قرى غور الاردن بالظهور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، ابتداءً من المنطقة الشمالية ومن هذه القرى العدسية، والشونة ومعاذ، وعراق الراشدان والقليعات، وتل الاربعين (١١٩)، وبذلك عادت الى غور الاردن منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر الزراعة التجارية المتمثلة بزراعة الحبوب لقد شاهد الرحالة الاوروبين الذين زاروا غور الاردن خلال هذه الفترة حقول القمح المزروعة فيه (١٢٠)، ونتيجة حتمية للنشاط الزراعي التجاري، فقد عادت الحياة مرة اخرى للطرق التجارية المارة عبر شمال عور الاردن. ونخص منها بالذكر درب القفول الذي استعمل بشكل مكثف في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين للوصول الى سهول حوران الخصبة، والى سكة الخط الحديدي الحجازي، (١٢١) والتي وصفها الرحالة شوماخر، بانها الطريق الاساسية لنقل الحبوب من سهول حوران وجبل عجلون الى موانىء حيفا وعكا، اذ كانت القوافل تنقل عليها ما بين ٨٠،٠٠٠ — ١٠٠،٠٠٠ طن من الحبوب سنوياً (١٢٢)، وبقيت هذه الطريق نشطة الاستعمال حتى عام ١٩٤٨، حيث قطعت مع الاحتلال الاسرائيلي لفلسطين.

موقع ذراع الخان كشاهد مادي على درب القفول :

سجل الاثاريون الذين مسحوا منطقة غور الاردن عام ١٩٨٥ م . موقعاً أثرياً بالقرب من ضريح معاذ بن جبل، على بعد ٥ر١ كم للجنوب الشرقي من بلدة الشونة الشمالية ، يدعى ذراع الخان ، ووصفت المخلفات المعمارية الظاهرة على السطح بانها منشأة معمارية كبيرة ، اعتقد انها تمثل خاناً يعود الى الفترة المملوكية، او العثمانية (١٢٣) ، وارخت الشقف الفخارية الملتقطة عن السطح الى الفترات الاموية ، والايوبية ، المملوكية ، العثمانية، (١٢٤) كما سجل بيركهارت، إن القريتين الوحيدتين اللتان كانتا مأهولتين في شمال غور الاردن وقت زيارته لمنطقة شمال فلسطين في عام ١٨١٢ م هما، تل الاربعين ، ومعاذ (١٢٥). وسجل وجود بقايا خان يقع بالقرب من قرية معاذ (١٢٦). وزار الرحالة شوماخر، قرية معاذ، وقدر عدد سكانها بمائة واربعين نسمة، ولاحظ من هذه القرية وان هناك بقايا اثار لم تكشف بعد، ومن اجل تحديد تاريخ هذه المنشأة وتوضيح وظيفتها أُجْريَ في هذا الوقع حفرية اثرية في الفترة الممتدة بين ٢/ ١١ — ١٠/ ١٢/ ١٩٩٤ م (١٢٨) .

وقد تبين ان هذه المنشأة المعمارية مستطيلة الشكل (٥ر٦٢) م شمال/ جنوب × ٥ر٨٤م شرق / غرب) وباضلاع متوازية تحتضن مساحة وسطية مكشوفة (٥٣م شمال / جنوب × ٦١ م شرق / غرب) وظهر على طرفها الشمالي الشرقي والشمالي الغربي ابراج مربعة الشكل، (١٢٩) وبنيت الجدران الرئيسة لهذه المنشأة بصفين من الحجارة الجيرية المشذبة . واستخدم الملاط الجيري في تثبيتها ، وبلغ عرض هذه الجدران ١٢٠ سم استندت الى دعامات حجرية مربعة الشكل . اما الحجارة البازلتية فقد استخدمت في بناء مرافق البوابة الواقعة في منتصف الجناح الشمالي . وعثر على اعدادا كبيرة من الشقف الفخارية الخاصة بجرار التخزين في الجناح الشمالي ، مما يوحي بان الحجرات المجاورة للمدخل استخدمت لاغراض التخزين وبعتقد بان الحجرات المستطيلة التي عثر عليها في الجناح الشرقي استخدمت لاغراض السكن . اما الجناحان الجنوبي والغربي فلم نتمكن من التعرف على طبيعة استعمالها .

عثر في هذا الموقع على ١٢٤ قطعة، عملة/ التقطت ١٧ منها عن السطح وتراوح تاريخ قطع العملة التي وجدت في طبقات اثرية ما بين فترة حكم السلطان المملوكي قلاوون (١٢٨٠ — ١٢٩٠ م) والسلطان جقمق (١٤٣٨ — ١٤٥٣م) .

وعثر فوق هذه الطبقات الاثرية على حجارة ساقطة ، وقد غطت جميع مربعات الحفر . ويعتقد بان هذه المنشأة المعمارية قد هدمت بحدود ١٤٥٣ م، وذلك اعتماداً على التاريخ المتأخر لقطع العملة التي عثر عليها في طبقات اثرية في الموقع . ويتوافق هذا التاريخ مع زلزال حدث في سنة ١٤٥٦/ ١٤٥٧م، كان له اثر تدميري واضح على

المنطقة (١٢٠)، واما قطع العملة التي تعود الى فترات متأخرة كفترة السلطان قانصوه الغوري (١٥٠١ — ١٥١٦م) والسلطان العثماني مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥م) فقد جاءت عن سطح الموقع.

اعتماداً على دراسة المخلفات الأثرية التي وجدت على الارضيات، وعلى الاختلافات الموجودة في الطرز المعمارية من حيث الاضافات، وقطع الحجارة فان هذه المنشأة المعمارية (الخان) قد بنيت، او اعيد بناؤها في مرحلتين: تعود الاولى الى فترة السلطان قلاوون، (١٢٨٠ — ١٢٩٠م)، والثانية الى الفترة الثالثة من حكم السلطان الناصر محمد (١٣١٠ — ١٣٤١م).

يبرز العثور على شقف فخارية مستوردة من سورية ومصر وبلاد فارس، والعثور على قطعتي عملة صليبية، وقطعة عملة إلخانيّة، اهمية هذا الموقع على خطوط التجارة في الفترة المملوكية. كما تشير الدلائل الاثرية كالعثور على قطع عملة تعود لفترة حكم السلطان العثماني مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥م)، والعثور على شقف فخارية ضمن طبقات أثرية هي اقرب للسطح، مختلفة في تقنيتها عن تلك التي تعود للفترة السابقة المملوكية الى ان هذا الموقع استخدم في الفترة العثمانية ايضاً. ويؤكد ذلك التاريخ المتداول لدى السكان المحليين. ولكن لم يعثر على انشاءات معمارية تعود للعصر العثماني، وعلى ذلك يعتقد ان هذا الموقع استعمل في العصر العثماني، كمحطة استراحة قصيرة، حيث يتواجد بالقرب منه نبع ماء ومسجد الصحابي الجليل معاذ بن جبل، كما يحتمل ان هذا الموقع قد استخدم كأحد الاسواق المكشوفة على الطريق التجارية المارة بغور الاردن.

يستدل من هذا الإستعراض التاريخي والأثري، ان درب القفول المار عبر شمال الاردن يمثل احدى الطرق التجارية الرئيسة في العصر المملوكي للربط بين حاضرتي السلطنة المملوكية، دمشق القاهرة. وهناك دلائل أثرية وتاريخية واضحة، تدل على ان اصول هذه الطريق تعود للعصر العباسي، واستخدمت كطريق للبريد في العصر المملوكي المبكر. وقد مثل موقع ذراع الخان، الذي كشف عنه مؤخراً، احدى المحطات الرئيسة الواقعة عليه في شمال غور الاردن. وقد نشطت الحركة التجارية على هذه الطريق في ظل وفرة الانتاج الزراعي / الصناعي (قصب السكر) في العصر المملوكي، او الزراعي التجاري (الحبوب) لقرى غور الاردن في العصر العثماني المتأخر. ويبدو ان فقدان الامن والانتاج الزراعي القائم على مبدأ الاكتفاء الذاتي في نهاية العصر المملوكي وبداية العصر العثماني، كان من شأنها تغيير سير الخطوط التجارية الاساسية نحو الشمال لتمر بهضبة الجولان وشمال فلسطين. وبالرغم من ذلك، بقيت هناك طرقٌ تجارية فرعية (درب الحوارنة ودرب القفول) استعملت في العصر العثماني المبكر، وتوصل بين سهول حوران الخصبة وجبل عجلون مع الطريق الأساسية عبر محطة عيون التجار. وكان لاستمرارية استعمال هذه الطرق التجارية اثر واضح في استمرارية تواجد وانتعاش القرى الزراعية في شمال غور الاردن.

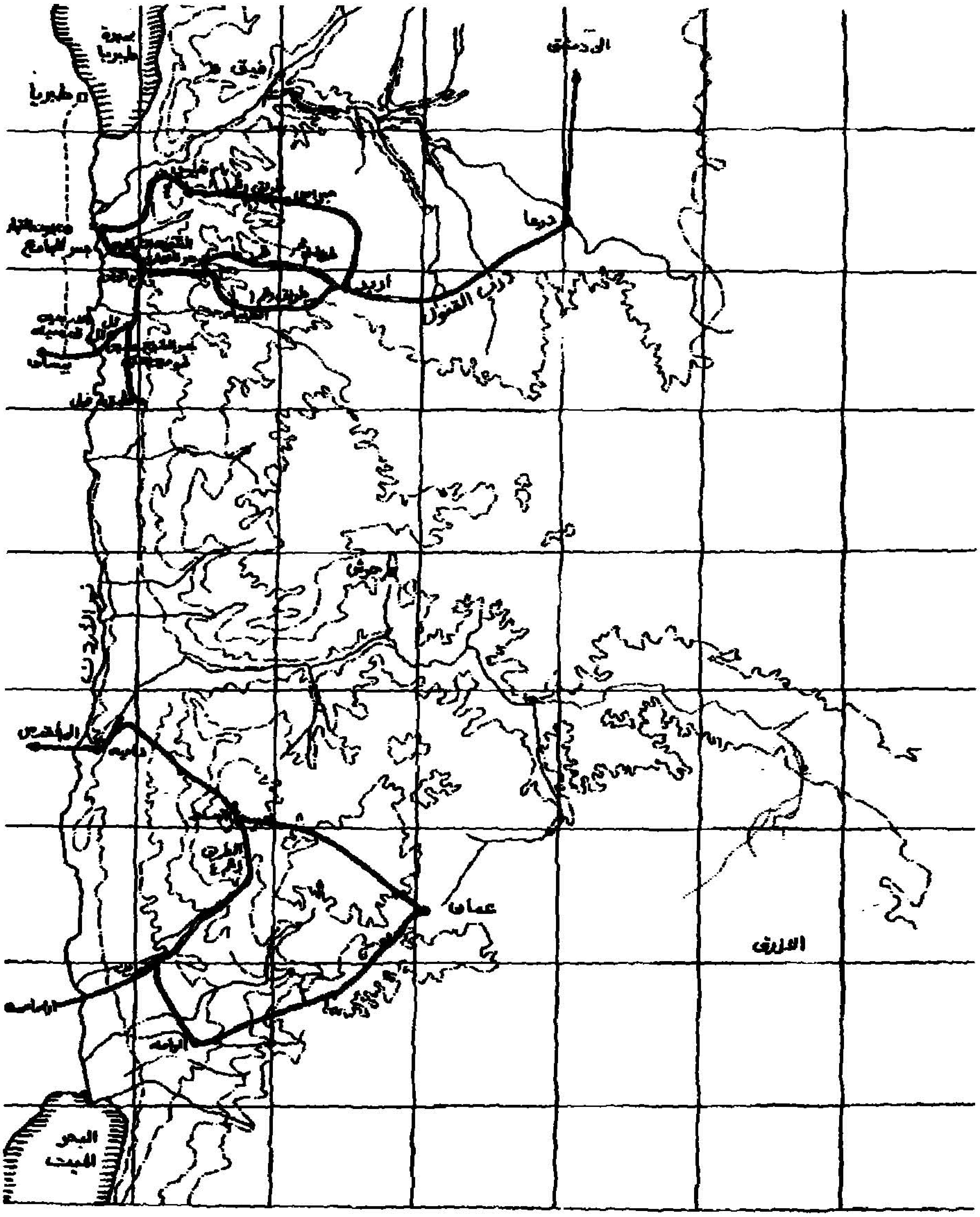

خارطة توضح الطرق التجاريه المارة في غور الاردن

المراجع

١—انظر الخارطة رقم / ١/ ،الطريق رقم / ٢/ .

٢—**الاصطخري**(اسحق بن ابراهيم). المسالك والممالك. تحقيق محمد جابر عبد العلي الحني، القاهـرة، ١٩٦١ . ص٤٥، سيشار إليه عند وروده فيما بعـد هكذا: الاصطخري، المسالك والممالك.

٣— **ابن الفقيه**، (أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني). مختصر كتاب البلدان، تحقيق م.ج. كويـج. ليدن، ص ٥٦، سيشار إليه عنـد وروده فيما بعد هكذا: ابن الفقيـه، مختصر كتاب البلدان.

٤—**ابن حوقل**(أبو القاسم عبـد الله بن عبد الله). كتاب صورة الأرض، ج١. تحقيق م.ج.كويج. ليدن،١٩٦٧ . ص١٨٠ . سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حوقل، كتاب صورة الأرض.

٥— **المقدسي**(محمد بن أحمد). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. تحقيق م.ج.كويج. ليـدن، ١٩٦٧ . ص ١٨٠ . سيشـار إليـه عند وروده فيما بعـد هكـذا: المقـدسي، أحسـن التقاسيم.

٦—**الادريسي**(أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحساني). أنس المهج وروض الفرج. فرانكفورت، ١٩٨٤ . ص ١٥٥ ، ٣٥٩ ، سيشار إليـه عند وروده فيما بعد هكذا: الإدريسي، أنس المهج.

٧—**الادريسي**، أنس المهج. ص ٣٧٧ .

ياقوت،(شهاب الديـن أبي عبد الله ياقوت بـن عبد الله الحموي الرومـي البغدادي). معجـم البلـدان، ج٢ ، طهـران، ١٩٦٥ ، ص ٢١٧ . سيشار إليـه عنـد وروده فيما بعـد هكذا: ياقوت، معجم البلدان.

Le Strange, Guy. Palestine Under The Muslims. London: Palestine Exploration Fund. 1965. P. 15.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Le Srange, G. 1965

٨—**ابن خرداذبة**(أبو القاسم عبيد الله) . كتاب المسالك والممالك. تحقيق قدامة بن جعفر. بغداد، ١٩٦٧ . ص ٩٤ . سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خرداذبة، كتاب المسالك والممالك.

٩—**الادريسي**، أنس المهج. ص ٣٥٧ ، ٣٦٣ ، ٣٧٧ .

١٠— الادريسي، أنس المهج. ص ٣٥٥، ٣٧٧ .
الاصطخري، المسالك والممالك. ص ٤٣ ، ٤٥ .
ابن حوقل، كتاب صورة الأرض. ج١ . ص ١٧٠ ، ١٨٥ .
المقدسي، أحسن التقاسيم. ص ١٨٥ .

11- **IBRAHIM, M; Sauer, J . And Yassine, K.** "the East Jordan Valley, 1975" Bulletin Of American School Of Oriental Research(BASOR), Vol. 22. Atlanta: Scholars Press. 1976. Pp. 48-50, 62. Ibrahim; M. et al. 1976 .سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

Yassine, K; Ibrahim, M. And Sauer, J. "the East Jordan Vally Surey, 1976". ArchaEology Of Jordan: Essays And Reports. ed. K. Yassine. Amman; 1988. Pp. 157-208.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Yassine, K. et al. 1988.

١٢—كريم (جمعة محمود). المسح الأثري لمنطقة سليخات في غور الاردن. بحث مقدم لمجلة دراسات الجامعة الأردنية، ١٩٩٤ ، غير منشور، سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: كريم، المسح الأثري لمنطقة سليخات.

Kareem, J. Evidece Of The Umayyad Occupation In The Jordan Valley As Seen In The Jisr Sheikh Hussein Region. MA The Thesis. Institute Of Archaeologe And Anthropology- Yarmouk University. 1987. P. 451.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Kareem. J. 1987.

Kareem. J. "EVIDENCE Of The Umayyad Occupation In The Jordan Valley As Seen In The Djir Shaykh Husayn Region". Studies On The History Of Bilad Al-sham During The Umayyad Period. ed. Muhammad A. Bakhit And Mohammad Y. Abbadi. Amman, 1990, P.47.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Kareem, J. 1990.

كريم(جمعة محمود). «المسح الأثري لمنطقة جسر الشيخ حسين: الاغوار الشمالية لعام ١٩٨٦». أبحاث اليرموك سلسلة العلوم الانسانية والاجتماعية، المجلد السادس، العدد الأول، جامعة اليرموك، ١٩٩٠ ، ص ١٣٣ . سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: كريم، المسح الأثري لمنطقة جسر الشيخ حسين.

١٤— المقدسي، أحسن التقاسيم. ص ١٨٤ .

Le Strange, G. 1965. P. 184.

١٥— المقدسي، أحسن التقاسيم. ص ١٨٤ .

١٦—أبو الفداء(عماد الدين اسماعيل بن محمد). تقويم البلدان. باريس، ١٨٤٠، ص ٢٢٣ . سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: أبو الفداء. تقويم البلدان.

ابن شداد(عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي). الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة(تاريخ لبنان والاردن وفلسطين). تحقيق سامي الدهان، دمشق، ١٦٢ ، ص ١٣٦ ، سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن شداد، الاعلاق الخطيرة.

القزويني(زكريا بن محمد بن محمود) . آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت — دار صادر، ١٩٦٩ ، ص ١٤٢، سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: القزويني، آثار البلدان وأخبار العباد.

القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي). صبح الأعشى في صناعة الانشاء. ج٤، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٧ ، ص ٨٧ . سيشار إليع عند وروده فيما بعد هكذا: القلقشندي، صبح الأعشي.

ياقوت(شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي) المشترك وقعاً والمفترق صعقاً. تحقيق فيردناند فوستفيلد. جوتنجن، ١٨٤٦ . ص ٢٢٨ . سيشار إليع عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، المشترك وقعاً.

Hartmann, R. " Die Strasse VON Damaskus Nach Kairo". Zeitschrift Der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, (ZDMG). Vol. 64. Leipzig, 1910. Pp. 675-676.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Hartmann, R. 1910.

١٨— المقدسي، أحسن التقاسيم. ص ١٩٢ .

19- **Frank L. Kouchy.** " The Environs Of Pella: ROADS; FORDS And Occupational Sites " , Pella In Jordan2. Ed Mc Nicoll, A. Edwrds, P, ; Hanbury- Tenison, J.; Hennessy , B.; Potts, Smith, R.; Walmsely, A. And Wason, P. Sydeny, 1992. P.200.

Kouchy, F . 1992. :سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا
20- **Kareem, J.** 1987. Pp . 444-459.
Kareem, J. 1990. Pp . 44-49.
21-**IBRAHIM, M. Et Al.** 1976. P. 59.
Mittmann, S. Beithrage Zur Siedlungs Und Territorialgeschichte Des Nordlichen Ostjordanlandes. Wiesbaden, 1970. Pp.137-138.
Mittmann, S. 1970.:سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا
22- **Mcnicoll, Q.; Edwards, P.; Hosking, J.; Macumber, P.; Walmsely, A And Watson, P.;** "Preliminary Report On The University Of Sydney`s Seventh Season Of Excavations At Pella (Tabagat FAHL) , 1985" Annual Of The Depratment Of Antiquities Of Jordan, (ADAJ), Vol. " Abbasid Fahil, The Mamluk And Early Ottoman Periods" . AKKADICA. Vol. VIII . Pp. 430-440.
23- **Kareem, J.** 1987. P. 94, 104, 112.
Kareem, J. 1990. Pp. 40-42.
٢٤—الطراونة (فايز عبد الحافظ).موقع قم في ضوء الأعمال الميـدانية: دراسة تحليلية مقارنة. رسالـة ماجستير غير منشورة. معهد الآثار والانثروبولوجيـا— جامعة اليرموك. ١٩٩٠، ص ١٦٤ .
25- **Hanbury - Tenilson, J.; Steven , H.; Watson, P . Falkner , R.** " Wadi Arab Survey 1983" . Annual Of The Department Of Antiquities Of Jordan, (ADAJ)` Vol . 28.Amman, 1984. Pp.313-314.
Hanbury - Tenison, et Al . 1984 سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:
٢٦— المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٤ .
27- **Smail , R.** The Cruaders in Syria And in The Holy Land. Thames And Hudson, 1973. Pp. 9-38.

Smail, R. 1973. :سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

Mùller - Weiner, W. Castles Of The Crusaders. New York, 1966.

Mùller - Weiner, 1966.:سيشار إليه عند وروده فيما يلي هكذا

28- **Smail , R.** 1973. P . 100.

Beyer , G. " Civitus Ficum". Zeitschrift Des Deutschen PalAstina - Vereins. Vol. 69. Wiebaden. 1953.p . 67.

٢٩— ابن اياس (محمد بن أحمد) . بدائع الزهــور في وقائع الدهور. ج١. تحقيق محمد مصطفى. القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢٨ . سيشار إليه عنــد وروده فيما بعد هكذا : ابن اياس ، بدائع الزهور.

30- **HARTMANN , R.** 1910, P. 683.

31- **Zayadine , F.** " Caravan Routes Between Egypt And Nabataea And The Voyage Of Sultan Baibars to Petra In 1276." Studies on The History And Archaeology Of Jordan , Vol. 11. Ed . Hadidi, A. Amman, 1985. P. 161.

32- Hartmann, R. 1910, P . 683.

٣٣— الادريسي، أنس المهج، ص ٢١ .

ياقوت ، معجم البلدان . ج١. ص ٢٧٦—٢٧٧ .

٣٤— ياقوت، معجم البلدان. ج٢ . ص ٦٥٧ .

35- **Kareem , J.** The Settlement Patterns In The Jordan Valley In The Mid- to Late Islamic Periods . Ph. D. Thesis . FREI Universitat Berlin , 1992. P . 32 .

Kareem, J. 1992 .:سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

٣٦— القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٩٥ .

ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ١٣٦ .

٣٧— القلقشندي، صبح الأعشى ، ج ١٤ . ص ٣٨٠ .

38- **Henninger , J .** " Pariastamme In Arabien ", Arabica Varia . Schweis Orbis Biblicus Orientalis , 910, Gottingen , 1989. Pp. 244-246.

٣٩— النويري(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) . نهاية الار ب في فنون الأدب.. ج٨ ، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٧٥ ، ص ٢٧٠ .

40- **Ibrahim, M. et Al.** 1986. Pp. 48- 50.

Yassine, K. Et Al. 1988. Pp.

41- **Ibrahim, M. et AL.** 1976. P. 59.

42- **Kareem, J.** " Tell Fendi : Jisr Sheikh Hussein Project, 1986." Annual Of The DEPARTMENT Of Antiquities Of Jordan. Vol. 33. Amman, 1989. Pp. 97-100.

Kareem, J. 1989.:سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

٤٣— كريم(جمعة محمود) . المسح الأثري لمنطقة سليخات.

٤٤— حمارنة، صالح.زراعة قصب السكر وصناعته عند العرب والمسلمين». حولية دائرة الآثار العامة، المجلد ٢٢ ، عمان ١٩٧٧ / ١٩٨٧م . ص ١٢—١٨ .

٤٥— أبو دلو، ربى.معاصر السكر في غور الاردن. رسالة ماجستير غير منشورة معهد الأثار والانثروبولوجيا— جامعة اليرموك، ١٩٩١ . ص ٣٦— ٦٤ .

46- **Franken , H. And Kalsbeek, J.** Potters Of A Medieval VILLAGE In The Jordan Valley. New York: American Elsevier Press. 1975. Pp.66-75 .

Franken , H, And Kalsbeek, J. 1975.سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

47- **La Gro , H.**" Abu Sarbut". Akkadica. Vol. 7. 1989. Pp . 118-119; .

De Hass, H.; La Gro , H. And Steiner, M . " First Season Of Excavations At Tell Abu Sarbut, 1988: A Preliminary Report". Annual Of The Department Of Antiquities Of Jordan. Vol. 33. Amman, 1989. Pp. 323-326.

La Gro, H. And De Hass, H. " Sugar Pots: A Preliminary Study Of Technological Aspects of A Class Of Medieval Industrial Pottery From Tell Abu Sarbut , Jordan ". News Letter. DEPARTMENT Of Pottery Technology. Vol. 718. University Of Leiden . 1989/1990. Pp. 7-20.

٤٨— ابن شداد، الاعلاق الخطيرة. ص ٣٢٦ .

الدمشقي(الانصاري أبو عبد الله محمد). نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تحقيق. مهران، ليبزغ، ١٩٢٣ . ص ٢٠١ . سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الدمشقي ، نخبة الدهر.

٤٩— ابن شداد، الاعلاق الخطيرة. ص ٣٢٦ .

٥٠ — المقريزي(أحمد بن علي) . كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١٢ . تحقيق محمد زيادة، القاهرة، ١٩٥٨ . ص ٥٢٣ .

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: المقريزي، كتاب السلوك.

الداوادري (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك) . كتاب الدرر وجامع الغرر. تحقيق هارمان ، القاهرة، ١٩٧١ . ص ١١٢ .

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الداوادري، كنز الدرر.

٥١— انظر الخارطة رقم/ ٢/ .

52- **Wild Stefan.** Libanesische Orts-name, Typologie Und Bedeutung.

Lebanon, 1973. P. 174.

Sultan Al- Ma`ani. Nordjordanische Ortsnamen. Hildsheim, Georg Olms Verlag. 1992. P. 132.

53- **Westendorf, W.** Koptisches Hand - Worterbuch. Heidelberg, 1977. P. 335.

٥٤— ابن اياس ، بدائع الزهور. ص ٣٣٢ .

٥٥— العمري(فضل الله العمري شهاب الدين أحمد بن يحيى). مسالك الابصار في ممالك الامصار. تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة، ١٩٨٥ . ص ٥٥ . سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: العمري، مسالك الابصار.

56- **Hartmann, R.** 1910. P . 686.

Hartmann, R. " Zur Geschichte Der Via Maris". Zeitschrif Des Deutschen Palastina- Vereins (ZDPV) , Vol. 41. Leipzig. 1918. P. 54.

HARTMANN, R. 1918.:سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

57- **Mittmann, S.** Beitrage Zur Siedlungs und territorial geschichte des Nordlichen Ostjordanalandes.

Wiesbaden , 1970. P. 164, 228.

Mittmann, S. 1970. :سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

٥٨— **القلقشندي**، صبح الأعشى، ج١٤ ، ص ٣٨٠ .

★ يقع موقع زحر العقبة، ويسمى زحر النصارى أيضاً، على يسار الطريق المعبد الواصل بين مدينتي إربد والشونة الشمالية. ويبعد هذا الموقع الأثري حوالي ١٢كم للشرق من مدينة الشونة الشمالية، وعلى بعد ٥كم للغرب من قرية قم. ولقد زاد كاتب هذا التقرير هذا الموقع، وتبين أن جميع الشقف الفخارية الظاهرة على السطح تعود للعصر الايوبي/ المملوكي. ويظهر فيه مجموعة إنشاءات معمارية تشبه تلك التي عثر عليها في موقع ذراع الخان، والعائدة للعصر المملوكي. ويتواجد مجموعة من الاحواض استعملت لتجميع مياه الامطار. وإن الدلائل الظاهرة على السطح تشير بشكل واضح على أن هذا الموقع استعمل كمحطة تجارية على الخط التجاري الواصل بين الشونة الشمالية وإربد في العصر المملوكي المبكر.

٥٩— **المقريزي**، كتاب السلوك، ج١ . ص ٥٤٤ .

ابن تغري بردي(جمال الدين أبي المحاسن يوسف). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. ج٧ . تحقيق جمال محمد محرز وفيهم محمد شلتوت. القاهرة . ١٩٧٠ ، ص ١٤١ ، سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة.

ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة. ص ٣٥٢ .

٦٠— **ابن تغري بردي**، النجوم الزاهرة، ج ١٥ . ص ٣٩١ .

٦١— **معاوية ابراهيم**وخير ياسين، وجيمس سور. اوراق تسجيل المواقع الأثرية لعام ١٩٧٥ م . غير منشورة، محفوظة في أرشيف متحف الآثار الجامعة الأردنية .

٦٣— **القلقشندي**، صبح الأعشى، ج ١٤ ، ص ٣٨٠ .

ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج ١٦ . ص ٤٨ .

٦٤— **ابن تغري بردي**، النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ، ص ٤٨ .

65- **Laidus, I.** Muslim Cities In The Later Middle Ages. Cambridge, Harvard Un . Press. 1967 . P. 124 .

Laidus, I. 1967. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

Labib, S. " Egyptian Commerical PoLicy In The Middle East". The Economic History of The Middle East. Ed. Cook, M. Oxford, 1978. Pp.70-72.

Schwolbe, V. " Die Verkherswege und Ansiedlungen Gelilaas In Ihrer Abhangigkeit von Den Naturlichen Bedingungen ". Zeitschrift Des Deutschen Palastina - Vereins(Zdpv) , Vol, 27. Leipzig, 1904. Pp. 57-149 .

Hartmann , R. 1910. Pp. 665-702.

Jaussen , J. " Inscription Arabe Du Khan Al-ahmar a` Baisan(Palestine)". Palestine Exploration Fund Annual. London , 1940. Pp. 99-104.

Sauvaget, J. " Caravanserails Syriens du Moyen Age". Ars Islamica. Vol. 7. 1940.pp.1-19.

Abu Khalaf, M. " Khan Yunus And The Khans of Palestine." Journal Of The British School Of Archaeology In Jerusalem, (Levant) , Vol. 15. London, 1983. Pp. 178-187.

٦٦— المقريزي، كتاب السلوك. ج٢ . ص ٣١٨ .

67- **Kareem, J.** 1992. Pp. 105_180.

68- **Laidus, I.** 1967. Pp. 23-31.

Brown, R. Late Islamic Setlement Patterns on The Karak Plateau, Transjordan. Binghamption: Sung Press. 1985. P. 18.

Brown, R. 1985.:سيشار إليه عند وروده هكذا

69- **Russel, J.** " The Population of Medieval Egypt". Journal Of The American Center in Egypt. Vol. 5. Pp. 69-82.

Dols, M. The Black Death In The Middle East. Princeton Un. Press , 1977. Pp.154,185,223.

Dols, M. 1977. :سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

Dols, M. The Second Plague Pandemic And Its Recurrences In The Middle East : 1347-1894" . **Jesho** , Vol. 22. 1979. Pp. 169_182.

Dols, M. 1979. :سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

Dols, M. " The General Mortality of The Blach Death In The Mamluk Empire ". Studies in The Islamic Middle East, 700-1900. Darwin Press, PRINCETON, New Jersey , 19481.pp.416_417.

Dols, M. 19481.: سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

غوانمة، يوسف درويش. «القرية في جنوب بلاد الشام(الاردن وفلسطين) في العصر المملوكي في ضوء قرية أدر».

Studies on The History And ARCHAEOLOGY Of Jordan, Vol. I. Ed. Hadidi, A. Amman, 1982.p.364.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: غوانمة، ١٩٨٢ .

غوانمة،(يوسف درويش). الطاعون، والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب الشام(الاردن وفلسطين) في العصر المملوكي.

Studies on The History And Archaéology Vol. Ii . Amman , 1985. Pp. 316_318.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: غوانمة، ١٩٨٥ .

٧٠— المقريزي، كتاب السلوك، ج٢ ، ص ٧٧٤ .

٧١— المقريزي، كتاب السلوك، ج٢ . ص ٧٨٤ .

ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠ ، ص ٢٠٩ .

72- **Dols, M.** 1977. P. 62, 159.

Rabie, H. " Some Technical Aspects Of Agriculture In Medieval Egypt." The Islamic Middle East 700-1900. Ed. Udovitch , A. The Darwin Press, Princeton. 1981. P. 80.

٧٣— المقريزي، كتاب السلوك، ج٢ . ص ١٥١ .

القلقشندي، صبح الأعشى. ج٣ . ص ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢ .

النويري(شهاب الدين أحمد بن عبد الله) . نهاية الأرب في فنون الأدب ج٨ . القاهرة ، ١٩٧٥ . ص ٢٧١ .

Ziadeh, N. Urban Life In Syria under The Early Mamluks. Bairut, 1953. P. 113.

Ziadeh , N. " Town Administration In Syria Under The Early Mamluks". Proceedings Of Twentysecond Congerss Of Orientalists. Vol. Ii . Ed . Zeki Togan . Leiden. 1957.p . 213.

74- **Hutteroth, W. And Abdulfattah, K.** Historical Geography Of Palestine, Transjordan and Southern Syria In the Late 16th Century. Erlangen , 1977, Map. 3;

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

Hutteroth and `Abdulfattah, 1977.

75- **Ashtor, A.** " Levantine Sugar Industry In The Late Middle Ages: An Example Of Technological Decline".

Ashtor, A. 1977:سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

Ashtor, A. Levant Trade in The Later Middle East. Princeton UN. Press. 1983. P. 206.

Ashtor, A. 1983. :سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

Udovitch, A. " Introduction - Technology, Land Tenure And Rural Society: Pre- Modern Middle East". The Islamic Middle East700-1900: Studies In Economic And Social History. Ed. Udovitch, A. The Darwin Press, Princeton, 1981.p.15.

Udovitch, A. 1981.:سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

76- **Ashtor , A.** 1983,p.208.

77- **Laidus,** I. 1967, P. 27_28.

Musallem, B. " Birth Control and Middle Eastern History", The Islamic Middle East 700-1900: Studies In Economic and Social History. Ed. Udovitch, A. The Darwin Press, Princeton, 1981,p.434.

٧٨— ابن طولون(شمس الدين محمد بن علي بن طولون). مفترق الخلان في حوادث الـزمـان. ج ١ . تـوفيـق محمـد مصطفـى زيـادة. القـاهــرة ، ١٩٦٢م. ص ٢٠٣ ، ٢٢٥،٢٦٤،٣١٥،٣٤٤ .

٧٩—المقريزي، كتاب السلوك، ج٢ ، ص ٨٥٤ .

80-**Hartmann, R.** 1910. Pp. 694-702.
Hartmann, R. 1918. Pp. 55-56.
81- **Heyd, U.** Ottoman Documents on Palestine 1552-1516. Oxford: The Clarendon PRESS. 1960. P. 76.
Heyd, U. 1960. :سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا
82- **Al- Bakhit, M.** " Jordan In Perspective: The Mamluk Ottman Period." Studies on The History And Archaeology Of Jordan, I . Ed. Hadidi , A. Amman, 1982. P. 362.
Al- Bakhit, M. 1982. :سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا
Lewis, B. " Studies In Ottoman Archives". Bulletin Of The School Of Oriental and African Studies. Vol. 16. London, 1954. P. 487.
Lewis, B. 1954. :سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا
Hutteroth And Abdulfattah, 1977, P. 8.
83- **Cohen, A. and Lewis, B.** Population And Revenue in The Towns Of Palestine In The Sixteenth Century. Princeton Un. Press. 1978. P. 42-75.
Cohen And Lewis , 1978.سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا
84- **Peterson, A.** Early Ottoman Forts on The Hajj Route in Jordan. Oxford, 1986. Pp. 24-109.
Peterson, A. 1986.:سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا
Burchhardt, J. Travels In Syria and The Holy Land. London, 1822. Pp. 656-661.
Burchhardt, J. 1822.:سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا
PeakeE, P. A History of Jordan and its Tribes, Miami Un. Press. Coral Gables, Florida. 1958. P.85.

Peak, P. 1958. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

Rafeq Abd L- Karim. The Province Of Damascus 1723-38. Beirut, 1966.pp. 52-37,115.

Rafeq, 1966. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

Al - Bakhit, M. The Ottoman Province Of Damascus In the Sixteenth Century. London , 1972. P. 99.

Al - Bakhit, M. 1972.:سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

Barbir, K. Ottoman Rule in Damasus 1708-1758. Princeton , Un. Press. 1980. Pp. 133-150.

Barbir, K. 1980.:سيشار إليه فيما بعد عند وروده هكذا

85- **Al- Bakhit, M.** 1972. Pp . 99-100.

Al- Bakhit, 1982. P. 362.

86-**Hutteroth and `Abdulfattah,** 1977. Pp. 176-177.

87-**Hùteroth and `Abdulfattah,** 1977. Pp. 176-177.

88- **Kareem** , **J.** 1992/ P. 61.

89- **Heyd,.** 1960.pp. 110-112.

90- **Heyd, U.** 1960.pp.111.

91- **Tshelebi** , **E.** " Evliya Tshelebi`s Travels In Palestine" , Quarterly Of The Department Of Antiquities In Palestine. Vol. 6. Jerusalem . 1936/37.p.84.

Tshelebi, E. 1936/37. سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا:

Gal , **Z.** " Khan El- Tuggar: A New Look at A Western Survey Entry" . Palestine Exploration Quarterly. Vol.117. London, 1986. P. 74.

Gal, Z. 1986.:سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا

Heyd, U. 1960. Pp. 110-115.

٩٢— النابلسي(الشيخ عبد الغني)الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية. مخطوط في مكتبة الدولة ببرلين. رقم المخطوط We 12 6145. ص٢٠٦.
سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا : النابلسي، مخطوط.

93- **Cohen , A.** Palestine in The 18th Century .
Cohen , A. 1973. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:
Rafeq , A. 1966. P. 130, 157, 285 ;
Rafeq , A. " Economic Relations Between Damascus And The Dependent Countryside 1943-71" . The Islamic Middle East 700-1900; Studies in The Economic and Social History . Ed. Udovitch, A. The Darwin Press, PRINCETON , New Jersey , 1981. P. 653.

94- **Cohen, A.** 1973. P. 105.
Steueranagel, C. Der `adschlun . Leipzig, 1927. Pp. 130-131.
Steuernagel, C. 1927.

95- **Bosworth , c.** " William Lithyow Of Lanark`s Travels In Syria and Palestine 1611-1612." Proceedings of the First International Conference ON BILAD AL-SHAM, 20-25 APRIL, 1984, PART I.UN.OF JORDAN AND Yarmouk Un. 1984. P. 20.
Bosworth, C. 1984. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

96- **Bosworth, C.** 1984.p. 21.
Heyd, U. 1960. 85,88,80,101.

٩٧— النابلسي، مخطوط، ص ٢٠٦ .

98- **Forster, W.** The Travels Of John Sanderson in the Levant. London , 1931. P . 114.
النابلسي، مخطوط، ص ٢٠٦ .

99- **Schumacher, G.** " Das Sudlische Basan Zum Ersten Male Aufgenommen Und Beschrieben". Zeitschrift Des Deutschen Palastinavereins. Vol. 20. Leipzig. 1897. P . 108.
Schumacher, G. 1897. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

100- Gal , Z. 1986. P. 69_75.

101_HUTTEROTH And Abdulfatah, 1977. P.88.

102_ Mershen , B. And Knauf, A. " From Gadar to Umm Qais", Zeitschrift Des Deutschen PalAstina- Vereins , Vol. 104. Stuttgart, 1988. P. 143.

103- **Burckhardt, J.** 1822.pp. 269. 70.

104_ **Burckhardt, J.** 1822.p. 315.

Tshelebi, E. 1936/37. Pp. 84_85.

Hùtteroth and `Abdul Fattah, 1977. P. 43.

Lewis , B. Studies In Classical And Ottoman Islamic (7th- 16th Century) . London, 1976. P. 497.

105- **Al- MA` ANI, S.** Nordjordanische Ortsnamen . Hildsheim, Georg Olms Verlage, 1992.p 253.

106- **Hanbury - Tenison , et Al.** 1984. Pp. 417_422.

١٠٧— أجريت في هذا الموقع حفرية أثرية انقاذية عام ١٩٨٩م. وأشرف عليها كاتب هـذا المقال ممثـلاً لمعهد الآثـار والانثروبـولـوجيا— جـامعة اليرمـوك، والسيد حكمـت الطعاني ممثـلاً لدائرة الآثار العامـة. ولقد كشف في السويـات العلوية على شقف فخـارية وثلاثة طوابين، تعود للعصر العثماني، غير منشورة.

١٠٨— ابن زين البقاء(محمد بن زين البقاء عيسى بن كنعان). المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية. مخطوط في مكتبة الدولة ببرلين، رقم 6088. We. 1116.

109- **Karmon, Y;**" The Settlement Of The Northern Huleh Valley since 1838".

١١٠— أسـد رستـم. البشير بين السلطان والعـزيـز ١٨٠٤—١٨٤١. بيروت، ١٩٦٦، ص ١٧١.

111-**Steuernagel, C.** 1927. 27. 130.

Ma`oz, M. Ottoman Reform in Syria and Palestine 1840-1861. Oxford, 1968, P. 145,164-165.

112-**Karmon, Y.** " An Analysis Of Jacotin is Map Of Palestine".

113-**Peake, P.** 1958. Pp. 81_92.

Issawi , B. The Economic History Of The Middle East, 1800-1914. Chicago Un. Press. 1966. Pp . 262_263.

Al- Mousa, S. " Jordan: Towards the end Of The Ottoman Empire 1841-1918". Studies On The History And Archaeology Of Jordan. Vol.I. Ed. Hadidi, A. Amman , 1982.pp.385/91.

Jones, B. " Interregional Relationship In Jordan: Persistence And Change ". Studies on the History and Archaeology Of Jordan, Vol. 2. Ed. Hadidi, A. Amman , 1985. P. 310.

114- **Steuernagel, C.** 1927. P. 130.

115- **Peake, P.** 1958.pp. 95_97.

116- **Weakely, E.** " Report on the Conditions and Prospects Of British Trade In Syria". Economic History Of The Middle East 1800-1914. Ed. Issawi, C. Chicago Un. Press. 1966. Pp. 274. 290.

117- **Burckhatdt, J.** 1822.p. 296.

Schumacher, G. Across The Jordan: An Exploration and Survey of Part Of Hauran and Jaulan, 1886. Pp. 22. 23 .

118- **Burckhardt, J.** 1822. P. 274.

119- **Schumacher, G.** "Abila Of The Decapolis ". Palestine Exploration Fund , London, 1889. Pp. 71, 72, 189, 190.

120- **Schumacher, G.** 187. P .114.

Northy, A. "East Of Jordan , Expedition Exploration Fund. London , 1972. P. 71.

Warren , C. " Expedition East of Jordan". Palestine Exploration Fund . London , 1870. P. 285.

Robinson , E. Biblical Researches In Palestine and the Adjacent Regions. Vol. 11.

Smith, A. The Historical Geography Of The Holy Land. London, 1897. Pp. 488- 489.

121- **Karmon, K.** 1960. P. 251.

Steurnagel, C. " Der `adsclun" . Zeithschrift Des Deutschen Palastina - Vereins. Vol. 49. Leipzg, 1926. Pp. 134-137.

122- **Schumacher, G.** 1897. P. 108.

123- **Ibrahim, M. et Al.** 1976. P. 59.

124- **Ibrahim, M. et Al.** 1976. P. 59.

Yassine , K. et Al. 1988. P. 168.

125- **Burckhardt, J.** 1822. P. 275.

126- **Ibid.** P. 180.

127- **Schumacher, G.** 1992. Pp. 105-180.

128- **Kareem, J.** 1992. Pp. 105-180.

١٢٩—انظر الخارطة طريق رقم ٣ .

130- **Amiran, D.** " A Revised Earthquake Catalogue Of Palestine"

الصهيونية في مرآة الفكر العربي المعاصر
العلاقة بين الصهيونية والتاريخ اليهودي

● د . احمد برقاوي
جامعة دمشق

القسم الاول

— ١ —

مهما حاول المؤرخ او المفكر عربيا كان او غير عربي ان يعزل اليهودية عن الصعهيونية ، فانه لا محالة مخفق . فمفاهيم الصهيونية الاساسية انما نبعت من اليهودية اساساً وقبل كل شيء على الرغم من لبوس « الحداثة » الذي تزينت به بعض التيارات الصهيونية .

ولاشك ان العربي مدفوع بعوامل كثيرة لاقامة التمايز بين اليهودي والصهيوني. ذلك ان العربي مسلماً كان ام مسيحياً ، علمانياً او متديناً ، ينظر الى الدين اليهودي اما كاحد الاديان السماوية الشرقية ، او كجزء من تراث الشرق القديم ، هذا ناهيك عن وجود عدد كبير من اليهود الذين لم يندرجوا في الصهيونية او لم يتخذوا منها ايديولوجيا تعبر عن مصالحهم ، وباستطاعة المرء — وهولا يستطيع ان يحكم استناداً الى الشك غير المعزز — ان يذكر من المفكرين اليهود المعاصرين امثال ناعوم تشومسكي وردنسون وغيرهم ممن لا يفكرون في اطار الحركة الصهيونية، بل ويعتبرونها ايديولوجيا عنصرية مناهضة للنزعة الانسانية .

ومع ذلك فلا يمكن تجاهل ان الصهيونية ايديولوجيا يهودية قبل كل شيء انتشرت في اوساط اليهود دون غيرهم او اعتنقها اليهود دون سواهم .

والاشكال الذي يواجه الباحث هو : هل اليهودية تعبير عن انتماء ديني ام انتماء اثني ؟ سنؤجل الاجابة عن هذا السؤال الى حينه ، بعد ان نرى كيف نظر بعض المفكرين العرب الى قضية علاقة الصهيونية باليهودية .

يرى البعض ان الصهيونية ليست الا امتداداً لليهـودية القديمة، فجورجي كنعان مثلا ينطلـق من الفرضيات التـالية: ان وثيقة الصهيونيـة في استملاك ارض فلسطين قائمـة في كتاب العهد القـديم (١). «والصهيونيـة المتجسدة في دولة اسرائيـل ليست بنت وعد بلفور كما يَدَّعي مع الاسـف معظم الدارسين وانما هي بنت الوعد الاول، وعد «الله» لابراهيم في حدود القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وليست صنيعة هرتزل نبي الصهيـونية في اواخر القـرن التاسع عشر بـل هي صنيعة مـوسى، نبي الصهيـونية الاول. (٢) «الصهيونيـة حركة دينيـة ودعوة قوميـة، قطعت على نفسها عهـداً بتحقيق العهـد الاول الـذي قطعـه «اللـه» لبنـي اسرائيل وتحقيـق الـرؤى الـدينيـة والامـال اليهودية» (٣).

«الصهيونية حركة عدوانية توسعية، حركة دينية سياسية تستند في دعواها الدينية الى وعد «يهوه» لاباء اليهود بتمليكهم ارض كنعان» (٤). ان اسرائيل تجسيد للرؤى والتنبؤات «فمنـذ السبـي الاشـوري والبـابلي، وهـم يـرنـون بحسرة الى فلسطين ويتطلعون بـامل ورجـاء الى يوم العودة الى صهيـون. الهيكل وارض العسـل واللبن. وبعد خراب الهيكل وبـدء الشتات، قوي الامل وقوي الرجاء، حتـى باتت التنبؤات والرؤى خاصـة رؤيا الخلاص، بواعث قومية تحدو بهم الى التجمـع والتكتل وشحذ العزائم للعودة الى ارض الرب ومهد الانبياء» ويضيـف «وجاءت الصهيونية تتبنى تحقيق التنبـؤات وتنفيذ رؤيا الخلاص. فالصهيـونية قائمة في جـذر الديانة اليهـودية والديانة اليهودية، قومية تجسدت في الحركة الصهيونية (٥).

ويرى كل من هانىء الهندي ومحسـن ابراهيم في كتابهما الصادر في دمشق ١٩٥٨ «اسرائيل» فكرة ... حـركة ... دولة» «ان اليهود والصهيونية اسـم واحد ومضمون واحـد حتى ولـو اعتبرنا الثـانية تجاوزاً، الـوجـه السياسي الحديـث للاولى، كما يحلـو للبعض ان يفعل حين يـريد ان يميز ويفرق بين الاسمين (٦) ويضيفـان قائلين: «ان الصهيونية لم يبتدعها تيودور هـرتزل ولم يقرر وجودها المؤتمر الصهيوني ١٨٩٧، انها ليسـت فكرة جـديـدة فهي في الـواقع ولـدت في اللحظـة الاولى من اليـوم الاول، لتشريد اليهود من فلسطين ومع الزمن نمت هذه الفكرة وتطورت صعداً عبر الاجيال من خلال الصلوات والادعية ومن خلال المشاريع والاعمال »(٧).

والصهيونية — كما يـريان— ملتحمة باليهـود وبدينهم وهي جزء من تفكير اي يهودي. يـرضعها طفـلاً ويسير بهديها ووحيهـا .... وهـذه الفكرة — الصهيـونيـة — زرعت بـذورها كما يقـول هابـر يوم ولـت مملكة «اسرائيـل» على يد الاشـوريين في القرن الثامن ق. م ونمـت بعد سبي القدس على يد نبوخـذ نصر في القرن السادس ق. م (٨).

ويتابع مؤلفا (اسرائيل فكرة، حركة، دولة) قائلين : « اليهودية دين وقيم . اليهودية عقيدة ونظرة حياة معينة لمجموعة خاصة من البشر لها خصائصها المتميزة الواضحة. اليهودية كمعتقد لجماعة عرفت بتاريخها الطويل غير المشرف في فلسطين وخارجها ... والصهيونية في جوهرها ليست بمختلفة عما تقدم ذكره من حيث الجوهر . فالصهيونية هي الشعب اليهودي في طريقه الى فلسطين ... والصهيونية هي العقيدة القومية للشعب اليهودي ووسيلته من اجل استعادة ارض الاباء والاجداد برأي مناحيم بيغن ... والصهيونية هي وجه اليهود الحقيقي ... وهي الصفة المقصورة على العناصر اليهودية التي اوكلت لها مهمة التطرف امام العالم » (٩).

واخيراً « الصهيونية معتقد قديم جدا . واليهود هم معتنقو هذا المعتقد والصهيونية هي اليهودية في العمل المنظم لغزو فلسطين وما وراءها » (١٠).

وبناء على النظر الى الدين اليهودي والصهيونية وبوصفهما شيئاً واحداً يخلص مؤلفا (« اسرائيل » فكرة، حركة ، دولة ») الى ان « الذين يعتبرون اليهودية مجرد دين وليست قوة منظمة متماسكة لن يستطيعوا ان يدركوا ضخامة العدو الذي نقاتله وجهاً لوجه في فلسطين .... ان اليهودية ليست ديناً عادياً كبقية الاديان، انها رابطة متعصبة تشد معتنقيها بصلات اشبه ما تكون بالقربى الحية ... ان اليهودية ليست رابطة، انها قوة فاعلة محركة يلمس اثرها في كل مجتمع يعيش فيه اتباعها .... ان اليهودية ليست كلاماً فارغاً وقولاً لامضمون له، انها قوة ضخمة تسيطر على الحكومات والهيئات والاحزاب في عدد كبير من بلدان العالم » (١١).

ويرى السيد س. ناجي ان « اليهودي يظل يهودياً قبل كل شيء ، ويتضح من هذا بطلان زعم امكانية التفريق بين القومية واليهودية ، والشريعة اليهودية او الزعم بان الصهيونية شيء واليهودية شيء آخر » (١٢).

لقد عرضنا نماذج ثلاثة لاربعة مؤلفين ، يلخصون الى حد كبير احدى النظرات الشائعة حول علاقة اليهودية بالصهيونية من حيث هما شيء واحد. وبالتالي فان الصهيونية ظاهرة قديمة قدم اليهودية وتجد اساسها في التوراة.

اعتقد ان هناك مسألتين مختلفتين يجب عدم الخلط بينهما. الاولى : نشأة الحركة الصهيونية والثانية الاساس الديني اليهودي للايديولوجيا الصهيونية. في معالجة هاتين المسألتين قد يتفق بعض المفكرين من العرب والصهيونيين حول قدم الحركة الصهيونية الاول بقدم استطالة للصراع العربي — الصهيوني. تمت عبر التاريخ . والثاني يريد ان يستعين بالتاريخ كي يبرز ظهور الصهيونية في وقت متأخر — القرن التاسع عشر .

الاول يبحث في التوراة عن علة قيام « اسرائيل » ليدحض التوراة . الثاني يستند الى التوراة لتقرير حق اليهود في فلسطين ويدحض حق الفلسطيني في الجوهر . نحن امام خطابين متشابهين ومختلفي النية .

اجل، يقدم الصهيوني شمويل ايتنغر صورة نموذجية تقارب الى حد كبير الصورة التي قدمت آنفاً من قبل العربي الذي يؤكد نزوع اليهودي القديم الى ارض فلسطين، التي ليست ارضه. ففي دراسته « الشعب اليهودي وارض اسرائيل » يرسم شمويل ايتنغر اللوحة التالية :

«الصلات بين الشعب اليهودي وارض « اسرائيل » تُكَوِّنُ واحدة من اغرب الظواهر في تاريخه الطويل ، وهي ظاهرة قد لا نقع على نظير لها في تاريخ اي شعب من الشعوب. هذا الشعب — ويقصد اليهود — شأنه شأن كل شعب محمل بالتاريخ ، تضيع بداياته بين الاساطير الملحمية والمعطيات المتناقضة ، ولكن حساسيته التاريخية الحادة ومحافظته الامينة على تراث الاقدمين .... والاهمية المعطاة لاحداث ما قبيل الخروج من مصر في اخراج شخصيته القومية الى حيز الواقع اتاحت كلها لشعب اسرائيل ان يكوّن منذ عصر بعيد ، وجداناً قومياً عميقا. هذا الوجدان عبرت عنه التوراة قبل سواها فكان له على طبع الشعب اثر حاسم خلال سائر القرون (١٣)

هذا الوجدان القومي سيرافق اليهود على مر التاريخ وتظل فلسطين — كما يقول ايتنغر — هي الارض الموعودة . ويمسي وجود شعب اسرائيل في ارضه متعلقاً بنقاوة دينه وكمال خلقه .تظهر قوة هذه الافكار عند « الاحتلال » البابلي لاورشليم وهدمهم الهيكل عام ٥٨٦ ق . م وهي الكارثة الاولى (١٤).

تجيء الكارثة الثانية بتدمير الهيكل الثاني على ايدي الرومان عام ٧٠ فتزيد من شوق اليهود الى الخلاص، في فلسطين وفي المنفى (١٥).

ثم كان الفتح العربي لفلسطين في القرن الثامن فسهل العلاقات بينها وبين يهود المنفى وحافظت البلاد على مكانها الممتاز في الوجدان القومي ، وفتحها لا يشكل حقاً فيها . وكان الوعاظ والمتصوفة يفسرون خرابها على انه امارة من امارات الخلاص المقبل : فذلك التراب لا يؤتي ثماره الا للملآكه الشرعيين (١٦).

الى ذلك، كان ثمة تسليم ضمني بان اقامة اليهود في الخارج وان طالت أجيالاً ليست في عين الشرع سوى منفى مؤقت، اكانوا فيه مضطهدين او محترمين (١٧).

ثم يتابع ايتنغر رسم اللوحة المتخيلة قائلا : « اما التعبير عن الحنين المضطرم الى الوطن الضائع واما البرهان الثابت على استمرار الضيق بالمنفى، فنقرأهما في الحركات الخلاصية، إذ أن يقظة هذه الحركات ترافق وضع الأقلية اليهودية ودينها في العصور الوسطى»(١٨)

وأما الاضطهاد الذي مورس على اليهود، في أوروبا فكان ينظر إليه اليهود بوصفه«آلام ولادة الخلاص». فكل تغير في الوضع السياسي القائم كان يمكن ان يعني بداية النداء. لذا، أيقظت الحروب الصليبية والغزو المغولي وفتح القسطنطينية أملاً مداره أرض اسرائيل(١٩).

ثم جاءت ضربة بالغة القسوة حلت باليهود، هي طرد اليهود من اسبانية(١٤٩٢) فاقتلعت أكبر الجاليات اليهودية في أوروبا من جذورها وأوسعتها تحطيماً لكنها أدت إلى نهضة روحية، فتركزّ العديد من اليهود في فلسطين أوحى بأن مغزاه هو اقتراب الخلاص، لذا قامت محاولة لإعطائه وضع الأمة الديني طابع القداسة بالعودة إلى الرسم الكهنوتي في الأرض المقدسة(٢٠)

وخلال النصف الثاني من القرن السابع عشر، جرى رد الأمل في خلاص اسرائيل في العودة نحو صهيون إلى شخص مسيح روحاني، فكان أن استجاب معظم اليهود إلى نداء ملك مخلص جديد هو شبتاي زفي، وإذا كان من دلالة لاتساع الاستجابة لهذا المخلص، فهي قوة الأمل في العودة إلى بلاد اسرائيل(٢١).

وفي القرن الثامن عشر فقد انتشرت بين أتباع البروتستانتية اعتقاد عودة«اسرائيل» إلى المسيحية، وربط الكثيرون بين هذا الاعتقاد وبين تجديد الملكية اليهودية لاسرائيل، وفي الوقت نفسه، فقد هاجم أتباع التنوير الأديان وظهرت نزعة الاندماج لدى اليهود، ولكن هؤلاء لم يكونوا إلا أقلية في أوروبا الغربية والوسطى، ولم يكن لهم وجود في أوروبا الشرقية ولافي الشرق الأوسط ولا في أفريقيا الشمالية— كما يقول اتينغر— ورغم ان الاندماج وقطع الصلات بأرض«اسرائيل» كانت تؤيده السلطات والاتجاه الليبرالي، إلا أن فشلها بدا ظاهراً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر طلب اليهود، في صيغةحديثة وعلى أساس تجربة تاريخية جديدة، عودتهم إلى أرض اسرائيل(٢٢).

وهكذا ظهرت الصهيونية على يد عدد من المثقفين الأوروبيين.

هذه الصورة التي يرسمها شمويل اتينغر، استاذ التاريخ اليهودي الحديث في الجامعة العربية بالقدس، ونجدها عند اكثر من كاتب صهيوني، تريد ان تدلل على أن فكرة الخلاص بدأت بالظهور عند اليهود من«الكارثة الأولى» واستمرت حتى هذا التاريخ، كفكرة تدفع اليهود دائماً لتتوجه روحياً، او جسدياً شطر فلسطين، بوصفها —كما يعتقدون— وطنهم الأصلي، وكوسيلة لنفي النفي، اي الخلاص، هذه الصورة الخيالية، تعززها الوصايا المندرجة في التوراة.

بهذا المعنى، فـاليهوديـة مستمرة أنفـاً عن التاريـخ، وليس بفضـل التاريـخ، ذلك أن ا لتاريخ المتخيل لليهود على صراع بين الفكرة الصهيـونية والسيرورة الواقعية، أو أن شئت قل للتاريـخ الواقعي ليس له مـن همّ سوى انتاج وتذكير اليهـود «بوطنهم الأصلي»، على الرغـم من أن التـاريخ يجريَ نحـو ادماجهم، او هكـذا يريـد، وبالتـالي يقوم الصراع بين إرادتين: إرادة الفكـرة الصهيـونيـة— الخلاص، التحـرر مـن النفـي، وإرادة التـاريـخ، وبالنتيجـة تنتصر الفكـرة الصهيـونية التـي تعانـد إرادة التاريـخ، أما لماذا يستمـر الشعور بالنفي والـرغبة في الخلاص عن طريـق العودة إلى فلسطين؟ يجيب الصهيوني على شـاكلة اتينغر، لأن التوراة—كتاب اليهود— يتضمن ذلك.

هنا يأتي بعض المفكرين العرب ليقولـوا نعم إن أساس وعي اليهودي قائم في التوراة، لكـن الفرق بين الاثنين هـو أن الصهيـوني يتعامـل مع النـص التـوراتي كحقيقة مطلقـة، والعربي يتعامل معه كتزييف لحقيقة التاريخ وتاريخ فلسطين وتاريخ اليهود أيضا، وبما ان الفكرة الصهيونية قائمة في التوراة اصلاً، فلابد من نقد التوراة.

إذاً، في خطوة أولى يتم عرض الصهيونية وأخلاقها على أساس التوراة وفي خطوة ثانية يشرع في نقد التوراة.

لنقرأ مثلا مايقوله الدكتور رشاد عبد الله الشامي:«لم يرث اليهود كتاب العهد القديم فقط، بل ورثـوا معه تاريخاً طويلاً مـن اللاشعور والتعالي...» ويضيف« وكتـابات العهد القديم زاخرة بالأقوال التي تدلك عى تلك الحالات»(٢٣).

والدونيـة —دونية اليهود— يعبر عنهـا سفر الخروج بقولـه:«فقال الرب، لقـد رأيت مذلة شعبي في مصر، وسمعـت صراخهم وعلمت أوجاعهم فنزلت لأنقـذهم من أيدي المصريين... إلخ». ثم يورد الدكتور الشامي نصوصاً متعددة اخرى وقصص متنوعة كلها تـدلـك على ان هـذه القصـص الـدينيـة قـد خلفـت لـدى اليهـود إحسـاسـاً بـالمذلـة الدائمة،«عـوضوه بعد ذلك بسلوك عـدواني ووحشي تشهد على ممارسته مـدوناتهم التي سجلت قصة غزو أرض كنعان من منظورهم الديني»(٢٤).

ويتابع الدكتور الشامي قائلا:«وقد رأى اليهود أنفسهم في مجتمعاتهم المتفرقة في أنحاء العالم، التي كثيراً ما تعـرضت لكراهية الأمم الأخرى، وقد عاشـوا، منذ السبي البابلي في القرن السـادس ق.م والتشريد الرومـاني منذ القرن الأول الميـلادي، يصارعون عـوامل الفناء، ويتغلبون بتضامنهم الأجتماعي والديني على كل مشاريع الإبادة التي خططت من أجلهم، فكان من الطبيعي أن يأخذهم الزهو والغرور بهذا البقاء الدائم».(٢٥)

في حقيقة الأمـر، إن جملة الأفكـار التي يـوردها الشامـي ليست متنـاقضة مـع معظم أفكار اتنغـر، ولكن النتيجـة التي يـريد أن يصـل إليها هـي أن أساس العنصريـة يقوم في النص الديني المتوارث من قبل اليهود.

إذا كانت التوراة حاوية على الصهيونية والعنصرية وتعلن بدء هذه الحركة فما هو الموقف من التوراة، هذا الذي يرى فيه مثلا جورجي كنعان سبيلاً لفهم العنصرية اليهودية: «وفي محاولتي تقصي جذور العنصرية اليهودية والقيام بعرض تاريخي لها قادني البحث في طبيعة هذه العنصرية، ودلالاتها، إلى الرجوع إلى مصادرها وأصولها القديمة... وإذا كانت معرفة أي شيء تبدأ بمعرفة أصوله، فإن العدوة إلى التاريخ اليهودي القديم ضرورية لتفهم شخصيته والتعرف على طبائعه المكتسبة، لأن فكر اليهود الديني والتاريخي متأصل في نفوسهم، والوجود اليهودي— الصهيوني يرتبط فكرياً وسياسياً واجتماعياً وحضارياً بما يسمى بالتراث ايهودي، فسبيلنا إلى فهم العنصرية اليهودية سيكون بالرجوع إلى التراث الذي خلفوه وأول مصادر هذا التراث هو التوراة، العهد القديم»(٢٦)

والتوراة، كما يرى مؤلف العنصرية اليهودية، كتاب أملاه الكهنة في السبي البابلي، أو كما يقول: «وعندما بدأ اليهود بتدوين التوراة زمن موسى أو بعده، أو عندما صاغوها من جديد في السبي البابلي استهدفوا تحقيق جملة أغراض أولها: تمجيد تاريخهم، وذلك بإرجاع أصلهم إلى أقدس شخصية قديمة عرفتها شعوب المنطقة—ابراهيم الخليل— وثانيها: إضفاء صفة القداسة على عنصرهم كونهم سلالة ابراهيم الذين اختارهم الرب ليكون راعياً لهم من دون سائر البشر، يبيد الشعوب من أمام وجههم.. فوضعوا في توراتهم—كتابهم المقدس— بذور العنصرية والتعصب والانعزالية»(٢٧).

ويرى السيد ندرة اليازجي: أنه يستحيل علينا أن نفهم التوراة، تاريخياً، إلا فسخاً لحقيقة الله وتحويله إلى إله قومي، هو يهوه، وإذا كان جورجي كنعان يرى ان التوراة قد كتبت من قبل كهان اليهود، فإن التوراة بكاملها كما يرى السيد ندرة اليازجي «خاصة أسفار موسى الخمسة إنما تقوم على الآراء التي سادت فيما بين النهرين ومصر وبلاد ميديا فاليهود لم يبدعوا شيئا فظلوا في عالم الشريعة ولم يدخلوا عالم الروح»(٢٨).

ويؤكد ندرة تلك الفكرة— فكرة ان التوراة مقتبسة من الكتب الأخرى «فلقد أخذ داود مزاميره من كتابات الكنعانيين وكتابات رأس شمرا، وأخذ سليمان أقواله من الكنعانيين الذين خانهم ومن المصريين أيضاً، أما الكتابات الأخرى في التوراة فقد أخذت من كتابات شرقية تعتبر زراد اشتية ومانوية في أساسها»(٢٩).

ويخلص ندرة اليازجي إلى القول: «لانتعلم درساً أخلاقياً من التوراة، فهي مدرسة للفساد والشر، التوراة مدرسة سياسية لليهود وتوجيه لهم في كل أمر»(٣٠) «وبما ان الصهيونية قائمة في اليهودية وبما أن اليهودية قائمة في التوراة، فالصهيونية قائمة في تدبير يهوه لقضية اليهود، لحياتهم، وفي تخطيط مسبق لأمورهم، الصهيونية قائمة في عرفية وفي صلب يهودية التوراة، لاصهيونية بدون يهودية ولايهودية بدو توراة»(٣١).

القسم الثاني
-٢-

لسنا بصدد دراسة تاريخ اليهودية أو تناول التوراة من زاوية تاريخية نقدية— في أي عصر كتبت، وماالتطورات والاضافات التي تعرضت إليها على مر الزمن والطابع الأسطوري والمنابع أو المصادر الشرقية المتعددة— فكل ذلك يمكن أن يكون موضوعاً للنقد التاريخي كأي وثيقة تاريخية قديمة، إنما نحن بصدد مسألة محددة تصاغ في السؤال التالي: إلى أي حد يمكن قبول الرأي القائل بقدم الصهيونية على أساس قدم التوراة، أو بكلمة أخرى إلى أي حد يمكن الركون إلى اعتبار أن التوراة هي الصهيونية بالذات؟

إننا يجب ان نميز بين مسألتين —كما أشرنا سابقاً— مختلفتين:

الأولى: نشأة الصهيونية كظاهرة تاريخية حديثة وأساس الصهيونية الايديولوجي.

وثانياً: إن خرافة قدم الصهيونية التي يشيعها عدد من المؤدلجين الصهاينة ليست أكثر من سلاح موجه لحمل جميع اليهود للايمان بالحركة الصهيونية والاندراج في سياستها قبل كل شيء، وبعث الحمية الدينية في صفوف اليهود، ومن أشنع الأخطاء أن يردد بعض المفكرين العرب هذه الخرافة—عن حسن نية— بكلمة واحدة، ان البحث عن مبرر ايديولوجي للحركة الصهيونية ماكان يمكن إلا أن يعود إلى الماضي الميت من أجل بعثه، وهم على بينة إلى حد يمكن أن تلعب الفكرة الدينية بعواطف البشر، ومالدور الذي تقوم فيه وسط جماعات اليهود في ظروف أزمات متعددة.

إذاً، وقبل كل شيء، إن قدم الصهيونية حيث يبدأ تاريخها من ابراهيم والكتاب المقدس مستمراً إلى القرن التاسع عشر فكرة صهيونية بالأساس، كما رأينا مثلاً عند اتينغر، وهناك امثلة كثيرة على المحاولات التي أرادت ان تجعل من الفكرة الصهيونية تاريخاً موصولا منذ أربعة آلاف عام وحتى الآن، وهذه الخرافة هي التي يجب ان تكون موضوعاً للنقد قبل كل شيء. لقد أشار يوري ايفانوف الى هذه النقطة حين قال: «من المهم جداً كشف الأسباب الحقيقية لاختراع ونشر الخرافة حول قدم الصهيونية، ومن الجلي أن تختفي وراء ادعاءات الصهاينة الساذجة، ظروف خطيرة جداً». (٣٢)

في منتصف القرن التاسع عشر، كتب الحاخام يهودا التالي يقول: «نحن كشعب يليق بنا أن نلقب باسرائيل، فقط إذا كنا في أرض اسرائيل» ويضيف: «أمنيتنا الكبرى دون شك هي لمّ شمل منفيينا من أطراف العالم الأربعة كي يصيروا كتلة واحدة. نحن اليوم واحسرتاه، مبعثرون ومنقسمون لأن كل جالية يهودية تتكلم لغة تختلف عن الأخرى ولكل منها عادات مختلفة. هذه الانقسامات عائق للخلاص» (٣٣).

ترى ماالذي سيوحد اليهود كلهم المنتشرون في أطراف الأرض الأربعة والذين يتكلمون لغات مختلفة ولهم عادات بعدد عادات الشعوب التي يقطنون بينها؟

من الطبيعي أن يبحث الصهيوني عن ايديولوجيا توحد جميع اليهود وهو لأنه لايجد مايوحد اليهود في الواقع فخف ليوحدهم عن طريق دينهم، ودينهم تحول إلى كتاب ووصايا وتاريخ خاص.

إذاً فالعودة إلى التوراة تحقق لهم عنصراً مقاوماً لكل عوامل الاندماج لاسيما أن عددا كبيرا من مثقفي اليهود كانوا تنويريين اندماجيين بالأساس، بل إن أغلب الذين بدأوا تنويريين قد نكصوا نحو اليهودية مرة أخرى ونظروا لوحدة اليهود— المعذبين في الأرض—لأنهم يهود. ولاأدل على ذلك من أن أسماء كثيرة من دعاة الصهيونية لاحقاً بدأوا حياتهم علمانيين اندماجيين كما قلنا، كموسى هيس وبيريتز سمولنسكين وموشيه لايب ليلينبلوم وهرتزل وماكس نوردو وآخرين. كان لابد من بعث جميع الأساطير لصياغة المفاهيم الايديولوجية للصهيونية، كالمنفى والخلاص والشعب المختار والعداء للسامية، وهكذا تحولت اليهودية من مجرد دين إلى أساس قومي وتحولت عناصرها إلى عناصر موحدة، وتحوّل التوراة إلى منبع تاريخي.

والخطوة الأولى، إذا، هي مواجهة معارضة بعض اليهود أو الأفكار التي انتشرت بين اليهود وهي أفكار معارضة لما يسمى بعودة «الدولة اليهودية».

في وقت مبكر كتب بيريتز سمولنسكين يقول:«ليكن معلوماً بأنه يتوجب علينا إعلان الحرب ليس ضد حركة التنوير على العموم لأنها شيء حسن... إنما ضد نوع معين من التنوير، ولنعرف الآن هذه الحركة من التنوير كي لانخلطها مع غيرها وذلك بذكر تعاليمها»(٣٤)٨

ثم يعدد سمولنسكين عناصر التنوير اليهودي الذي يقف ضده ويجملها بما يلي:«تبني طرق الأمميين، تبديل كل شيء ورثه اليهود من الأجداد، الذوبان في المجتمعات الأخرى، التخلي عن آمل العودة، محو اللغة العبرية، إرضاء الأمم الأخرى»(٣٥).

ولأن هذا التنوير يعني الذوبان في المجتمع والذوبان في المجتمع يعني اعتناق دين آخر— كما يرى— فلابد من العودة إذا إلى وصايا التنوير، بل إلى وصايا التوراة.

إن الصهيونية في إبرازها أهمية ودور التوراة في ايديولوجيتها، إنما أرادت أن تجد جواباً عن سؤال«الهوية القومية»، وهي ظاهرة شاذة في العصر الحديث —ظاهرة— ان يبحث جماعة من الناس عن هويتهم في كتاب مضى على تأليفه آلاف السنين، فاليهودي الصهيوني وجد نفسه في حالة لاتسمح له بالحديث عن شعب أو أمة يهودية استناداً إلى العناصر التي تكوّن الأمة او الشعب، بل قل إن الفكر الاجتماعي— السياسي الذي حدد عناصر تكون الشعب أو الأمة يدحض وجود أمة يهودية.

ففي غياب العنصر الجغرافي —الأرض— الذي يجمع اليهود— وهم متوزعون على بلدان كثيرة— صاغوا علاقة دينية بين اليهود وبين أرض موعودة، أي في ظل غياب الأرض الواقعية بحثوا عن أرض وهمية، وهذه الأرض الوهمية إنما وجدت على لسان التوراة، وليس مصادفة أن عبر أحد الصهيونيين عن هذه الواقعة بما يلي: «الصلات بين الشعب اليهودي وأرض اسرائيل تكوّن واحدة من أغرب الظواهر في تاريخه الطويل، وهي ظاهرة قد لانقع على نظير لها في تاريخ أي شعب من الشعوب» (٣٦).

وشيمون بيرس يؤكد فرادة طابع دولة اسرائيل، حيث هذه الدولة الوحيدة في العالم ذات الديانة الواحدة «وهي الدولة الوحيدة التي تمتاز لغتها الحية بكونها لغة مقدسة، هي اللغة العبرية، كما أنها الدولة الوحيدة التي يبعث نشوؤها استقلالاً سياسياً وقومياً كان موجوداً في المنطقة الجغرافية منذ حوالي الألفي عام... ولاشك في صحة ماأشار إليه «هينه(*) من أن «التوراة هي الوطن الأم الثالثة للشعب اليهودي» وهناك وعي جديد يفرض نفسه، هو ضرورة الوصول إلى توازن أفضل بين التاريخ والجغرافيا» (٣٧).

إذا إن الانفصال القائم بين التاريخ وبين الأرض—وهو انفصال واقعي— لايزول إلا بإقامة الترابط بين التاريخ وبين الأرض، الموجود في التوراة، في هذا لايختلف «العلماني» الصهيوني عن الصهيوني «المتدين» ذلك أن كليهما محتاج إلى التوراة ليقدم تبريراً ما—توراتي— لعلاقة بين اليهود والأرض، لتستكمل عملية إيجاد حجة الأمة التي لاتقوم إلا على أرض محددة.

وليس هذا فحسب، وإنما التوراة ، بما تنطوي عليه من خرافة النسب اليهودي تقدم أيضاً عنصراً جديداً يوحّد مالا يوحد، بمعنى ان توزع اليهود— وهو توزع قديم وأسبابه كثيرة— على دول العالم لايمكن أن يكون متحداً مهما كانت درجة العلاقات القائمة بين يهود العالم، ولهذا فالبحث عن أصول سلالية لليهود استمرت حتى هذه اللحظة— وهو امر تدحضه ولاشك حتى الصفات الأثنية لليهود— لايمكن أن يدلل عليه عن طريق علم السلالات أو بالأنتولوجيا أو الأتنوغرافيا، فلا يبقى إذا إلا اسطورة التسلل السلالي الموجودة في التوراة، وإشاعتها بين اليهود كي يتكوّن وعي بالإنتماء ، او الهوية القومية المفقودة.

فالصهيوني وهو يستعيد اسطورة تكوّنه السلالي كما ورد في التوراة يصوغ على نحو فج فرادة هذا «الشعب» اليهودي وفرادة تكونه التاريخي ايضاً . وها هو احد الصهيونيين المعاصرين يرسم اللوحة السلالية التالية للتدليل على : اولا، ان اليهود هم صفوة الشعوب . ثانيا، ان هذه الصفوة ترتد الى التاريخ طالما التوراة تختصر تاريخ البشرية والعالم وليس اليهود فحسب .

« عنصر شعب اسرائيل افخر العناصر لانه تكوّن عن طريق انتقاء الافضل في كل جيل ، فآدم الاول الذي خلقه الرب بنفسه كـان كاملاً في غاية الكمال ، وقد ولد لآدم ابناء كثيرون كان احسنهم شات وقد وقع عليه الخيار كي يستمر عنصر آدم الاول ، ويتكوّن منه شعب اسرائيل . وكان لشات ابناء كثيرون احسنهم انوش ، الذي اختير ليستمر العنصر ، وهكذا دواليك ... وقد كان لنوح ثلاثة ابناء واحسنهم سام ، ، وكان احسن ابنـاء سام ارفكشاد ، ، واحسن ابنـاء ارفكشاد كان سيلح ، وهكـذا دواليك... وقد كـان لابراهيم ابنـاء وهما اسحق واسماعيل . وقـد وقع الخيار على اسحـق ، ابناء اسحق هم يعقوب وعيسو ، وكان يعقوب هو الافضل . وقد اختير ليواصل العنصر . وكان ابناء يعقوب كلهم اخيار ولم يكن من داع لانتخاب واحد منهم » (٣٨).

وهذا يعني ان ابنـاء يعقوب — وهم اليهود — نسلهم جميعهـم اخيار ومختارون وينتمون الى أصل واحد متسلل حافظ على نقائه السلالي .

اي كتاب يمكن لـه ان يساعد على تكويـن هذا التصور الساذج لـلانتماء اليهودي الى سلالة نقية غير التوراة ؟!

وهكذا نرى ان التوراة هو الحقل الايديولوجي الذي قطعت منه الحركة الصهيونية اهم اخشابها لتبني اعمدتها الاسـاسية ، الحنين الى الارض الموعودة ، الخلاص النقاء العرقي ، الامة اليهودية . لم يستطع العربي ان يتجاهل هذا التصور الاسطوري لتاريخ اليهود وان كان الكثير ، كما سنرى ، قـد عالج الصهيونية من حيث هـي ظاهرة اوربية حديثـة ذلك ان مـواجهة الحق عن طـريق اعـادة رسم تاريـخ آخر لليهـود لايعطي لليهود مثل هذا الحق . واذا كانت المسألة كلها تكمن في حق العرب الفلسطينيين في فلسطين ، فـان الايديـولوجيـا الصهيـونية قـد فـرضت نـوعاً مـن الجدل بين حقين: كلامهما يستنـد الى التاريـخ. صحيح ان التـاريخ لايقـدم لليهود اي مستنـد اطلاقـاً للحديث عن حق تاريخي ، لكن مجرد ان حوّل البعـض من المفكرين العرب المسألة الى صراع بين حقين — وهم يدحضـون حق اليهود المزعوم في فلسطين — قـد نقلوا القضية الى مستوى اخر من المعالجة وكأن المسألة هنا مسألة من يملك حججاً تاريخية اقوى .

تأسيساً على مـا سبق ذكره خفّ المفكـرون العرب — حين تناولوا تـاريخ اليهود وهم بصدد دحض ادعاءات الصهيونية التاريخية — لرسم صور اخرى لهذا التاريخ ، على الرعم من اتفاقهم جميعاً بان ليس لليهود في فلسطين ايّ حق تاريخي.

سأتناول نماذج معينة تبرز تنوع تناول تاريخ اليهود، دون ان يعني ذلك انها تستنفذ كل ما كتب حول الموضوع. فهمنا امر آخر مختلف من النماذج التي يقدمها بعض الباحثين العرب لتاريخ اليهود، عبر الحديث عن تاريخ فلسطين، ما كتبه السيد ابراهيم المسلم في كتابه « لمحات من القضية الفلسطينية ودور الملك عبد العزيز آل سعود ». يبدأ تاريخ فلسطين منذ ٣٥٠٠ ق. م، حين استوطنتها اول قبيلة وهي عربية سميت بالكنعانيين. وفي « زمن النبي ابراهيم عليه السلام كان الكلدانيون يحكمون في العراق والعموريون في الشام والكنعانيون في فلسطين والفينيقيون في صور، وكانوا عرباً. وعندما جهر النبي ابراهيم عليه السلام بدعوته انكره قومه... وكادوا له » (٣٩). وكان ابراهيم يقيم في مدينة أور الكلدانية. « وخرج ابراهيم فاراً بدينه يسعى في الارض ليظهر هذا الدين وحطت القافلة رحلها في مدينة حاران واجتمع اليه الناس وامتلأت خيامه بالقادمين من التجار والمرافقين والمستضعفين من مدينة حاران وزادت رغبتهم في الدخول بدين ابراهيم. وبدأ سكان حاران يجهرون بهذه الدعوة، الامر الذي اغضب الدولة. ترك ابراهيم ارض حاران وسارت القافلة باتجاه نهر الفرات، وتأهبوا للعبور »(٤٠)*.

« وتم العبور باذن الله — وسجل المؤرخون هذا ما بين عام ١٧٥٠ — ١٧٠٠ ق. م » ثم دخل حلب ومنها رحل الى دمشق ونشر دعوته. وانتصر على الكهنة وعباد الاوثان. ثم رحل الى فلسطين لنشر دعوته لكن الكنعانيين رفضوها « واستعانوا بسنان بن الاش بن عبيد من ابناء سام وهو ملك مصر آنذاك » فجهز ملك مصر جيشاً وهزم ابراهيم واسرت زوجته سارة وحملت مع « السبايا الى مصر ». ثم انطلق ابراهيم الى مصر « لفك اسر زوجته وافتدائها بالمال » اعاد ملك مصر لابراهيم زوجته سارة واهداه « هاجر ام المؤمنين » (٤١) وعاد ابراهيم الى بيت ايل ثم بدأ الترحال مرة اخرى وحطّ بالخليل. ثم تزوج ابراهيم من هاجر وولدت اسماعيل. واوحى الله الى ابراهيم بان يبني بيت « الله، فخرج هو وزوجته هاجر وابنه اسماعيل وحطّ في واد غير ذي زرع. وعاد ابراهيم الى الخليل وقد اكتمل اولاد اسماعيل اثني عشر وأولاد ابراهيم من سارة باثني عشر آخرين ومات ابراهيم ودفن في الخليل » (٤٢).

تزعم ابراهيم القبائل العربية في الجزيرة. وانتشرت ذرية اسماعيل في الشام والحجاز. « وفي عهد النبي سليمان عليه السلام توطدت بينه وبين قبائل اسماعيل اواصر الصداقة.

* كل ما سيرد حول هذا النموذج هو تلخيص لما كتبه المؤلف، وجميع الجمل التي بين قوسين هي نقل حرفي عن المؤلف ذاته.

أما بنو اسرائيل ، فيرى المؤلف انه بعد وفاة « سيدنا ابراهيم عليه السلام وفناء قوم لوط ثم وفاة اسحق ، عاش يعقوب — عليه السلام — وابناؤه بين الكنعانيين واخذوا عنهم العبرية ، وبعد حدوث الرؤيا ليوسف عاش يوسف في مصر وخرج « سيدنا يعقوب للقاء يوسف وابنه بينامين واستوطنوا مصر . وبخروج يعقوب انتهى وجود ابناء اسرائيل في ارض كنعان . وبعد حرب فرعون مع العماليق الذي ايدهم اليهود وانتصاره عليهم، سام فرعون بني اسرائيل الهوان »(٤٣)

« وظهر النبي موسى — عليه السلام — يجهر بدعوة ابراهيم عليه السلام » لكن بني اسرائيل بدأوا يكيدون له لدى فرعون . وخرج موسى هارباً بدينه واستقر في ارض مدين وتزوج احدى بنات النبي شعيب عليه السلام ، وعاد موسى الى مصر ليتدبر خروج بني اسرائيل وخلاصهم من الاسر فتاهوا اربعين عاماً في الصحراء . ثم « قاد الشعب اليهودي يوشع بن نون من أسباط موسى عام ١٢٢٠ ق. م » وعبر بهم نهر الاردن واحتل هذا القائد اريحا وقتل اهلها ودام حكمه سبعة وعشرون عاما . وبدأ تاريخ اليهود من نسل يهوذا . « وقد بعث الله فيهم نبياً اسمه شمويل يبلغ رسالات ربه ، وينهاهم عن عبادة الاوثان ».ثم استجاب الله لنداء شمويل وبعث في اليهود ملكاً اسمه طالوت ، وفي الحرب بين طالوت وجالوت قائد الكنعانيين « لم يجرؤ طالوت على محاربة جالوت وجاء داود وتقدم صفوف المقاتلين وداود بايمانه بالله وعزيمته الصادقة تقدّم وقتل داود جالوت ، وانتهى هذا الفصل من ضعف وهوان بني اسرائيل وهُزِمَ الكنعانيون فان ايمان داود بنصر الله هو الذي دفعه لقتال هذا الجبار » (٤٤).

لكن طالوت بدأ يتآمر على داود ، وخرج داود طريداً وعاد الكنعانيون وهزموا بني اسرائيل . وقتل طالوت ونودي بداود ملكاً وبدأ التاريخ يسجل حكم بني اسرائيل في عام ١٠١٧ ق . م ثم جاء سليمان وحجّ الى بيت الله الحرام ، واتم بناء الهيكل . وانتهى حكم سليمان عام ٩٣٧ ق . م بعد حكم دام اربعين عاماً . وبعد موته قامت الفتن بين اليهود وقامت الحروب بينهم وقسموا مملكة اسرائيل الى دولتين : « مملكة اسرائيل وعاصمتها السامرة . ومملكة يهوذا وعاصمتها اورشليم » (٤٥).

ثم « سلط الله عليهم بظلمهم »... بعل « الثالث وغزا مملكة اسرائيل ويهوذا ودمر مملكة اسرائيل ولولا تدّخل بني اسماعيل لاستطاع ان يدمر الدولة الثانية — مملكة يهوذا . واسترد الكنعانيون ارضهم واقاموا حكمهم وحضارتهم على ما تبقى من بلادهم . وحارب ابناء اسماعيل الملك الاشوري ونجحوا في دخول بابل واكرمهم البابليون . واعادوا سبايا بني اسرائيل . ولكن مملكة يهوذا حاولت غزو ابناء عمومتهم ... ولكنهم لم ينجحوا . ولما رأى بختنصر ملك بابل ما وقع من اليهود

لأبناء عمومتهم جهز جيشاً وقضى على مملكة يهوذا. وتمّ له ذلك عام ٥٨٦ق.م. وأحرق الهيكل ونفى اليهود. وهناك في المنفى « اشتد التعصب بين الاسرى اليهود وكتبوا التوراة بايديهم ووصفوا ابراهيم بالكذب ولم يذكروا موسى في توراتهم وزعموا ان سليمان مات كافراً .... الخ وتوقف تاريخ اليهود .... وانتهى دورهم في التاريخ » (٤٦).

انه لمن الدلالة بمكان ان «يؤرخ » عربي معاصر لليهود بهذه الطريقة مستنداً في ذلك على الطبري . فالقارىء لتاريخ اليهود عند الطبري في كتابه « تاريخ الامم والملوك » يجد ان الرواية المعاصرة هي تقريباً متفقة مع رواية هذا المسلم الذي كتب كتابه ما بين ٢٩٠ — ٣٠٣ للهجرة. وهي رواية اسلامية ، ليس فيها اي تعصب ديني او قومي . بل علي العكس من ذلك فان المسلم يجد في اغلب الملوك اليهود المتعاقبين انبياء الله مستنداً الى رواية التوراة وما جاء في القرآن الكريم بشأنهم .

وانقطاع تاريخ اليهود ، حادث يدحض الحق التاريخي الذي تدعيه الصهيونية. وواقعه انقطاع تاريخ اليهود عن فلسطين واقعة لاينكرها احد حتى الصهيونيين انفسهم . ولكن العربي يرى ان هذا الانقطاع التاريخي عامل مهم جداً في تأكيد تاريخ جديد لفلسطين — هو التاريخ العربي — الاسلامي والذي يبدأ من فتح القدس حتى الان .

ولكن من اللافت للنظر ، ان المسلم وهو «يؤرخ» لليهود . او يروي الاحداث استناداً الى ماورد في القرآن الكريم يميز نوعين من الصراع وهو صراع ديني داخل اليهود انفسهم وصراع بين اليهود وغيرهم . انه صراع بين ابراهيم . ومن سار على ملته موسى وشمويل وداود وبين من انكروا دعوة ابراهيم ان الله يؤيد بنصره ملة ابراهيم على الاعداء . ولهذا نجد ان الكاتب الآنف الذكر حين يذكر الحرب بين الكنعانيين واليهود لايرى غضاضة من تأييد اليهود ضد الكنعانيين . وهم سكان فلسطين الاصليين. فالله ايد داود ضد جالوت ، وبتأييد الله داود انتصر على جالوت الكنعاني (الكافر) . ثم ان الله يسلط على اليهود ، مثلما فعل بسبب ظلمتهم ويدّمر مملكة « اسرائيل » ولكن بني اسماعيل يتدخلون ويدافعون عن مملكة يهوذا ، ولكن مملكة يهوذا حاولت غزو ابناء عمومتهم النبط ، وهم عرب وينتقم بختنصر ويعاقب مملكة يهوذا ، ويأخذهم اسرى . وهناك يبدأ التاريخ الزائف لليهود . حيث يسكتبون التوراة بايديهم . محّرفين اياه بالطبع .

ان ابراهيم وموسى وداود هو جزء — من وجهة نظر المسلم — من تاريخ الايمان الذي يمتد حتى بعثة الرسول العربي صلعم والله يؤيد المؤمنين ، وإذا بغوا يسلط عليهم الاعداء.

واله اليهـود — يهوه— هو الآخر بيده الهزيمـة وبيده النصر ، لكن اليهـودي يبقى على اتصال مباشر لاينقطـع مع يهوه من جهة نظـر اليهودي ، فهو لم يتركه حتـى هذه اللحظة والصهيـوني، يستند الى وعده بينما سيرورة الايمان تبدأ مـن ابراهيم ومـوسى وعيسى وتنتهي بـالدعوة الاسلامية — لـدى المسلم — يتوقف اليهـودي عند ايمانه وبنفيه عن الاخرين .

طبعاً نحـن لسنا امـام تاريخ يمـت الى علم المتفق عليـه وانما امام روايـة تخضع لحقائق دينية مسبقة وهذا احد اشكال تناول التاريخ اليهودي من قبل العرب .

***

مـن الكتـب التاريخيـة المهمـة التـي اصبحـت مـرجعاً لعـدد كبير مـن الـدارسين والباحثين العرب ، كتاب الـدكتور احمد سوسة ،(العرب واليهود في التـاريخ)، وهو من النوع الذي يستجيب لاصول البحث التاريخي ، مهما كان هناك من آراء مخالفة له ، ونحن اصلاً لانعدم اطـلاقاً وجود اختلافات بين المؤرخين حول الظـواهر التاريخية الماضية . والكتاب — بميله الى الدقّة — يضع هدفا مباشرا وهو تأكيد عروبة فلسطين منذ خمسة آلاف سنة وليدحض الحق التاريخي لليهود في فلسطين .

وهذا السفـر الذي يقع في ثمان مئـة وثلاث وسبعين صفحة يبـدأ بدراسة تـاريخ فلسطين منذ الهجرات الأولى اليها ، الهجرة الكنعانية ودراسة الشعوب التي سكنتها مروراً بدراسـة التوراة والديانة اليهـودية وانتهاءً بدراسة الحركـة الصهيونية . لامجال لعرض كتاب بهذا الحجم الكبير ، غير ان زبدة هـذا الكتاب تتحدد في اعادة النظر في ما اعتبر حقـائق توراتية وتقديـم تاريخ حقيقـي لفلسطين قائمة على دراسة الـوثائق التاريخيـة والمقارنة بين اللغـات. فالمؤلـف ينطلق من تحديـد مصطلحات العبرانيين، الاسرائيليين، الموسويين ، اليهود ليدلّل على انها ليسـت « اربع تسميات لمسمى واحد ، وانما لكل منها مدول خاص »(٤٧)

فالعبري مصطلح كـان « يطلق في نحو الالف الثـانية قبل الميلاد وفيما قبـل ذلك على طائفة مـن القبائل العربية في شمال جزيـرة العرب في بادية الشـام وعلى غيرهم من الاقوام العـربية في المنطقـة ، حتى صـارت كلمة عبري مـرادفة لابـن الصحراء او ابـن البـادية بـوجه عـام .... ولم يكن لـلاسرائيليين والموسويين واليهـود اي وجود بعـد . لذلك نعت ابراهيم الخليل بـ« العبراني» كما ورد في التوراة انما اريد به معنى العبريين « العبيرو» وهـم القبائل البـدوية العـربية ، ومنهـا القبـائل الآرامية التي ينتمي اليهـا ابراهيم الخليل نفسه »(٤٨).

اما مصطلح اسرائيل « فالمقصود به يعقوب حفيد ابراهيم الخليل وابناؤه هم بنو اسرائيل ... ودورهم محصور في منطقة « حاران» (حران حاليا) ، حيث وطنهم الاصلي الذي ولدوا ونشأوا فيه. اما فلسطين فهي ارض غربتهم ، وقد وجدوا في القرن السابع عشر قبل الميلاد . وهو نفس عهد ابراهيم الخليل ... وانتهى دور « اسرائيل » بعد ان هاجرت اسرة يعقوب الى مصر وانضمت الى يوسف كما يقول التوراة واندمجت وذابت في البيئة المصرية » (٤٩).

اما الدور الموسوي فجاء بعد الدور الذي تداولت فيه تسمية اسرائيل بزهاء ستمئة عام . والموسويون هم من الجنود الفارين على ارجح الاحتمالات وكان دين هؤلاء ودين موسى هو التوحيد الذي دعا اليه اخناتون . وقد هرب موسى واتباعه الى ارض كنعان هرباً من اضطهاد الوثنيين ، واسم موسى مصري بحت » (٥٠).

واخيرا اليهود « وهي التسمية التي اطلقت على بقايا جماعة يهوذا الذين سباهم نبوخذ نصر في القرن السادس قبل الميلاد »(٥١).

ويخلص الدكتور احمد سوسة الى ان اليهود لم يتركوا اي كيان سياسي يهودي خاص بهم في تاريخ فلسطين القديم ولكنهم تركوا ديانة مقتبسة من التراث الكنعاني البابلي الآرامي ، وأن عهد ملوكهم هو عهد كنعاني ان كيانهم قائم على الدين والدين عرضة للتغيير على خلاف القومية بما هي عليه من ثبات . وبالتالي فان كيان اسرائيل كان قائماً على الاغتصاب والاعتداء على شعب آمن له قوميته وثقافته في فلسطين منذ خمسة آلاف عام . النتيجة ان ارض فلسطين هي ارض الشعب العربي » (٥٢).

ان سر بقاء اليهودية واستمرارها طوال هذا الزمن هو انها دين ، وكما زالت الدولة الصليبية في الشرق وبقيت المسيحية ستزول اسرائيل بوضعها الشاذ الحالي »(٥٣)

النموذج الثالث الذي نقدمه في رصد تاريخ فلسطين هوكتاب الاستاذ يوسف اليوسف « تاريخ فلسطين عبر العصور ». ينتبه المؤلف الى نقطة جديرة بالاهتمام الا وهي ان « معظم ما كتب عن تاريخ فلسطين هذه الايام قد حتمته الظروف السائدة في القرن العشرين . وهكذا انصبت الابحاث بالدرجة الاولى على مناقشة التوراة وعلى دراسة التاريخ اثناء « العصور التوراتية ،مع ان تاريخ فلسطين او سواها ينبغي ان يدرس كاستجابة لنزعة العقل البشري الرامية الى معرفة الحقيقة في ذاتها ولذاتها ، وبغض النظر عن نتائجها السياسية ... » ويضيف : « ان تاريخ فلسطين اذا درس انطلاقاً من الرغبة في الحق فانه لن يكون الا في صالح الفلسطينيين من تلقاء ذاته او وفقاً لطبيعته الموضوعية » (٥٤).

اذا، ان مطلب الدقة والنزاهة والموضوعية لا يتناقض والحق الوطني، لاسيما ان وجود دولتين «اسرائيل» و«يهوذا» او عدم وجودهما في فلسطين، او تأسيسهما من قبل «العبرانيين» ليس من شأنه كما يقول يوسف اليوسف ان يكون اساساً منطقياً كافياً لقيام دولة يهودية في فلسطين (يقصد الان أ.ب.) وان انقطاع الوجود اليهودي في بلادنا طوال ثمانية عشر قرناً على وجه التقريب هو اساس الحجة التي تحرم اليهود من الحق في انشاء دولة لهم على اي شبر من تراب فلسطين» (٥٥).

النقطة التي يدحضها المؤرخون العرب اجمالاً هي هذه بالذات اي الى حد يسمح تاريخ فلسطين بتبرير الوجود الراهن للدولة اليهودية — الصهيونية في فلسطين. رأينا عند أحمد سوسة نفي الوجود اليهودي في فلسطين والنظر اليهم كغرباء، اي ان فلسطين في كل تاريخها الطويل لم تكن الا موطن غربة لليهود. وهذا بدوره نفي لدعاوى الصهيونية المعاصرة.

ما يميز كتاب «تاريخ فلسطين عبر العصور» هو الدراسة النقدية للتوراة ونفي ان تكون مرجعاً صالحاً لدراسة تاريخ فلسطين وتاريخ اليهود بالذات. فتحويل التوراة الى وثيقة، ثم القيام بعملية نقد لهذه الوثيقة، نقد يستند الى جملة الاكتشافات الاثرية التي اصبحت في متناول الجميع، وهي اكتشافات تسمح باعادة رسم صورة جديدة لتاريخ المنطقة، غير الصورة التي رسمها عدد كبير من الغربيين والعرب انطلاقاً من الاقرار بصحة ما جاء في التوراة.

من الأمثلة على ذلك، مايورده المؤلف من تناقضات التوراة، وهي فعلا تناقضات لاتسمح لأي مؤرخ أوفى خطأً من الدقة والنزاهة والموضوعية والمخيلة التاريخية ان يقر بما جاء فيه من حوادث. مثال؛ إبادة بني اسرائيل لشعب مديان الذي جاء في الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر العدو، حيث تمت الإبادة في عصر موسى، ولكن الإصحاح السادس والإصحاح الثامن من سفر القضاة يتحدث عن حروب طويلة بين اسرائيل وشعب مديان بعد موت موسى ص٦٣.

يسأل مؤلف «تاريخ فلسطين عبر العصور» السؤال التالي: «اسرائيل عبرانية أم كنعانية؟» (٥٦). يجيب المؤلف إنها، لاريب دولة كنعانية لجملة اسباب: فاسم اسرائيل هو كنعاني وهذا مايجمع عليه كثير من المؤرخين، وهو المؤلف من كلمتين «اسر» و«ايل» وأيا كان معنى «اسر» فإن إيل هو الاله الأعلى عد الكنعانيين، وحقيقة وجود اقليمين في الكتلة الجبلية الواقعة إلى الجنوب من مرج بني عامر، احدهما يسمى اسرائيل وهو الشمالي، وثانيهما يدعى يهوذا وهو الجنوبي، لايستخلصهما المرء من التوراة وحدها، بل من الوثائق الآشورية والبابلية قبل كل شيء» (٥٧).

وإن اسرائيل المذكورة في التوراة أو في الوثائق الآشورية:«لم تستطع جهود المنقبين جميعها ان تكشف فيها أي أثر غير كنعاني على الإطلاق مما لايدع مجالاً للشك في أنها لم تكن إلا مجتمعاً كنعانياً»(٥٨).

إذا «حين أطلق الصهاينة اسم «اسرائيل» على دولتهم الراهنة، إنما سرقوا الإسم من الكنعانيين، أي أصحاب البلاد الشرعيين»(٦٠).

ثم يسأل يوسف سامي اليوسف سؤالا آخر؛ هل كان يهوه كنعانياً هو الآخر؟ يجيب اليوسف قائلاً:«إن التنقيبات قد اكتشفت ثلاثة ألواح بابلية ترقى إلى القرن الثامن عشر ق.م وقد نقش اسم يهوه على كل منها، مما لايدع مجالا للريب في أن يهوه، أو الدائم ، إله يعبد في الهلال الخصيب منذ زمن لاندريه»(٦١)

الأهم من ذلك ان يوسف اليوسف يرى، انه لايمكن الثقة بما ترويه التوراة عن كل ماهوسابق للقرن التاسع ق.م. وهو يرى أنه«ليس لدينا أية وثيقة تاريخية تؤكد الوجود الفعلي لأي شخصية من الشخصيات الكبرى التي تعيش في الملحمة التوراتية: ابراهيم، اسحق، يعقوب، يوسف، موسى، يشوع بن نون، شاول ،داود، سليمان، فكيف يمكن للعقل السليم ان يثق بما تسرده التوراة؟ لاسيما أن الأحداث السابقة على القرن التاسع قبل الميلاد قد جرت قبل عصر الكتابة»(٦٢).

والحقيقة ان الشك بالوجود الفعلي لشخصيات كابراهيم واسحق ويعقوب،...الخ، شك له مايبرره، وهو إن تأسس على جملة وقائع تاريخية فإنه ولاشك، سيغير كثيرا من الأفكار والآراء التي تكونت لاحول تاريخ المنطقة العربية وتاريخ اليهود القديم فحسب، بل وتاريخ أفكار التوحيد ونشأة الدين التوحيدي.

واقع الحال، مهما كان التاريخ— تاريخ منطقة الشرق— ينطوي على جماعة من الناس سمها ماشئت عبرية، اسرائيلية، يهوذاوية، بنت علاقاتها مع الجماعات الأخرى عدائية أم سلمية، فإن الاستناد إلى وقائع تمّت إلى مرحلة ماقبل الميلاد لايعني أبدا أن هذه الجماعة قادرة أن تكون سندا تاريخياً لما نسميه اليوم— اليهود— بأن يستولوا بالقوة أم بطرق أخرى كالهجرة وماشابه ذلك على أرض يسكنها شعب توراث هذه الأرض بشكل مستمر مئات السنين.

فكيف إذا دلّلت الأبحاث التاريخية العلمية والوثائق التي بين أيدينا على بطلان الزعم بالحق التاريخي.

وإذا أجبر المؤرخ العربي على دخول معركة الجدل حول التاريخ، فهذا لأن الخصم المعاصر هو الذي جر العرب إلى هذه المعركة السجالية حول التاريخ، ليتجنّب القناعة ان هناك مشكلة ليست هي وليدة مرحلة الاستعمار في القرن التاسع عشر، بل هي وليدة تاريخ طويل من الصراع، مع أن التاريخ لايسجل أي صراع ذا قيمة بين العرب وبين

الجماعات المختلفة التي تدين باليهودية، فكما رأينا، استناداً إلى النماذج الثلاثة التي جئنا على ذكرها، فإن أي نموذج منها لايتحدث عن اليهود إلا في مرحلة سابقة عن ميلاد المسيح، ومنذ تلك المرحلة حتى هذه اللحظة جرت تطورات تاريخية واجتماعية وقومية وأخلاقية، غيرت الطابع القديم للتاريخ بصورة كيفية جداً.

ولو أن المسألة ترتد إلى حق جماعة تاريخي في فلسطين لتحدثنا عن حق أهل كريت المعاصرة كوارثين لجماعة الفلستينيين، وعن حق الفرس وحق اليونانيين... الخ، بل ولأصبحت مصر المعاصرة وسورية والعراق عرض لجدل تاريخي بين العرب وغيرهم من الأمم المعاصرة التي ترى نفسها امتداداً لأقوام غارقة في القدم.

لقد احتفل مرة شاه ايران المخلوع بعيد تأسيس الامبراطورية الفارسية، وكان كورش الفارسي قد احتل في اواسط القرن السادس قبل الميلاد الأناضول والعراق والشام جميعها ومصر، فلماذا يكون حق اليهودي الأوروبي المعاصر في فلسطين اكثر من حق الفارسي المعاصر فيها، ألا يحق لليوناني المعاصر، إذا اعتبر نفسه سليل الاسكندر المقدوني، ان يحاجج اليهودي المعاصر بأن حقه في فلسطين هو الآخر مؤسس على وجود استمر مايقرب من ٣٣٢ ق.م إلى ٦٤ ق.م.

إن المنطقة الممتدة من المحيط إلى الخليج(الوطن العربي الآن) قد أخذت طابعها العربي — الاسلامي الخالص منذ أكثر من ألف عام، رغم أنها خضعت خلال هذه الفترة لعدد كبير من الحكام غير العرب، واستعمرها الأوروبيون (وكان قد دخلها الصليبيون وداموا فيها مايقرب من مئتي عام). وهناك أقليات قومية احتفظت بعدد كبير من سماتها الثقافية، لاسيما تلك الأقليات التي احتفظت بوجودها التاريخي حتى الآن، كالبربر والأكراد، وهم جزء من سكان المنطقة الأصليين.

مايهمنا إبرازه هنا، ان عملية تدوين التاريخ، تاريخ المنطقة بعامة منذ آلاف السنين يجب أن لاتخضع لهاجس يفرضه الاستعمار الصهيوني للمنطقة، بل يجب ان تبقى صعيداً يُتناول بكل نزاهة ودقة، وهذا ماتفتقده أصلاً الايديولوجيا الصهيونية التي تسعى لرسم صورة لتاريخ المنطقة استنادا إلى رغبة ايديولوجية زائفة وتشكيل صورة للتاريخ لاتوجد إلا في ذهن منشئها.

وبعد تطور علم التاريخ ووسائل ومناهج بحثه وتوافر أعداد هائلة من الوثائق والقدرة على فك رموز لغة الشعوب القديمة، لم يعد مقبولاً الاستناد إلى ....التاريخ البشري، إلى تاريخ جماعة تقاتل و..... تنتصر وتنهزم استناداً إلى رضا وعضب الإله الذي يحدد هو بالذات الوقائع والسيرورة التاريخية.

إن علم التاريخ وإن بدا علماً، هو أكثر العلوم تأثراً بالمواقف الايديولوجية المشبعة والأهواء والرغبات، لكنه محكوم على الأقل بجملة من الوقائع التي يختلف على فهمها وتفسيرها.

أما اختراع وقائع واحداث فهذا يبعدنا عن مجال علم التاريخ ويضعنا امام الأساطير التي لم تعد وعياً مطابقا لمرحلتنا التي نعيش، وهذا هو حال علاقة الصهيونية بالتاريخ، أي أن الصهيونية هي مع كل مايقال عن اختلاف داخلها بين المتدينين والعلمانيين، فإنها فيما يتعلق بالوعي التاريخي ليست إلا إعادة انتاج الأساطير مرة اخرى والتعامل معها كوقائع غير قابلة للدحض.

وإذا كان مجال الاختلاف في التاريخ هو الفهم والتفسير، فليس هناك ماهو موضوع خلاف مع الصهيونية، لأن الخلاف لايقوم على فهم وتفسير التاريخ، بل نحن أمام تناقض مطلق بين الوعي الأسطوري الصهيوني، والوعي التاريخي العلمي، وإذا ماخف أحد من العرب لإعادة انتاج تاريخ المنطقة استناداً إلى التسلسل الأسطوري التوراتي بحجة تطابقه مع الشائع من التاريخ، فإنه في هذه الحالة لن يقدم خطاباً مختلفاً من حيث الطبيعة عن خطاب الصهيونية...

إن مجال التاريخ، هو مجال فعل الارادة البشرية في شروط جغرافية وسياسية وثقافية واقتصادية معينة، وهذا ماينفي تدخل أي قوى غيبية عن التاريخ، كما ينفي عنه أية غايات غير بشرية.

اما حال الصهيوني مع التاريخ فهو على العكس تماماً، إن التاريخ لديه هو تاريخ تدخل الإله(يهوه) كقوة فوق التاريخ تسيره، عندها يغدو تاريخ الشرق العربي تاريخ صراع بين(يهوه) إله اليهود وبين شعوب المنطقة، أو بين اليهود الذين يدعمهم يهوه بوعده الإلهي وبين العرب الذين يعاندون إرادة الإله الذي لاينفك يطلق التهديدات والوعود وإعلان الحرب الخ، عندها تغدو إرادة اليهود تحقيقاً لارادة يهوه.

في النموذج الأول من الخطاب التاريخي الذي يقدمه ابراهيم المسلم، سنجد كل مكونات الخطاب التاريخي الإسطوري. لكنه خطاب شائع، يجد قبولا لدى الكثيرين. صحيح أنه ينتهي بتأكيد عروبة فلسطين في النهاية، لكنه خطاب يؤسس على نفس المرتكزات التوراتية المعروفة تقريباً مع بعض التغيير والمقارنة التالية شاهد على ذلك.

ابراهيم مسلم

١ــخرج ابراهيم فاراً بدينه... تاركاً ارضه... في أور الكلدانية وحطت القافلة في حاران ص١٧

٢ــترك ابراهيم ارض حاران.. سارت القافلة باتجاه نهر الفرات وتأهبوا للعبور وتم العبور بإذن الله... دخل حلب ثم رحل منها إلى دمشق ثم رحل إلى فلسطين... وحطت قافلته في بيت أيل حيث اختار احد المرتفعات من الجبال وأقام خيامه في الجهة الشرقية.ص١٨

٣—جهز ملك مصر جيشاً دخل فلسطين وقاتل ابراهيم وقـومه، وانتهت الحرب في غير صالح ابراهيم وأسرت زوجته سارة... إن الله يأمره بالسفر إلى مصر.ص١٩
٤—وأخيرا حطت القافلة من مصر في بيت أيل.ص٢٠
٥—وبينما هو في سجوده سمع هاتفاً من السماء يقول له:
«ياابراهيم ارفع عينيك إلى السماء وانظـر الى مشارق الأرض ومغاربها لسوف يعطيك الله هذه الأرض ويورثها لذريتك وسيجعل الله في ذريتك النبوة والكتاب»ص٢١

التوراة

١—وأخذ شـارح ابرام ابنـه ولوطـا بن هـاران... فخرجـوا معاً مـن أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك(التكوين ١١—١٢)
٢—وخرجـوا ليذهبـوا إلى أرض كنعان(ابـراهيم ولـوط وساراي) واجتـاز ابرام في الأرض إلى مكان شكيـم إلى بلوطة مـورة... ثم نقل من هنـاك إلى الجبل شرقي بيـت ايل ونصب خيمته التكوين ١٢—١٣
٣—فحدث جوع في الأرض فـانحدر ابرام إلى مصر ليتغرب هنـاك، فحدث لما دخل ابـرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنـة... فـأُخـذت المرأة إلى بيـت فـرعـون. (التكوين ١٢—١٣)
٤—فصعد ابـرام من مصر... وسار في رحـلاته من الجنـوب إلى بيت أيل.(التكـوين ١٢—١٣)
٥—وقال الرب لابرام بعد اعتزال لوط عنه ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي انت فيه شمالاً وجنوبـاً وشرقاً وغرباً، لأن جميـع الأرض التي انت ترى لـك أعطيتها ولنسلك إلى الأبد.(التكوين ١٣—١٤)

حتى قصة انتصار داود على جالوت الكنعاني— الفلسطني الأسطورية التي وردت في التوراة ينقلها السيد مسلم بطريقته الخاصة مع الاحتفاظ بجوهر الاسطورة.

جـاء في التـوراة:«واصطف اسرائيـل والفلسطينيـون صفـاً مقابـل صفـاً. فترك داود الأمتعة التـي معه بيد حافـظ الأمتعة وركض إلى الصف وأتي وسـأل عن سلامة أخـوته، وفيما هو يكلمهم إذ برجل مبارز اسمه جليات دجالوت، الفلسطيني من جت صاعد من صفوف الفلسطينيين... وجميع رجال اسرائيـل لما رأوا الرجل هربوا منه وخـافوا جداً... فقال شـاوول لداود لا تستطيع ان تـذهـب إلى هذا الفلسطيني لتحـاربه لأنك غـلام وهو رجل حرب منذ صباه... وكان لما قام الفلسطيني وذهب وتقدم للقاء داود أن داود أسرع وركض نحو الصف الفلسطيني... فتمكن داود مـن الفلسطيني بالمقلاع والحجر وضرب الفلسطيني وقتلـه، ولم يكن سيف بيـد داود، فركـض داود ووقف مع الفلسطينـي وأخذ سيفه واخرجه من غمده وقتله وقطع به رأسه»(٦٢).

ويقول مسلم «والتقى الجمعان، ودخل الخوف إلى قلب طالوت فلم يجرؤ على مبارزة جالوت قائد الكنعانيين... وكان داود عليه السلام يرعى غنمه، ولم يشترك مع القوم في هذه الحرب، فلما سمع بما حدث من قومه وخور عزيمتهم، فغضب لله وتقدم صفوف المقاتلين ليعلن أنه هو الذي سيبارز جالوت، وللمرة الثانية بدأ القوم يشككون في مقدرة داود على المبارزة، لكن داود بإيمانه بالله وعزيمته الصادقة تقدم وقتل داود جالوت، وانتهى هذا الفصل من ضعف هوان بني اسرائيل، وهُزِمَ الكنعانيون، فإن إيمان داود بنصر الله هو الذي دفعه لقتال هذا الجبار»(٦٣).

طبعاً بعد ذلك يستمر عرض تاريخ اليهود من السبي حتى الاحتلال اليوناني ثم الروماني ثم الفتح الاسلامي وسيادة العرب، الذي يدحض أي حق لليهود في فلسطين.

والوعد الذي قطعه الله لابراهيم بأن يعطيه الأرض ويورثها لذريته، يتحول عند السيد مسلم إلى وعد لابراهيم قبل أن يرزق بذريته،«وإن كان الوعد لولد دون الآخر فإن اسماعيل عليه السلام هو أول أولاد ابراهيم، وحينما انتشر أولاد ابراهيم في الأرض وتفرقوا كان أبناء اسماعيل اكثر حظاً في امتلاك الأرض ومحافظتهم على وصية ابيهم ابراهيم عليه السلام»(٦٤) وبما ان اسماعيل هو جد العرب، فالعرب أحق من أبناء اسحق بأن يرثوا الأرض.

من السهولة أن تقبض على الأسباب التي تقف وراء نموذج كهذا من الوعي او التفكير.

فأغلب العرب، مسلمين كانوا أو مسيحيين وجميع المسلمين يعترفون بالديانة اليهودية كدين سماوي ويقرّون بأن التوراة كتاب الله، مع الإقرار بأنه قد حُرِّفَ في مرحلة تاريخية معينة، وينظرون إلى أنبياء اليهود بوصفهم أنبياء الله، وتبدأ أصلاً سَلسلة الأنبياء من آدم وشيت ونوح وأدريس وابراهيم مروراً بأنبياء اليهود وعيسى وانتهاءً بالرسول العربي الكريم محمد، وكتب التراث العربي الاسلامي تجمع على هذا الأمر، وتكفي العودة لتاريخ الطبري والكامل لابن الأثير وقصص الأنبياء للنيسابوري وغيرها للتأكد من ذلك، استناداً إلى القرآن الكريم.

إن شخصية ابراهيم الخليل وهي شخصية مركزية في تاريخ العرب واليهود من وجهة نظر دينية، عامل توحيد، فابناه اسماعيل واسحق اصل التنوع في الذرية، لكنهما يرتدان في النهاية الى ابراهيم أبي الأنبياء والصلة بين الاسلام وبين الابراهيمية صلة وثيقة — كما يرى مثلا سعد زغلول عبد الحميد — «وتوثيق الصلة بين الاسلام والابراهيمية عن طريق اسماعيل أي العرب المستعربة، كما يصبح ابراهيم أبا للعرب الباقية من العاربة أيضاً عن طريق زوجة اسماعيل الجرهمية، وعن طريق هاجر ام اسماعيل يصبح المصريون أخوالاً للعرب.».

لكن الصلة الأهم في النهاية، تلك التي تربط بين سكان المنطقة برابط الديانة التوحيدية، من وجهة نظر المسلم، التي تبدأ من ابراهيم مروراً بموسى وعيسى وانتهاءً بمحمد(ص) هذه الصلة ذات الطابع الانساني لاتترك مجالاً لأي تعصب قومي على العكس من الصهيوني المعاصر، الذي يرى في العالم أجمع عدوا لليهودية او اليهودي، بعد أن حول اليهودية من دين إلى قومية، وبالتالي حول اسحق ويعقوب«اسرائيل» إلى نبع عرق خاص يحمل من الصفات المتفوقة مالايحمله اي عرق آخر، ويمتلك من الوعود الالهية الخاصة مالاقيض لشعب ان يمتلك، وهذا مايفسر لنا لماذا مازال المسلم يبشر بإسلامه ويفرح عندما يعتنق انسان ما في افريقية أو آسية أو أووربة الاسلام، ولماذا مازال المسيحي يبشر بمسيحيته، وقد اعتنقت شعوب المسيحية في وقت متأخر من القرن التاسع عشر في افريقيا، اما اليهودي فإنه قد انقطع عن التبشير باليهودية بوصفها دين فئة محددة من الناس وامتيازاً لايحق لأحد ان يناله، مع ان اليهودية لم تستمر إلا بوصفها ديناً، وقد دللت التجربة التاريخية ان الوعي الديني، او الاعتناق الديني اكثر قدرة على الحياة من أية أفكار أخرى.

إن العربي المسلم أو المسيحي وهو ينظر إلى اليهودية كدين فإنه عملياً لايناصب اليهود أي عداء بسبب أن ديانتيه، بالأصل تعترفان بسماوية الدين اليهودي ولايجد حرجاً من القول إن بعض من يدينون بالدين اليهودي هم من أصل عربي. عندها يشترك اليهودي العربي مع أبناء جنسه من المسلمين والمسيحيين بالانتماء القومي.

والمؤرخ العربي وهو يضع نصب عينيه دحض الدعاوى الصهيونية فإنه لن ينجو شاء ام أبى من الموقف المتعاطف الذي قد يفسد الحياد المطلوب في دراسة التاريخ، وعندي أن الخطأ الذي يمكن أن يرتكب في هذه الحالة هو الانطلاق مسبقاً من أن مجرد وجود اليهود في مرحلة تاريخية غارقة في القدم، في بعض مناطق فلسطين، يعطي مبرراً للحركة الصهيونية ان تنجب القناعة لدى الآخرين— ولاسيما الأوروبيين— بأن لهم حقاً في فلسطين، وهو لهذا يريد ان ينفي اي وجود لشيء اسمه اليهود أو اليهودية في فلسطين، مع أن المسألة لاترتد أبداً إلى أن اليهود عاشوا في مراحل ماقبل الميلاد في أجزاء من فلسطين أولا.

فوجود اليهود في أجزاء كثيرة من العالم ظاهرة تاريخية لها أسبابها، وهم الآن يعيشون في مناطق منذ فترة زمنية أطول بكثير من الفترة التي يدعون أنهم عاشوها في فلسطين، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، لنفترض ان اليهود قوم من الأقوام السامية التي عاشت في فلسطين فترة من الزمن، فمن ذا القادر الآن على التدليل أن اليهودي الروسي أو الألماني أو الفرنسي أو الزنجي أو الحبشي هو استمرار لهؤلاء اليهود الذين عاشوا في فلسطين في فترة الحضور الكنعاني؟

لاأحد باستطاعته ان ينفي حق المؤرخ في التنقيب في الماضي، فهمّ التاريخ يقوم على دراسة الواقعة الانسانية التي مضت، والتاريخ شأنه شأن العلوم الانسانية والأخرى يعاني من مشكلة الموضوعية والدقة وعرضة للأهداف الايديولوجية.

ولكن لم يشهد التاريخ صراعاً إلى حد يقرر فيه هذا الصراع على الحقائق التاريخية مصير الحاضر.

فالمؤرخون قد يختلفون مثلاً من أيهما أكثر أهمية في تاريخ مصر فرعون أم عبيده... من ذا الذي كتب هذه الوثيقة س أو ص.. حدثت هذه الواقعة ام لم تحدث، هل وجود ابراهيم حقيقة ام لا..الخ أما أن يجري نقاش حول من هو أحق الآن في العيش فلسطين، الشعب العربي الفلسطيني ام اليهودي— الصهيوني الأوروبي الاستعماري، فهذا لغو فارغ لأن عروبة فلسطين حقيقة اسطع من وأقوى من كل أساطير التوراة ومعجزات أنبيائها.

المشكلة هي التالية ولاشيء يثيرها أبداً هناك حركة استعمارية صهيونية —يهودية أوروبية، نجحت —في مرحلة الاستعمار الأوروبي إلى المنطقة— في احتلال بلد عربي كل سكانه الأصليين عرب بالمعنى الدقيق للكلمة، وطردت وشردت شعبه وأقامت دولة غريبة الوجه واليد واللسان في قلب المشرق العربي، ومازال وجودها مرتبطاً بالدول الاستعمارية القديمة والحديثة ولم يمر من هذه المشكلة حتى الآن اكثر من أربعين عاما.

حق الشعب العربي الفلسطيني وحق العرب يقوم على زوال هذه الدولة كبقية من بقايا الاستعمار الأوروبي في المنطقة. هذه هي الحقيقة الساطعة التي يخفيها العجز العربي والتخلف العربي والتبعية العربية والحضور الاستعماري الجديد في المنطقة.

كيف السبيل إلى إزالة الاستعمار الصهيوني—اليهودي؟ هذا هو السؤال الذي يتطلب اجابة عملية ونظرية وكل ماعدا ذلك يعني الدخول في جدل سفسطائي، والدوران حول المشكلة.

الهوامش:

١—جورجي كنعان، وثيقة الثيهودية في العهد القديم دمشق ١٩٧٧ ص٧
٢—جورجي كنعان مصدر سابق، ص٢١
٣—جورجي كنعان، مصدر سابق ،ص٢١
٤—جورجي كنعان ، مصدر سابق ،ص٢٢
٥— جورجي كنعان، مصدر سابق، ص١٠١
٦—هانيء الهندي، محسن ابراهيم«اسرائيل» فكرة... حركة... دولة، دمشق، ١٩٥٨،ص٣٠.
٧—هانيء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق، ص٣٠
٨—هانيء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق،ص٣١
٩—هانيء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق ،ص٩٤
١٠—هانيء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق، ص٩٤
١١—هانيء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق، ص١٠٦—١٠٧
١٢—س. ناجي، المفسدون في الأرض، دمشق ١٩٧٣ ،ط٢،ص١١٠
١٣—من الفكر الصهيوني المعاصر، بيروت ١٩٦٨ ،ص٣٣.
١٤—من الفكر الصهيوني المعاصر، ص٣٦—٣٧
١٥—من الفكر الصهيوني المعاصر، ص٣٩
١٦—من الفكر الصهيوني المعاصر، ص٤٠
١٧— من الفكر الصهيوني المعاصر ص٤١
١٨—من الفكر الصهيوني المعاصر ،ص٤١
١٩—من الفكر الصهيوني المعاصر، ص٤١
٢٠—من ا الفكر الصهيوني المعاصر ،ص٤٢
٢١—من الفكر الصهيوني المعاصر،ص٤٣
٢٢—من الفكر الصهيوني المعاصر،ص٤٥ ـ٤٦ ـ٤٧ ـ٤٨ـ٤٩
٢٣—د. رشاد عبد الله الشامي، الشخصية اليهودية الاسرائيلية والروح العدوانية، سلسلة عالم المعرفة، العدد١٠٢ الكويت، حزيران ١٩٨٦ ،ص٢٨
٢٤—رشاد عبد الله الشامي، مصدر سابق ،ص٢٨ـ٢٩
٢٥—رشاد عبد الله الشامي، مصدر سابق، ص٢٩
٢٦—جورجي كنعان، العنصرية اليهودية، بيروت ١٩٨٣ ،ص٢٩
٢٧—جورجي كنعان، المصدر السابق، ص٣٥

٢٨—ندرة اليازجي، رد على التوراة، ص١٥٣ـ١٥٥
٢٩—ندرة اليازجي، مصدر سابق، ص١٧٥ـ١٧٦
٣٠—ندرة اليازجي، مصدر سابق، ص١٨٨
٣١—ندرة اليازجي، مصدر سابق،ص١٩٦
٣٢—يوري ايفانوف، احذروا الصهيونية ، موسكو ١٩٦٨،ص١٢
٣٣—الفكرة الصهيونية ، النصوص الأساسية بيروت ١٩٧٠،ص١٠ـ١١
٣٤—الفكرة الصهيونية، مصدر سابق، ص٥٥
٣٥—الفكرة الصهيونية، مصدر سابق، ص٥٦
٣٦—من الفكر الصهيوني المعاصر، ص٣٣
٣٧—١٤شيمون بيرس، يوم قريب ويوم بعيد(من الفكر الصهيوني المعاصر) ص١٣٧
٣٨— شرجا غافني، السلام الاسرائيلي من كتاب«الصهيونية فكراً وهدفاً وممارسة»و منشورات الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية ١٩٧٥،ص١٧٦
٣٩—ابراهيم المسلم، لمحات من القضية الفلسطينية ودورالملك عبد العزيز آل سعود، الرياض ١٩٨٥،ص١٦
٤٠—لمحات من القضية الفلسطينية ص١٧ـ١٨
٤١—لمحات من القضية الفلسطينية، ص١٩ـ١٠
٤٢—لمحات من القضية الفلسطينية ،ص٢٣
٤٣—لمحات من القضية الفلسطينية،ص٢٧ـ٢٨
٤٤—لمحات من القضية الفلسطينية ص٣٠
٤٥—لمحات من القضية الفلسطينية،ص٣١
٤٦—لمحات من القضية الفلسطينية، ص٣٢
٤٧—انظر الدكتور احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، دمشق، بلا تاريخ، الطبعة السادسة .ص٤٦
٤٨—احمد سوسة،المصدر السابق، ص٦٤
٤٩— احمد سوسة، المصدر السابق، ص٦٥—٦٦
٥٠—احمد سوسة المصدر السابق، ص٦٦ـ٦٧
٥١—احمد سوسة، المصدر السابق، ص٦٧
٥٢— احمد سوسة، المصدر السابق ،ص٥٩١
٥٣—احمد سوسة، المصدر السابق،ص٦١٥
٥٤—يوسف سامي اليوسف، تاريخ فلسطين عبر العصور، دمشق ١٩٨٨،ص٥ـ٦

٥٥—يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق،ص٨ـ٩
٥٦—يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق ،ص٥٠
٥٧—يوسف سامي اليوسف ، المصدر السابق، ص٥١
٥٨—يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق، ص٥١
٥٩—يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق ص٥٣
٦٠—يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق،ص٥٦
٦١—يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق، ص٦١ـ٦٢
٦٢— الكتاب المقدس، ٤٥٥ـ٤٥٧
٦٣—ابراهيم المسلم، المصدر السابق،ص٢٩ـ٣٠
٦٤—ابراهيم المسلم، المصدر السابق، ص٣٦.

قراءة في كتاب

جغرافية باطلة وتاريخ صحيح؟!

● محمد محفل
رئيس التحرير

في سلسلة الكتب السائرة في ركاب «التوراة جاءت من جزيرة العرب»(١)، للدكتور كمال صليبي، الصادر منذ عشر سنوات تقريباً، راجعنا كتاب(جغرافية التوراة«مصر وبنو اسرائيل في عسير») الصادر عن دار (رياض الريّس للكتب والنشر، لندن، كانون الثاني ١٩٩٤) للاستاذ زياد منى. ولم نكد ننهي مراجعته، لنفاجأ بكتاب آخر بعنوان «التوراة العربية وأورشليم اليمنية» ، للاستاذ، فرج الله صالح ديب. الصادر في بيروت، كانون الثاني ١٩٩٤، عن دار نوفل.

ولايختلف هذان الكتابان الاخيران بموضوعها، عما سبقها إليه كمال صليبي، سوى بوقوع الكاتبين في أخطاء منهجية وجغرافية وتاريخية، اجتنبها الدكتور كمال صليبي، وكأننا أمام معيدين يكررون درس أستاذهم، دون أن يرقوا إلى مستواه.

نتناول في دراستنا هذه، لكتاب«جغرافية التوراة(مصر وبنو اسرائيل في عسير») مسألتين:

الاولى: في المنهج.

الثانية: الوثائق والشواهد التاريخية والآثارية المتعلقة بالمشرق العربي القديم(*) (لاسيما فلسطين) وتوافقها أو مخالفتها نظرية كمال صليبي وأشياعه وفي عدادهم زياد منى، صاحب كتاب(جغرافية التوراة«مصر وبنو اسرائيل في عسير»).

(*) لانجد هذا المصطلح الجغرافي/ التاريخي في الوثائق العتيقة، بل اشاعه الكتّاب العرب المسلمون القدماء للاشارة إلى العراق وبلاد الشام ومصر، في حين قالوا(المغرب مشيرين بذلك إلى شمال أفريقية والاندلس(م.م)

أولاً: في المنهج:

١ — يقول زياد منى: «يتناول الموضوع الرئيسي لهذا العمل بعض قضايا ومعضلات جغرافية مرتبطة بالعهد القديم (المقصود بذلك التوراة م. م.)، علماً بأن هذا الفرع من الابحاث التوراتية يندرج علمياً ضمن اطار ماأتفق على تسميته بـ«جغرافية التوراة» ... أما العهد القديم نفسه هو عبارة عن مجموعة من النصوص المتباينة في قدمها عن تاريخ بني اسرائيل... ومن البديهي ان هذا التاريخ قد جرى في مكان محدد، يقول الرأي التقليدي: انه المنطقة الواقعة على أراضي القطرين المصري والعراقي، أي مابين نهري النيل والفرات... ويطلق علماء التوراة مصطلح«أرض التوراة» على البقعة الجغرافية التي يعتقدون أن أحداث الكتاب المقدس لليهودية والمسيحية قد جرت عليها... اذن، اسهامي هذا يندرج في اطار التهذيب العلمي لجغرافية التوراة المشار إليه آنفاً، ويرتكز بالطبع في المقام الأول على موضوعة الاستاذ صليبي ... لكني عملت قدر الامكان على حصر بحثي ضمن اطار الجغرافيا، باحثاً من خلالها على بعض الجوانب المجهولة من تاريخ جزيرة العرب، أو التي غرقت في النسيان، وليس أكثر من هذا(جغرافية التوراة ص ١٥ ومابعدها).

ثم يتعرض الكاتب لدراسات علماء التاريخ الذين أصبحوا، في رأي كاتبنا، في حيرة من أمرهم، لان التنقيبات والدراسات الآثارية لم تدعم وجهة نظرهم القائلة ان بلاد الشام ومن ضمنها فلسطين ومصر وبلاد الرافدين هي مسرح الوقائع، مهملين منطقة عسير في شبه الجزيرة العربية.

ويقول حرفياً: «لانه بعد أكثر من قرن من التنقيب الأثري المبرمج الذي قلب أرض فلسطين رأسا على عقب، ولم يعثر على أي لُقى أثرية(*) ثابتة تدعم اراءهم» ثم يتابع في الصفحة التالية:«رغم كافة القناعات والقناعات المتجددة، بقي هاجس غياب الدليل الأثري الحاسم يلاحق كتابات وتحليلات أصحاب المنهجية التقليدية وفهمهم الجغرافي... وقد يرى أحدهم أن التوراة ليست المرجع الذي يصح اعتماده للبحث في تاريخ بني اسرائيل وبعض جوانب تاريخ جزيرة العرب، لذا أسجل هنا ان هذا العمل لايناقش صحة أو خطأ تاريخية بعض الروايات الواردة في العهد القديم، فكل مايعالجه هو المكان الذي ينقل الكتاب المقدس لليهودية ان أحداثه قد وقعت ضمنه، أما منطلقي فهو فرضية صحة التاريخ بعموميته وخطأ الجغرافيا. (ص ١٧ ومابعدها).

يسترعي انتباهنا فيما جاء أعلاه، مايلي:

أ — عسير في شبه الجزيرة العربية هي مسرح التاريخ التوراتي.

---

*يقول بعضهم أثري ونعتقد أن كلمة (آثاري) تفيد المعنى بشكل أفضل نسبة لعلم (الآثار) ولانقول علم (الأثر) (م.م)

ب— لم يعثر علماء الآثار على أي دليل مادي في فلسطين يدعم المسلمات التاريخية«الفلسطينية» ومن هنا حيرة علماء التاريخ.

ج—الوقائع التوراتية صحيحة تاريخياً وباطلة جغرافياً.

قبل أن نرد على منطلقات كاتبنا علمياً، في النقطة الثانية بالدلائل والشواهد والمسلمات التاريخية والآثارية والنصية، نود طرح بعض الاسئلة المباشرة، المتعلقة بالنظرية والتطبيق.

أ) فبالنسبة لعسير وفلسطين، فان أسقطنا فلسطين (المحتلة) من حسابنا، فتحنا الباب على مصراعيه، أمام دعاويهم الاسطورية الباطلة، للتسلل إلى قلب الجزيرة العربية، بعد اغتصابهم فلسطين.

ب) ليس صحيحا، ان علماء الاثار لم يعثروا حتى الآن على أي دليل مادي في فلسطين، يدعم المسلمات التاريخية«الفلسطينية».

ان كاتبنا من أصحاب«لاتقربوا الصلاة». أما «وأنتم سكارى» فتجاهلها ولم تخطر بباله. وهنا نتفق معه تماما بأن علماء الآثار «لم يعثروا على أي دليل... » اسرائيلي قديم أو يهودي يضاهي مئات الأدلة الكنعانية من لقى وأسوار مدن وقنوات سقاية وري وأدوات منزلية الخ... في عشرات المواقع الآثارية الكبرى اضافة لمئات أخرى أقل أهمية، والتعليل المنطقي البسيط هو أن الاسرائيليين القدماء ولاأقول عبرانيين ولغة عبرية(*) كما يحلو لكاتبنا تكراره، نقول أن أولئك الاسرائيليين القدماء لم يكونوا سوى جماعات من البدو الرعاة أمام حضارة ترقى بأصولها إلى الالف الرابع(ق. م)، حينما راحوا يتسللون تدريجياً إلى الأراضي الفلسطينية، اعتباراً من القرن الثالث عشر(ق.م) —ان سلمنا جدلاً بتقويم المدرسة التوراتية— من فترة يشوع وحتى عصر سليمان، الذي استعان بملك صور (حيرام) لبناء هيكله، لجهل عشيرته بأمور الحدادة والبناء الخ...(٢) وأين هذا الطراز الكنعاني في البناء الحصين لأسوار المدن والقلاع الماثل للعيان منذ القديم، في مختلف بقاع بلاد الشام: السورية/ اللبنانية/ الفلسطينية، والظاهر للعيان بشكل رائع في أوغاريت وغيرها من المواقع الأثرية في ربوعنا، أنجد لذلك مثيلاً في عسير؟!

ج) وثالثة الأثافي هي التسليم بزعم، ان الروايات التوراتية صحيحة **بعموميتها ويكفينا ان ننقل جغرافيتها إلى قلب الجزيرة العربية، ليستقيم الأمر**.(الاشارة من عندنا)

حقاً، نحن في حيرة من أمرنا، وماعلينا إلا أن نقارن بين مقطعين وردا في صفحتين مجاورتين، من كتاب مؤلف «جغرافية ا لتوراة» لندرك مدى التناقض الواضح في منطق الأستاذ زياد منى.

---

*لانجد مطلقاً عبارة «لغة عبرية» في أي سفر من أسفار التوراة. (م.م).

جاء في (الصفحة ١٥) : « أما العهد القديم نفسه، فهو عبارة عن مجموعة من النصوص المتباينة في قدمها عن تاريخ بني اسرائيل، والتي تنقل بالاضافة إلى الخرافات والأساطير والتاريخ، كتابات وأحكاماً دينية تأملية نسكية».

وبالنسبة لصحة روايات التوراة أو عدمها، فيقول كاتبنافي (الصفحة١٨) :« ... أما منطلقي فهو فرضية صحة التاريخ بعموميته وخطأ الجغرافيا».

وطبعا، المقصود هنا صحة الروايات التوراتية تاريخياً، مع خطأ جغرافيتها الفلسطينية... وهنا، لابد من طرح السؤال المشروع التالي: أيّ من القولين يجب اعتماده؟ وكيف نوفق بين طرفي المعادلة:

صحة تاريخ نص ——— مفعم بالاساطير والخرافات.

لن ندخل في جدل عقيم حول روايات وأخبار مختلف الاسفار التوراتية وتاريخ كتابة تلك الاسفار ومن شارك في انشائها، الخ... فهذا ليس قصدنا ولايتسع المجال هنا لذلك، ولكن، لنضع القارىء في الصورة، لابد من توضيح بعض جوانب الموضوع، فالنسخة التوراتية الموجودة حالياً بين أيدينا، مأخوذه عن المخطوطة الماسورية،(٣) التي أعدتها جماعة من اليهود في طبرية—بتأثير من الكتابتين العربية والسريانية— من القرن السادس إلى القرن العاشر للميلاد، عندما قام هؤلاء بوضع النقاط والحركات لضبط النص الأصلي، فثبتوا بذلك الألفاظ ووحدوا قراءتها. وأقدم مخطوطة كاملة للتوراة بالقلم الآرامي المربع تعود الى القرن العاشر للميلاد ونعرف منها نسختين: الأولى كانت في كنيس في حلب، ثم اختفت، أما الثانية، فلا تزال في متحف لننغراد(سان بترسبورغ)(٤). كما وجدت عدة ترجمات للتوراة، قبل النسخة الماسورية وبعدها اعتباراً من القرن الثالث (ق.م) وحتى القرن التاسع عشر، بمختلف اللغات: من يونانية (السبعينية) وسريانية (البشيطا/ البسيطة) ولاتينية(الوجاتا/ الشعبية) وعربية وأوربية. وقد يختلف عدد الأسفار من ترجمة لاخرى، فبعضها مثلاً يشتمل على بعض الأسفار القصصية والتاريخية، تعتبر غير شرعية ، ولانجدها في النسخة المعتبرة شرعية لدى الأحبار اليهود. وطبعاً لدينا أيضا التوراة السامرية، التي لاتضم سوى الأسفار الخمسة الأولى، المنسوبة في رأيهم للنبي موسى، وهي: التكوين والخروج واللاويين(الاحبار)، والعدد وتثنية الاشتراع، إضافة لسفر يشوع في بعض النسخ القديمة.

ونكرر قائلين: لسنا بصدد دراسة نقدية لأسفار التوراة، ان في الشكل أو المضمون، وان كان لنا عودة حول استعمال كاتبنا لكلمة«اللغة العبرية». وفي الواقع، لانهدف من مطالعتنا هذه سوى الرد على أولئك الذين خلطوا الأوراق وأشاعوا البلبلة في الأذهان، ولاندري، ألم يرغمنا تحليل محتوى الكتاب (جغرافية التوراة..) على اعتبار كاتبنا في عدادهم، وسيبدو هذا الأمر جلياً واضحاً، عندما نعرض لبعض الوثائق التاريخية الآثارية التي أهملها كاتبنا، على غرار كمال صليبي، وفيما بعد فرج الله صالح ديب.

وهكذا، فنحن أمام نص توراتي — النسخة الماسورية — وقد اعترف الثلاثة: صليبي/ زياد منى/ فرج الله صالح ديب، بأنهم اعتمدوه، مع تعديل طفيف، والحالة هذه، فنحن أمام نص تاريخي صحيح بعموميته — في رأيهم — وماعلينا سوى أن نقوم بعمليات قلب واستبدال لأسماء الأشخاص والمواقع، بين «عبرية النص التوراتي» واللغة العربية، فنصحح المسار ويصبح الأمر واضحاً، عندما ننقل مسرح التاريخ التوراتي من فلسطين الى عسير، في شبه الجزيرة العربية، وهذا هو منهجهم باختصار.

أما منهجنا، فيختلف عنهم كل الاختلاف. فنحن أمام نص توراتي مليء بالخرافات والأساطير، اضافةً لوقائع تاريخية أو شبه تاريخية، مع بعض الأحكام الدينية والقانونية والتشريعية، الخ.......

ولايمكن فهم وادراك وتفسير هذا كله، إلا في سياقه التاريخي العام وفي ضوء دراسات مقارنة، واضعين نصب أعيننا دراسات مختلف العلوم المساعدة للتاريخ، ودون أن نسقط من حسابنا مختلف وثائق حضاراتنا القديمة من مصرية ورافدية وكنعانية وآرامية الخ... وقبل ان ننتقل إلى النقطة الثانية عسى أن يجيبونا عما يلي: ان كنتم تعتقدون ان عسير وماجاورها هي المسرح الجغرافي الواقعي للعالم التوراتي، فأين هي الكتابات والنقوش اليمنية القديمة، المتعلقة بتاريخ شبه الجزيرة العربية، في قسمها الجنوبي الغربي، مع عسير الى الشمال، وكلها بالقلم المسند، بأشكاله المختلفة، وقد أصبحت هذه الكتابات والنقوش معروفة عالمياً في الأوساط العلمية، وتقدر حالياً بالمئات والألوف وهي، مع علم الآثار، الفيصل العلمي في موضوع كهذا. ومع أن تفسير هذه الكتابات والنقوش مازال محدوداً، فقراءتها أصبحت معروفة جزئياً، ومع ذلك فقد أهملتموها لصالح نص «توراتي» أقحمتموه في جغرافية عسير وجيزان وغيرها من ربوع جنوب غربي شبه الجزيرة العربية(٥).

ثم، مامعنى هذه الطريقة المبتكرة في غياب الاشارة الى المصادر والمراجع. فباستثناء كمال صليبي الذي ذكر بعضاً منها، فوجئنا بأسلوب مبتكر غامض، ولنذكر بعض نماذجه:

في الصفحة ١٦: «...هذه المنهجية جعلت الكثير من العلماء في حيرة من أمرهم..» من هم هؤلاء العلماء، وماهي مصادركم حول ذلك؟!

في الصفحة١٧: «..فاتحةً بذلك مجالات جديدة أمام اتجاه ثالث رأى أن المنهاج العلمي الوحيد في صحته يجب أن نبحث عن تلك التجربة في حضارات جزيرة العرب الجنوبية..» حقاً من هم ممثلو هذا الاتجاه من العلماء؟!

في الصفحة ٢٥: «يتفق أهل الاختصاص من علماء التوراة أن أسفار العهد القديم جُمعت وكُتبت عبر قرون عديدة اعتماداً على مصادر مختلفة تُعرف في هذا العلم باسم التقاليد، كما أن التيار الرئيسي بين العلماء يرى أن أقدم تلك النصوص يعود إلى القرن العاشر قبل الميلاد».

من هم المعنيون وأين جاءت هذه الأقوال؟! علماً أن الجميع متفقون حالياً على أن أقدم وثائق لها علاقة بالأسفار التوراتية عُثر عليها بالقرب من البحر الميت، في خربة قُمران(*) ولاتشكل هذه الوثائق سوى(٤٪) من أسفار التوراة، ومع أن الاختصاصين اختلفوا حول أصولها وتاريخها المطلق، فقد أجمعت أغلبيتهم على أن تاريخ أقدم مخطوطة لايرتقي إلى ماهو أقدم من عام (١٥٠ق.م).

في الصفحة ٣٠:«..لقد أدرك العديد من أهل الاختصاص أهمية اعطاء الانتباه اللازم لهذه الحالة اللغوية، وأفردوا لها العديد من المؤلفات».

من هم هؤلاء«أهل الاختصاص» وأين هي هذه المؤلفات؟!

في الصفحة ٤٧:«كما أشار المؤرخون الرومان، وبمعلومات عابرة إلى شخصية اسطورية؟ خرافية؟ باسم Nectanabus تمكنت في عصور سحيقة من اخضاع العرب..»

من هم هؤلاء؟ وأين ورد هذا القول؟!

في الصفحة ٧٠:«وفي عملية بحثي قمت بقراءة الأسماء الواردة في النقوش المصرية بالأحرف الساكنة، مهملاً كافة التحريكات المقترحة من قبل أهل الاختصاص..»

هكذا نقبل رأي أهل الاختصاص ان وافقنا وإلا اسقطناه دون تردد.

في الصفحة ١٠٣:« لكن هذا الافتراض غير جائز لأن أهل الاختصاص يشددون على أن مصر لم تكن من الشعوب السامية وتوصف بأنها حامية..»

ولكن من هم أهل الاختصاص هذه المرة؟ فلنقرأ ماجاء في (سفر التكوين، الاصحاح العاشر الفقرة٦):

«وبنو حام كوش ومصرائيم وفوط وكنعان..» وسؤالنا: هل أهل اختصاصكم هم دائماً من هذا النموذج التوراتي؟!

في الصفحة ١٠٥:«أما مسألة كنعان، فلابد أن المقصود بهم أيضاً هم بعض من شعوب جنوبي جزيرة العرب وليس فينيقيي بلاد الشام.. أما مسألة كنعان فهي معقدة، وسأتجنب الخوض فيها في هذا المؤلف».

---

*حيث عثر في عين الفشخة ، شمالي غرب البحر الميت، في خربة قمران على مخطوطات بالخط الآرامي المربع وذلك اعتباراً من عام ١٩٤٧. وتعود هذه المخطوطات لفرقة يهودية نسكية ، مازال أمرها موضوع دراسة الباحثين .انظر على سبيل المثال

A. Dupont- Sommer, Les Ecrits Esséniens Découverts près de La Mer Morte, Payot, Paris, 1960.

حيث نجد دارسة شاملة لمخطوطات قمران، ويُعتبر دوبون سومر من كبار الباحثين في مجال الدراسات الآرامية / التوراتية.

نقول لصاحبنا بكل تواضع: أن مسألة كنعان ليست بهذا التعقيد كما تزعمون، ولقد نشرنا حول الموضوع دراسة تمهيدية، في عام ١٩٧٢ بعنوان «بلاد كنعان والاسرائيليون القدماء» في مجلة (صوت فلسطين، العدد ٥٠، ١٩٧٢، ص ص ١٧—٣٤) حيث رأينا أن تسمية «كنعان» ظلت سائدة لدى السكان المحليين حتى الفترة المسيحية الأولى، بينما اسم «فينيقيين» ذاع في المؤلفات اليونانية مشيراً إلى الكنعانيين (ص ٢٨—٢٩). وقد عُثر على قطعة نقد من العصر السلوقي، القرن الثاني قبل الميلاد منقوش عليها على الوجه الأول. باللغة الكنعانية «لاذقية التي في كنعان» (*)، وعلى الوجه الثاني باللغة اليونانية «لاذقية» (**) التي في فينيقية. وأطلق اسم لاذقية على بيروت في العصر السلوقي الهلنستي. فماذا يعني ذلك؟! الاغريق هم الذي أطلقوا اسم «فينيقيين» على كنعانيي بلاد الشام الساحلية، وقد استشهد كمال صليبي بهذا، في كتابه (**التوراة جاءت من جزيرة العرب** الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ص ٣٣): «.. وكون فينيقيا قد سميت كنعان من قبل سكانها أنفسهم أمر معروف من خلال قطعة نقد هيلينية (الصحيح سلوقية/ هلنستية وليس هيلينية م.م) من بيروت تصف هذه المدينة بأنها «في كنعان» (بـ—كنْعَن)، وبالاغريقية بأنها في «فينيقيا».

كما رَأينا أعلاه، يلجأ الكاتب إلى الاسلوب المعمى في استشهاده، كأن يقول «أهل الاختصاص، جاء في المصادر، الخ..» ولكن من هم أهل الاختصاص هؤلاء، وماهي هذه المصادر، فالله أعلم، علماً أنه وضح الأمر في احدى المرات، عندما أشار الى نص توراتي أسطوري، لاعلاقة له بالعلم التاريخي، لامن قريب ولامن بعيد (٦).

ونأتي الآن الى **النقطة الثانية**، المتعلقة بالوثائق والشواهد التاريخية والآثارية والنصية ولابد من الاجابة عن بعض الاسئلة، ولامجال هنا لاجتهادات لغوية عقيمة أمام براهين وأدلة أقر بها القاصي والداني.

---

*جاء في النقش حرفيا «...بكنْعَن»

**نسبة إلى والدة سلوقس (لاوديكة) ونجد عدة مدن «سلوقية» باسمه وأفامية (نسبة لزوجته ايباما) وكذلك مدن «انطاكية» الخ..

ولنأخذ بعض النماذج المصرية:

١—نص من المملكة الوسطى، أمر بنقشه أحد قواد الفرعون(سنوسرة الثالث(*) ١٨٧٨—١٨٤٣ق.م) وهو عبارة عن نصب حجري عثر عليه غربي حوض النيل في أبيدوس، شمالي وادي الملوك، في مصر الوسطى، وجاء على لسان القائد العسكري(سوبك خو): «توجه جلالته نحو الشمال لقهر الأعداء فوصل إلى منطقة غريبة اسمها شكْمم (شخم(**)التوراتية، **سفر التكوين، ١٨:٣٣، ٣٤**) وأنجز جلالته عملاً بطولياً وسَقطَت شَكْمَم وكذلك بلاد الرتنو التعسة..»(٧) كما يقول النص: شمالاً، نحو بلاد الشام الجنوبيةَ، ومن ضمنها فلسطين ولم يأت على ذكر الجنوب والشرق، نحو عسير، عبر البحر الأحمر، وشخم كلمة كنعانية وليست عبرية، ونحن نعرف أنها بلدة عريقة في القدم وكشف التنقيب عن هيكل(بعل بريث/ رب العهد) الكنعاني وكذلك عن الأسوار الكنعانية القديمة، بمرضومها السكلوبي (حجارة مرصوفة بلا ملاط ولارباط) وشكمم / شخم هي شكيم بالقرب من نابلس المعاصرة، ولاعلاقة لها لامن قريب ولامن بعيد بَعَسير وجيزان.

أما بلاد الرتنو، فهي باجماع علماء التاريخ والآثار، بلاد الشام الجنوبية، وعلينا أن لاننسى ماعثر عليه في السنوات الماضية، في (ابلا/ تل مرديخ من لقى أثرية مصرية، أكثر قدماً).

٢—حملات الفرعون(تحوتمس الثالث(***) (١٤٩٠—١٤٣٦ق.م) على بلاد الشام، مع النص الطويل المنقوش على جدران الكرنك، الذي يروي بالتفصيل أخبار تلك الحملات من مجدو(****) إلى نهارينا(*****)، مع قطنا ومتياني الخ...

٣—رسائل تل العمارنة، أي المراسلات بين الفرعونين(أمنحوتب الثالث ١٤٠٥—١٣٦٧ق.م وخليفته أمنحوتب الرابع / اخناتون ١٣٦٧—١٣٥٠ق.م)

---

*واسمه باليونانية سِسُوسْتُويس كما ذكر هرودوتس (التواريخ ٢، ١٠٢الخ..) وفيما بعد لدى غيره من الكتاب اليونانيين.

**وتعني كتف، وفي الواقع تقع عند سفح جبل جزريم ، بالقرب من نابلس،

***لم يستلم الحكم بمفرده إلا في عام ١٤٦٨ق.م بعد صراعه المرير مع الملكة حتشبسوت لمدة ٢٢سنة ، قبل ان يلحق بها الهزيمة.

****حيث يقع (تل المتسلّم) حالياً ، على بعد حوالي ٣٠كم جنوبي شرق حيفا وكشف التنقيب عن عدة طبقات أثرية وعن سرداب شق في الصخر ويصل الى نبع ماء، كدليل على مهارة الكنعانيين الهندسية . كما أكتشفت نقوش على قطع عاجية ترجع إلى القرن الرابع عشر ق.م. تبرز مهارة الكنعانيين وحضارتهم.

*****المقصود حوض الفرات السوري، شمالي دير الزور مع المنطقة الواقعة حول حوضي الخابور والبليخ بل وحتى الساجور.

٤ــحملات الفرعون(رعمسيس الثاني ١٢٩٠ــ١٢٢٤ق.م) واصطدامه مع الحثيين،ولاسيما في معركة قادش (تل النبي مَنْد/ مَنْتُو/ مَندو؟) جنوبي بحيرة حمص(قطينة)، عام ١٢٨٦ ، والتي خلّدها المصريون على لوحة مثبتة أمام جدار في معبد الكرنك المصري، وكما يقول(سير ألن جارنر)(٨):«...أما النص الحثي فهو أقل كمالاً وقد عثر عليه منقوشاً على لوحين من الطين مكتوباً بالبابلية الاسفينية (المسمارية م.م) وهو ليس نسخة طبق الأصل ولكنه يتضمن الى حد كبير عبارات وتعبيرات متماثلة، وهو أمر هام، لأنه يؤكد دقةعمل اللغويين في حقلين متباعدين من الدراسة».

واضافة لذلك، لدينا نصب ذلك الفرعون عند مصب نهر الكلب، بين بيروت وجونية، فهل نهر الكلب هذا يقع في عسير؟!... ونعلم انه تم الكشف في نفس الموقع عن ثلاثة أنصاب تذكارية أخرى محطمة، ذات صلة بموضوعنا.

٥ــحملات الفرعون (سيتي الأول ١٣٠٦ــ١٢٩٠) على فلسطين، حيث تم العثور في موقع تل الحصى بالقرب من (بيت شان/ بيسان)، على لوحة في معبدها الكنعاني، ذُكر عليها أخبار حملة الفرعون على بعض أنحاء فلسطين وغيرها من بلاد الشام الوسطى(بيت رحوب/ تل القاضي، بيت شائيل، بحل(فحل)، حماة الخ..) . وهذ النص دليل مزدوج (نصي وآثاري) ميداني، يذكر بعض المواقع في بلاد الشام، وأية«بهلوانية لغوية» مقلوبة، لن تعطينا جواباً مقنعاً، مع وجود النصب في فلسطين أصلاً.

هذا غيض من فيض بالنسبة للوثائق المصرية، ولامجال في عجالتنا لأكثر من ذلك.

ونأتي الآن إلى الوثائق الآشورية، التي تتقاطع مع الروايات التوراتية، لتشير إلى بلاد الشام بصورة قاطعة جازمة:

١ــحملات (شُلْمَنْأسرَ الثالث ٨٥٨ــ٨٢٤ق.م) الآشوري ومن أهمها(معركة قرقر) عام ٨٥٣(ق.م). وتقع قرقر جنوبي بلدة جسر الشغور الحالية، غربي نهر العاصي، ونجد صدى لاسم الموقع في تل قرقور، الواقع في نفس المنطقة، نقرأ في لوائح هذا الملك أخبار هذه الحملة وكيف عبر نهر دجلة ثم نهر الفرات، في ذروة فيضانه على أطواف من جلد الماعز، ثم وصل الى منطقة نهر الساجور، حيث تلقى الجزية من ملوك (كركميش/ جرابلس حالياً)، ثم تقدم نحو حلب وتلقى الجزية وقدم قرباناً الى «حدد» اله حلب، ومن حلب اتجه نحو حماة ومنها إلى موقع قرقر، حيث احتشد الحلف الآرامي الأكبر.(٩). وضم هذا الحلف عدة ملوك آراميين ومعهم جنديبو العربي وغيرهم. ومن الملوك الآراميين الذي جاء ذكرهم في الوثيقة الآشورية ملك حماة الآرامية (يرخوليني)، وقدم تمَ العثور على عدة وثائق في مواقع قريبة من حماة وتابعة لمملكتها مثل(محردة وقلعة المضيق والرستن، تذكر اسم (يرخوليني، الذي بنى معبداً للربة بعلاتي(١٠).

من جديد مارأي أصحاب نظرية «عسير»؟! . فحماة المذكورة هي على العاصي وليست في عسير.

٢—ونأتي إلى الملك الآشوري «تغلاث فلاسر الثالث» (٧٤٤—٧٢٧ق.م) ولدينا نص يذكر أسماء الملوك الذين أرسلوا الجزية إلى ملك آشور، فاضافة الى (منحيم، ملك السامرة و (حيرام، ملك صور) الخ.. نجد (بنامو ، ملك شمأل)، وشمأل هي عاصمة مملكة (يادي الآرامية)، حيث يقوم حالياً (تل زنشرلي/ زنجرلي) على السفح الشرقي لجبال الأمانوس، قرب منابع (نهر الأسود/ قراصو)، ولقد عثر علماء الآثار في الموقع على عدد من النصوص الآرامية التي تأتي على ذكر (بنامو، ملك شمأل).

كما أن هاتين الروايتين تتقاطعان أحياناً مع مانجده في التوراة (**سفر الملوك الثاني** الاصحاح ١٥، الفقرة ٢٧—٣٠).

ولو أردنا أن نتابع لذكرنا عشرات الأمثلة شبيهة بما ذكرناه آنفاً.

ونكرر قولنا: ان كانت مختلف الوثائق والسجلات التي ذكرناها أعلاه لاعلاقة لها بجغرافية بلاد الشام ومن ضمنها فلسطين، بل ترتبط بعسير في شبه الجزيرة العربية، فأين تلك المتعلقة بسورية؟!. ثم ان كان الكنعانيون والآراميون وغيرهم ممن ورد ذكرهم في السجلات القديمة، لم يسكنوا ربوعنا، بل عاشوا في عسير، والى جانبهم الاسرائيليون القدماء، فمن سكن بلادنا في الألفين الثاني والأول (ق.م)؟! ...أم كانت ربوعنا مهجورة ومتروكةً للسباع والبهائم؟!...

—الملاحظات المعرفية البحتة—

جاء في الصفحة ١٨: «...كان عبارة عن تحالف أو تجمع لقبائل أو عشائر ناطقة بلهجة كنعانية تسمى حالياً بالعبرية، رغم أن المصطلح الأخير لا يرد في التوراة لتعريف لغة بني اسرائيل، لكن بغياب بديل علمي مقبول رأيت عدم امكانية تجنب توظيفه».

هذا غير صحيح البتة، وكم من باحث يعمل في هذا الميدان يقول دون أي تردد «اللغة التوراتية» ولاندري، لماذا أصبح البعض (ملكياً أكثر من الملك)، وحينما يشير كتبة التوراة إلى لغة أسلافهم لايقولون «لغة عبرية» وهذه تسمياتهم، من الأقدم إلى الأحدث:

—(**سفر أشعيا** الاصحاح ١٩، ١٨: «في ذلك اليوم تكون خمس مدن في أرض مصر تتكلم بلغة كنعان وتحلف لرب الجنود يقال لاحداها الشمس» .(وحرفياً كما جاء في التوراة: مدبّروت تتكلم (سفَة/ شفة، لغة) كنعَنْ).

—**سفر الملوك الثاني** الاصحاح ١٨، ٢٦: «فقال إلياقيم بن حلقيا وشبنة ويوآح لربشاقا كلّم عبيدك باللغة الآرامية فانا نفهمها ولا تكلمنا باليهودية على مسامع الشعب القائمين على السور»

—**سفر نحميا** الاصحاح ١٣، ٢٤: «وكان نصف كلام أولادهم بلغة أشدود ولم يكونوا يحسنون التكلم باليهودية بل بلسان شعب وشعب».

أما مفهوم «لغة عبرية» للدلالة على لسان معتنقي الديانة اليهودية، التي راحت تتطور في بابل، ثم بعد العودة من السبي، في فلسطين، فلانجده الا اعتباراً من القرن الأول للميلاد وذلك في انجيلي (لوقا ويوحنا) وذلك اشارة الى صلب السيد المسيح، والى اللوحة فوق رأسه كالتالي:

—(انجيل يوحنا، الاصحاح ٢٣، ٣٨: «وكان عنوان فوقه مكتوباً بالحروف اليونانية واللاتينية والعبرانية..»

—انجيل يوحنا، الاصحاح١٩، ٢٠: «وهذا العنوان قرأه كثيرٌ من اليهود لأن الموضع الذي صُلب فيه يسوع كان قريباً من المدينة وكان مكتوباً بالعبرانية واليونانية واللاتينية.».

ولذلك نرفض اصطلاح اللغة «العبرية». وينطبق نقدنا لكتاب (جغرافية التوراة..) على نموذجه الأصلي، (التوراة جاءت من جزيرة العرب)، حيث ينقل زياد منى، دون تعديل كبير أقوال كمال صليبي.

ولنأخذ نموذجاً من كتاب هذا الأخير: «وحينما تكلم القرآن عن الآباء العبريين أو عن اسرائيل أو عن الأنبياء اليهود...» (١١)

نود أن نقول للدكتور صليبي ومشايعيه بأن القرآن الكريم لم يأت ولم مرة واحدة، على ذكر «عبريين، عبرانيين، لغة عبرية الخ...» بل أشار إلى القوم كالتالي في بعض سوره:

هوداً (٦ مرات، البقرة ١١١، ١٣٥، ١٤٠، الاعراف ٦٥، ٥٨).

اليهود (البقرة١١٣، ١١٣، ١٢٠، المائدة ١٨، ٥١، ٦٤، ٨٢، التوبة ٣٠)

يهودياً (مرة واحدة، آل عمران ٦٧).

كما جاء ذكر «**بنو اسرائيل**» ثلاث وأربعين مرة في سبع عشرة سورة مختلفة.

ونأتي الى «بيت القصيد» كما جاء في كتاب زياد منى: «الآن، لقد بينت قراءتي لهذه النصوص الجغرافية في ضوء جغرافية عسير، انها لم تستفد من ناحية التعرف على مدى قدم النصوص التوراتية وصحتها فحسب(*)، بل أنها أسهمت أيضاً، والى حد ما، في التعرف على بعض من آلهة العرب القديمة، وعلاقة العربية والعبرية.

أخيراً اترك للقارىء، إما مشاركتي هذه القناعات، اوالاختلاف معه» (١٢).

كلا، واستنادا على كل ماجاء أعلاه، لانشارككم قناعاتكم، بل نحن وإياكم على طرفي نقيض.. ولنا ثقة كاملة بنباهة القارىء العربي.

---

* وقول المؤلف هذا، يتناقض مع ما ذكره أعلاه (ص١٥)، عندما قال: «أما العهد القديم (المقصود هنا التوراة.م.م) نفسه، فهو عبارة عن مجموعة من النصوص المتباينة في قدمها عن تاريخ بني اسرائيل والتي تنقل بالاضافة إلى الخرافات والأساطير والتاريخ كتابات وأحكاماً دينية ونسكية».

الحواشي

١—الدكتور كمال صليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العرب** الطبعة العربيـــة الثانية، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٦ .

٢—هنا لابد من الاشارة الى كتاب أثار ضجة في الأوساط العلمية العالمية منذ صدوره في عام١٩٩٤وأدى بصاحبه **توماس طومسون** أستاذ علم الآثار في (جامعة مليووكي الامريكية) إلى فقد مركزه الاكاديمي بضغط من الاوساط الصهيونية وعنوان الكتاب:

Early History Of The Israelite People، من اصدار دار E.J.Brill ليدن نيويورك— كولن، ١٩٩٤ . وقد صدر عن دار(بيسان للنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٩٥) نسخة مترجمة للكتاب بعنوان«**التاريخ القديم للشعب الاسرائيلي**» بقلم الاستاذ صالح علي سوداح.

علماً ان النسخة العربية قد أفقدت الاصل بعض أهميته لاهمال المترجم ذكر المصادر والمراجع والملاحظات الهامشية، وعلى أي حال، يظل العمل مشكوراً وذا نفع، لاسيما لغير ذوي الاختصاص.

اذ ان الاستاذ طومسون قد اعاد النظر في مختلف الدراسات المتعلقة بالموضوع، والتي صدرت منذ حوالي القرن، داحضاً مفاهيم وفرضيات أنصار المدرسة التاريخية/ الآثارية التوراتية ، وياحبذا لو تناول بعض باحثينا العرب (كزياد منى وأقرانه) موضوع تاريخ فلسطين القديم بهذه الجدية والشمول، مقلعين عن مشتقاتهم اللغوية و«بهلوانياتهم الجغرافية » لصالح الجميع. وعلى كل لأهمية كتاب الاستاذ طومسون، لنا عودة إليه في الاعداد اللاحقة لمجلتنا.

٣—بشأن ذلك انظر: **قاموس الكتاب المقدس** الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧١، ص ٧٦٣ .

٤—**قاموس الكتاب المقدس**، ص ٨٤٥، بالنسبة لنسخة حلب، فهي موجودة حالياً في فلسطين المحتلة.

ونحن نعلم حالياً كيف جرى تهريبها من حلب عبر تركية وذلك من كتاب نُشر مؤخراً بالفرنسية بعنوان **Le Siècle D'ISRAEL** دار Fayard ١٩٩٤، حيث يذكر الكاتبان (ص٥٣١ ومابعدها) طريقة تهريبها بملابساتها المختلفة.

٥—انظر على سبيل المثال كتاب: **مختارات من النقوش اليمنية القديمة**، اعداد محمد عبد القادر بافقيه وآخرون، منشورات : المنظمة العربية للتربية والثقافة العلوم ، ادارة الثقافة ، تونس ١٩٨٥ .

٦—انظر حول ذلك كتاب: محمد محفل، **المدخل إلى اللغة الآرامية**، منشورات جامعة دمشق، الطبعة الخامسة ١٩٩١ / ١٩٩٢ ، ص ٥ ومابعدها.

7-JOHN A.,. Wilson Egyptian Historical Texts ; (In J . Pritchard's Near Eastern Texts, Princeton) P. 227.

٨—**مصر الفراعنة**ترجمة: د.نجيب ميخائيل ابراهيم ، مراجعة :د. عبد المنعم أبو بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٣، ص ٢٩٢، ومابعدها

9-**A. Dupont - Sommer**, Les Araméens, Lib. A. Maisonneuve. Paris , 1949, P.P.35 F. F .

وصدرت نسخة عربية مترجمة في عام ١٩٨٨عن دار أماني ، طرطوس، طبعة أولى بقلم ناظم الجندي، ومراجعة د. توفيق سليمان.

10-H. Sader , Les États Araméens depuis leur Fondation jusqu a` leur tranformation en Provinces Assyriennes, 1984, Dissertation.

ولمزيد من التفاصيل انظر: د. علي أبو عساف، **الآراميون**، دار أماني ، طرطوس، طبعة أولي ١٩٨٨، ص ٧٠ومابعدها.

١١—**التوراة جاءت**..ص ٦٩ .

١٢—**جغرافية التوراة**..ص ١٧٥ .

****